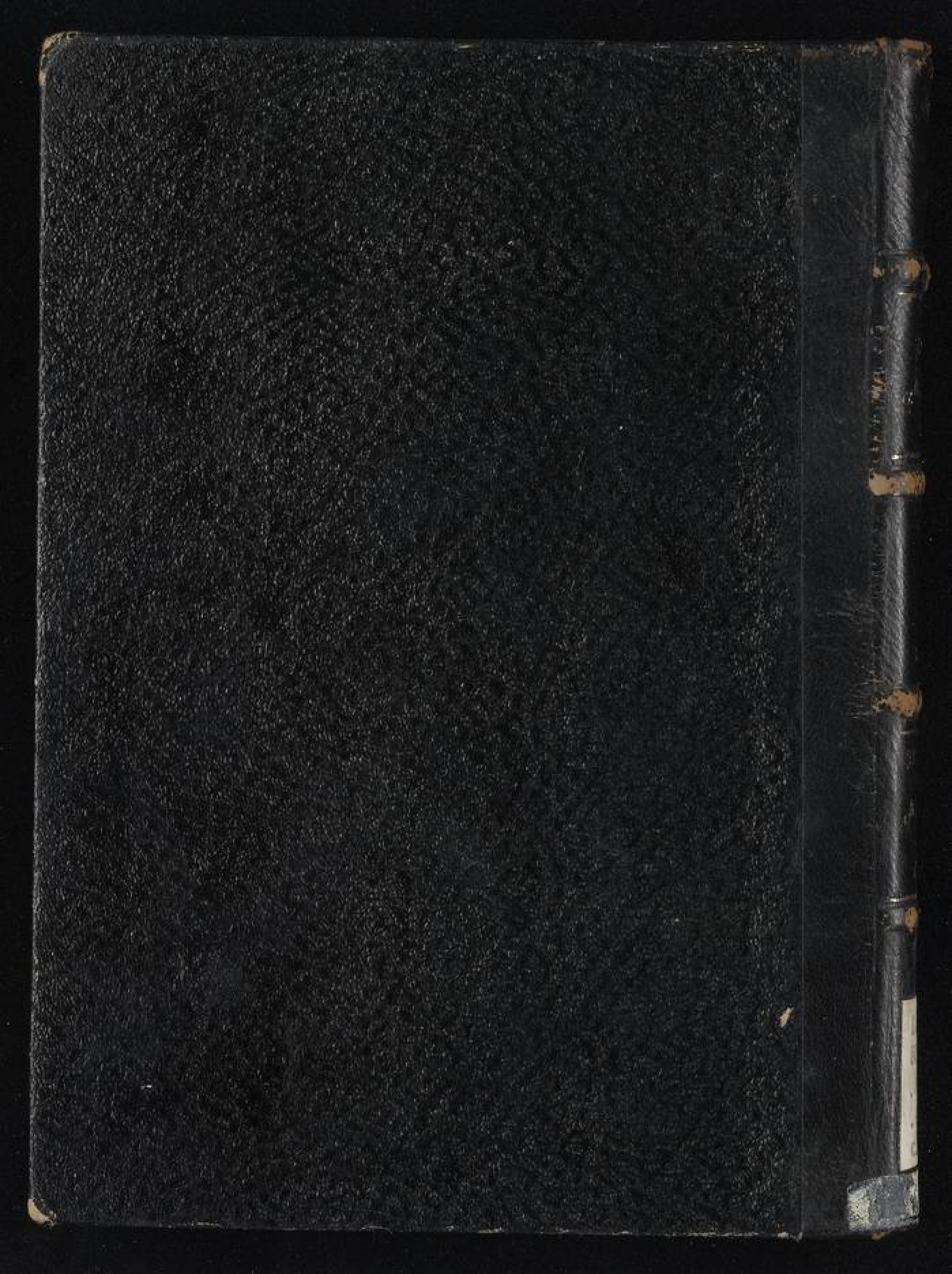
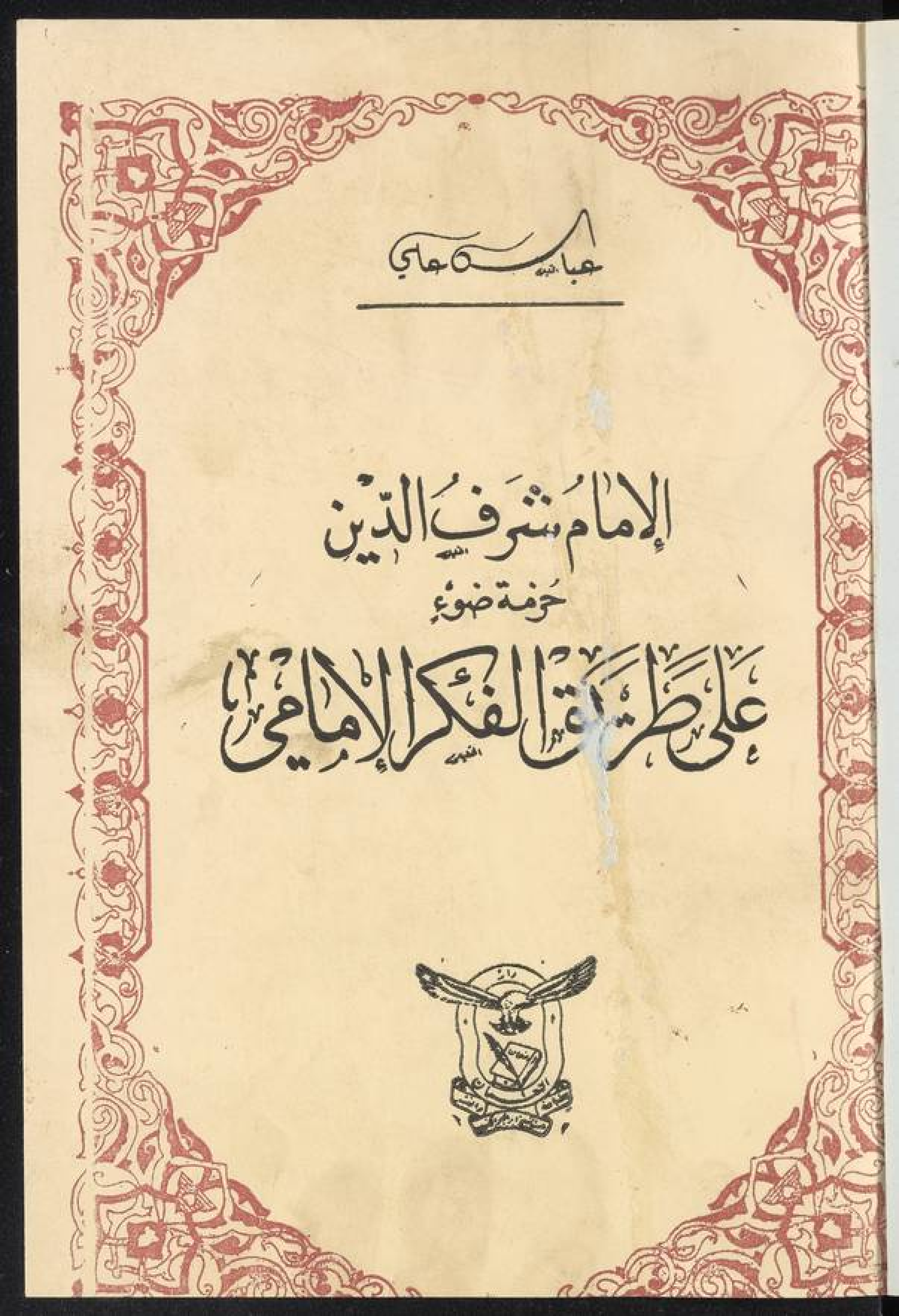


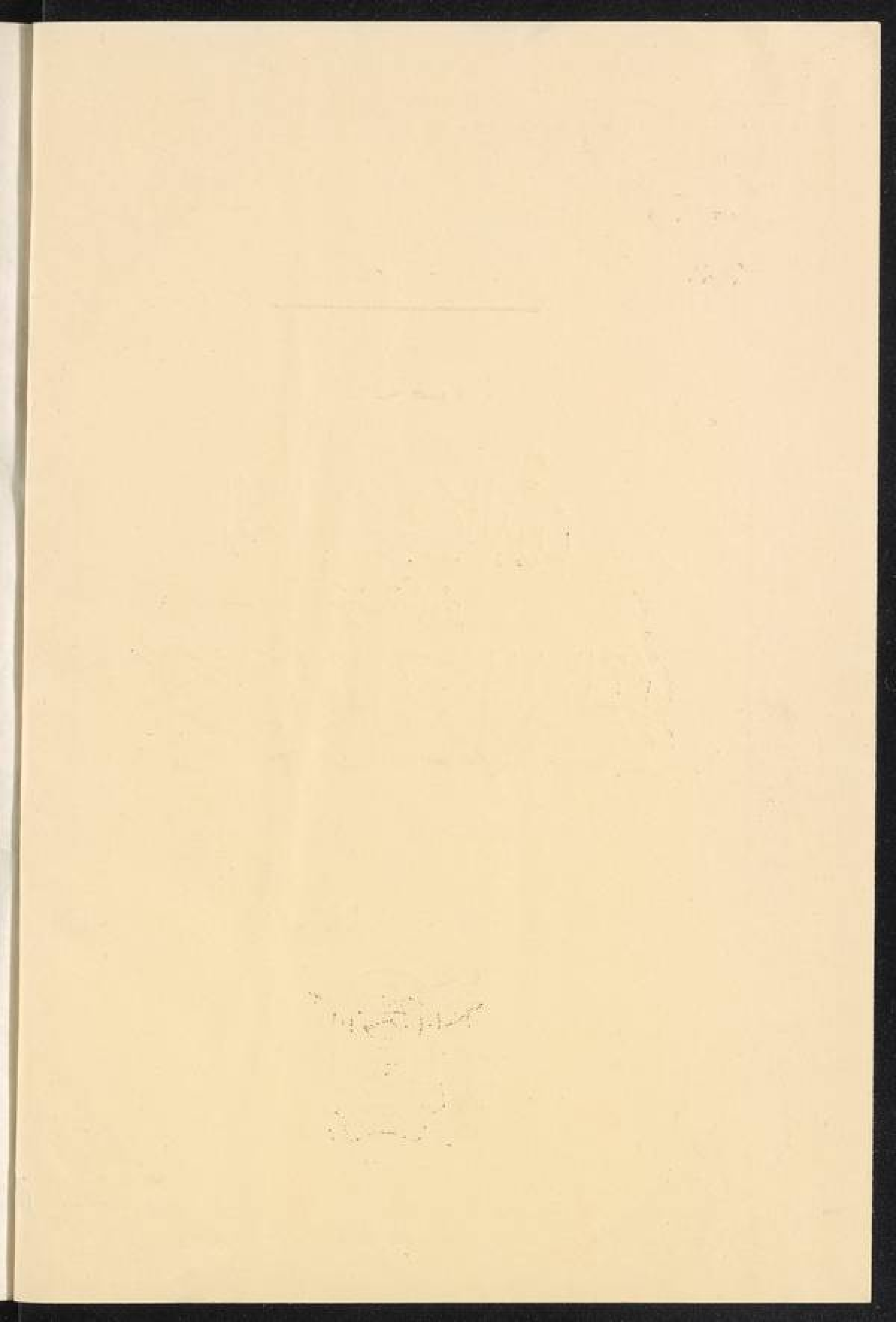


عباس علي

الإمام شرف الدين

حزمة ضوء

على طريق الفكر الإمامي



'Alī, 'Abbās.

al-Imām Sharaf al-Dīn ḥuzmat ḍaw' 'alá ṭarīq al-fikr al-imāmī.

عباس علي

الامام شرف الدين

حزمة ضوء

على طريق الفكر الامامي

دراسة واعية تتناول الجانب الفكرى من حياة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين . الرجل الذي جدد أطر مفاهيم ، ووضع نقاطاً على حروف ، وساهم في ايجاد مناخ ملائم لنمو فعاليات اسلامية متفتحة على مسرح الفكر .



مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٩٩٧ ١٩٦٨ م ـ ١٣٨٨ هـ

كلمة الناشر

ساهمت « دار النعمان » في النجف الأشرف مساهمة فعالة في نشر مجموعة خيرة من مهات الكتب الاسلاميـــة التي اخذت مكانتها الرفيعة في الأوساط الدينية وعند العلماء ورواد الفكر الاسلامي ، وانهالت على الدار كثير من كلمات الاطراء والتشجيع مما دفعها الى الاستزادة من نشاطها في احياء هذا التراث الخالد .

وكان من بين هذه المجموعة مؤلفات سماحة الامام آية الله المغفور له السيد عبد الحسين شرف الدين ـ تغمده الله برحمته ورضوانه ـ اذ كان للدار شرف تزويد القراء الكرام بنشر كميات هائلة جداً من هذه المؤلفات وتوزيعها بأثمان تكاد ان تلحق بالخياليات في الزهادة والرخص ، وكل ذلك ليتيسر لأكبر عدد ممكن من القراء ان يقتنيها ويتمتع بقراءتها والاستفادة منها .

واليوم اذتقوم «دار النعمان » بنشر هذه الدراسة القيمة لحياة سماحة الامام شرف الدين العلمية والفكرية تكون قد اكملت حلقة متصلة الجوانب من المعارف الاسلامية التي نوت السعي في بثها ونشرها بين المسلمين ·

وتود الدار في هذه الكلمة القصيرة ان تزف آيات الشكر والثناء الى كل من آزرها في مهمتها وساعدها فكراً وقاماً ، وتخص منهم بالذكر مؤلف هذا السفر الثمين الكاتب الكبير الاستاذ عباس علي . . . وترجو منه تعالى ان يمن على الجميع بما فيه الخير والصلاح .

حسن محمد ابراهيم الكتبي

الأهداء

سيدى العلامة السيد محمد صادق الصدر

لقد سكب « المقدس » الامام شرف الدين - رضوان الله عليه - من إيمانه وقلمه وبيانه ، فى ذهنى أحاسيس شتى ، أتحفتني هـذه الأحاسيس - وجدك - بالظل الذي ينشده الهارب من الوهج واللظى ، وغمرتنى - وبيتك - باليقين الذي يهدىء الروع ، وينزل السكينة .

وقليل ان أقول : اني تشربت حبه ، أحببته عن وعى ، وثقة وعقيدة : والحق - ياسيدي - انك كنت وسيلتي لمعرفـة السيد المقدس ، وكنت اليد الكريمة التي أشارت الى مصدر النور .

أرشدتني الى مقومات بيـانه ، وقدتنى الى رحاب بلاغته ، وأوصلتني الى معين خلقه ومروءته .

ثم انت بعد ذلك قبس منه .

أخذت عنه ، واغترفت من منهله ، وسلكت دربه ، وتمنطقت بشمائله وثنيت تلك الوسادة تحت سمعه وبصره .

واترك ورائى كل الخصائص الانسانيـة التي تتزاحم في أعماقك : الحلم والمروءة والشهامة ، وكل واحدة منها تكفى ان تجعلك في القمة . . . ان ترصد من بعيد . . . ان تكون العنوان :

فهل كثير مني ان أهدي اليك هذا الكتاب .

فتفضل علي بقبوله .

المؤلف


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم العلامة الشيخ محمد حسن آل ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطيبين الطاهرين .

هناك قضية بديهية لا يمكن أن يطرقها الشك أو يعلو فيها ضجيج المناقشة ، خلاصتها : ان كتب التاريخ الاسلامي عبارة عن اكداس من الروايات والنقول رتبها جامعوها على تسلسل السنين أو تسلسل الحكام من دون أن يعنوا بفحصها ونخلها وتمييز سمينها من غثها وصحيحها من سقيمها ، ومن دون أن يعنوا أيضاً بدراسة أسباب ما سجلوا فيها من ثورات وانتفاضات وانقلابات وتبدل حكومات .

فكانت هذه الكتب على كثرة أسمائها وضخامة مجلداتها أشبه ما تكون بالجرائد اليومية التي تروي أخبار الانقلابات والحروب وتبدل الرؤساء ، من دون اشارة الى ما وراء ذلك من دوافع ومبررات :

وحوادث التاريخ - في واقعها - مجموعة أسباب ومسببات ، وما لم تبحث الأسباب فلن يستطيع أحد أن يفهم المسببات حق الفهم ويدركها حق الأدراك ومؤرخونا المسلمون - يغفر الله لهم - يفرون من هذا المنهج فرارهم من تهمة الزندقة فيمرون بسائر الحوادث مرور الكرام ، وبذلك زرعوا فى نفس القارىء المحقق مللاً ومأماً وشكاً واتهاماً لكل مايقرأ ومايعي من مرويات تلك الكتب .

خذوا - مثلا - حروب الردة .

هل بحثت ودرست أسبابها وعواملها الظاهرة والخفية ؟ وهل كانت كلها ردة - كما رووا - أو كان فى ضمنها مسلمون لم يعترفوا بنظام حكم جديد وهل عدم الاعتراف بنظام حكم ما يعتبر ردةً عن الاسلام ؟ واذا كان هذا صحيحاً فهل عدم اعتراف معاوية - مثلا - بنظام الحكم بعد مقتل عثمان ردة منه عن الاسلام ؟

ثم هل كانت ثورة أبي حفص على خالد بن الوليد حينما بلغه نبأ عدوانه على مالك بن نويرة وأصحابه حقيقة أو مصطنعة ؟ فان كانت حقيقة فلماذا تراجع عنها ؟ وهل كان معنى الاجتهاد والتأول - وقد قيل ان خالداً تأول فأخطأ - هو سفك دماء المسلمين ؟ واذا كانت مصطنعة فما هي أسباب هذا التصنع ؟ .

هذه وأمثالها وفى التاريخ آلاف منها لم يبحثها المؤرخون كما ينبغى ، ولم يحاولوا التعمق فيها لمعرفة أسبابها ودوافعها ، ولعلهم تعمدوا ذلك مع سبق إصرار ، في محاولة كانوا يتخيلون ضرورتها لأبعاد حكام المسلمين - لدى الأجيال التالية لهم - عن مجالات الجدل والمناقشة في سلوكهم وتصرفاتهم وأعمالهم .

ومع دخول هذا القرن الذي نحيا فيه بدأت تطلع في دياجي التأريخ نجوم وتتوقد شموع وتتلألأ أهلة وبدور ، ثم بدأ الناس بعد أن غمرتهم المعرفة وخرجوا من سجون الأمية يتساءلون عن السبب فى كل حادث والتعليل لكل ظاهرة والمبرر لكل تصرف ، وانطلق لفيف من الأعلام المحققين الى التاريخ يفحصون خباياه ويبحثون بين زواياه ويستجلون ماوراء السطور ، لكى يصلوا الى الجواب المقنع على كل سؤال ، والرد الصحيح على كل علامة استفهام ،

وكان من رواد هذا الميدان - في أهم جوانبه وحلباته - سماحة المغفور له الامام المجاهد العظيم السيد عبد الحسين شرف الدين رضي الله عنه وأرضاه.

درس الامام شرف الدين التاريخ دراسة الممحص الحصيف، وفحص كل ظواهره وبواطنه فحص العالم الخبـير، وقارن بين تلك الأكداس من رواياته مقارنة الناقد الحكيم، وأخضع كل الرواة والمحـدثين لمبادىء الجرح والتعديل المتفق عليها بين المسلمين، ثم خرج من تلك الجولة الطويلة المضنية بالنتائج التي لا تقبل الشك ولا يرقى اليها الريب.

واذا كانت كتب الأمام شرف الدين متجهـة بظاهرها نحو الدفاع عن عقائد الشيعة الامامية ومبادئها، فانها في واقعها عملية غربلة بعيدة المدى عميقة الغور لما يسمى بمصادر التاريخ ومراجعه، بل انها في واقعها أيضاً مدرسة من مدارس التحقيق المنهجي والبحث الموضوعي فى تلك المصادر والمراجع:

وبهـذه المنهجية والموضوعية كان الامام شرف الدين قمة من قمم الفكر الاسلامي المعاصر، التي تستحق الدراسة والبحث، لكى يستلهم الجيل الجديد من منهجيته منهجاً لدراسـة التاريخ، ومن موضوعيته سبيلا لنشدان الحق الضائع بين أكوام الروايات المعنعنة والأسانيد المطنطنة، التي حيكت حولهـا أبراد وأبراد من القدسية المصطنعة، إمعاناً في إخفاء الحق لئلا يظهر، وإصراراً على حبس الفكر بين تلك الجدران لئلا يحاول التفرج من الكوى على مايجرى خارج الجدران.

• • •

وكما كان للامام شرف الدين دور الريادة للفكر الاسـلامي القائم على العقل الفاحص اليقظ والذهن النيقد الفيلسوف، فان للصديق العزيز الفاضل الاستاذ عباس علي دور الريادة أيضاً، ذلك لأنه أول من ساق قلمه - مغموساً بضوء المعرفة الأصيلة والخبرة الواعية - الى البحث فى حامل ذلك العقل الملهم

وقطب تلك المدرســة المتميزة بالعمق والتمحيص ، فكان له فضل السبق كما كان له فضل الاجادة ، وكان اجتماع هذين الفضلين في هذا الكتاب دليلا على فضل مؤلفه السباق المجيد ، وعلى نفاسة بحثه الرائع الفريد .

وعلى الرغم من اختلافي مع الاستاذ المؤلف ـ أيده الله ـ في بعض يسير جداً من الأفكار الجانبية التي تعرض لها في هذا المؤلف القيم ، فاني لا استطيع كتمان إعجابي واكباري وتقديري للمنهج والاسلوب اللذين أخرجا من هذا الموضوع كتاباً سيكون ـ بلاشك ـ من كتب الموسم التي ينثال عليها المعنيون بالدراسات الاسلامية ، وبخاصة اولئك الذين عرفوا الامام شرف الدين ويطلبون الاستزادة من تلك المعرفة .

ولا يسعني في ختام هذه السطور إلا أن أزجي تهنئة حارة مخلصة للاستاذ المؤلف الأديب على نجاحه في هــذه « الحزمة » المنيرة المشرقة ، راجياً من الله تعالى أن يحفظه ويرعاه ويسدد خطاه ، ويأخــذ بيده نحو مزيد من البحث والدراسة في مثل هذه المواضيع الاسلامية الهادفة ، التي تحمل في طياتها التكريم والتعليم ، تكريماً لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وتعليماً لأجيال غمرتها المادة فلم تعد ترى بصيصاً من شعاع الروح :

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الكاظمية ٢١ / ٦ / ١٣٨٥ هـ محمد حسن آل ياسين

الفصل الاول

حرف ... ونقطة

... وأعترف بصراحة ان الكتابة عن الامام شرف مهمة شاقة ، وتبلغ مشقتها الذروة حين أحاول أن يأتي دلوى مملوءاً الى الحـافة ، ومع ذلك فقد درست « الرجل » بمقدار فهمى لآثاره .

الامام شرف الدين

من سمات هذا العصر البارزة ان النقد البناء بات ركيزة رئيسة من ركائز حرية الفكر ، كما باتت حرية العقيدة بعد ذلك مسألة لا يطاول بداهتها نقاش ولهـذا حفلت الحياة العقلية للناس بشتى مظاهر الصراع العقيدي ، وتمكنت المدارك المتحررة من امتلاك نواصي التحليل والعرض والتوعية على كافة مستويات المبادىء والآراء والنحل .

وبالرغم مما واجهته البشرية في هذا العصر بالذات من عواصف وتيارات وحروب طاحنة أشعلها - مع سبق إصرار - مستعمرون وامبرياليون وعنصريون متطرفون ، فان الاتجاه السائد كان دائماً الى جانب الانسان فى حقوقه وفكره وعقيدته ، وبمعنى آخر لم يكن في مقدور تلك الظروف الكالحـة الممعنة في السواد ، وما تعلق بأذيالهـا من نزعات وميول مشحونة بالحقـد ان تنتزع من القرن العشرين بوجه خاص صفته الغالبة ، أو أن تفرض عليه من جهة أخرى مفاهيماً تحتجن تحت آباطها قيوداً لحرية الانسان أو مطامحه أو آماله فى الحياة .

وقد رأينا من خلال سنين تركناها وراء ظهورنا ، كيف تدحرج العديد من المحاولات اللاانسانيـة الى القرار الذي لم يكن عنه من محيص ، وكيف كانت نهـاية التكالب والحمق والخضوع الاهوج لمنطق الرساميل ، واستعباد الناس ومخططات القوة ، وإرهاصات الفكر المترعرع فى العفن .

أقول . . فتح هذا العصر أبوابه على مصاريعها للفكر الحر يستلم دوره القيادي وينهض بتبعاته ومسؤولياته على النحو الذي يتيح فيه للناس أن يعبروا عن آرائهم ومعتقداتهم ومطامحهم بصورة لا يتحكم فيها كبت ، وبوجه لا يهدد فيه مقدراتهم أنف دارم .

وكشيىء طبيعى أصبح في متناول الناس - معظمهم - أن يجـدوا فى القراءة والتتبع ما يعينهم على تلمس الجوانب الموضوعيـة لكل حركة أو رأى

أو فكر تناثرت مفاهيمه بين الجماعات او الأفراد ، سواء كان ذلك قديماً أم حديثاً .

ولقد سلطت الثقافة المعاصرة - بما زودت به روادها من مقاييس - النور على كثير من مسائل الحياة ومنها التاريخ ، فالمشكلة التاريخية - أية مشكلة - لم تعد تتحمل أعباء الأخذ والعطاء فى الفارغ كما يقال ، بل على نقيض ذلك تماماً ، في وسع المؤرخ المنصف أن يضع تلك المشكلة فى إطارها الصحيح مجردة من الرتوش والمساحيق ، واذا وجد اليوم بين المؤرخين من يحاول ان يعود بالفكر التهقرى ، فيحيل الحادثة التاريخية الى طلسم ، أو يسوقها على نحو سفسطائى ساذج ، فتلك ليست سوى لحاجة غيبية ، أو ردة اخلاقية لا محل لها من الاعراب على حد تعبير النحاة .

ولقد تقدمت دراسة التاريخ تقدماً ملحوظاً وبنفس المستوى الذي اندفعت فيه العلوم الأخرى ، ولهذا فالموازين الدقيقة التي تعارف عليها دارسو علم التاريخ تهيأ من التاريخ جراحاً يحمل المبضع في يده لتغور أنامله فى أعماق القضية التاريخية باحثاً ومستقصياً ومعالجا ، من أجل أن تقوم دراسته على قواعد من العلم والتركيز والاصابة .

والمؤرخ الحصيف هو الذي يضع الحقائق فى أنصبتها دون ان ينحاز الى جهة أويضلع بغير الحق مع أخرى . . أما اولئك الذين تتجمد حناجرهم على الحرف الخبيث ، فليسوا فى الواقع سوى دمى هزيلة تتحرك بايحاء ، والافكار الحديثة الحرة الصاعدة كفيلة بها وبنفاياتها الضارة . تركلها الى حيث تسد خياشيمها حفنة من تراب .

والتاريخ الأسلامي وهو الموضوع الذي يتصل بصميم هذه الدراسة ، تعرض فى مسيرته الطويلة الى ضروب لاحدلها من المعاناة فأصبحت آثاره مع الأسف

مصدر قلق وبلبلة بدل ان تكون اداة واعية تعبر عن حقائق يركن اليها .

ونظرة عميقة الى الموضوع تدنيك بيسر من السبب ٠

السياسة بانفعالاتها العشوائية أفسدت على التاريخ الاسلامي منهجيته وطوحت بمقوماته .

ومما لاريب فيه ان تحكم المعايير المصلحية الحادة فى اي غرض من أغراض الحياة يشكل بمرور الزمن انحرافاً ملموساً في عمود الغرض نفسه .

وهذا هو ما حصل بالذات . .

كان انصراف المؤرخين الى تأييد السلطة السياسية ، وانكماشهم عما يؤول الى مناهضة الأنظمة الملتوية التي تجافى روح الدين ، وتضادد مسؤولياته الخطيرة صبباً فى تبديد اكثر من فرصة واحدة ، كان من الممكن ان تكون فرصاً ممرعة بالنسبة للدعوة الاسلامية ، وانطلاقاتها فى دنيا الخير والانفتاح والانسانية .

ومن الطبيعي بعد ذلك ان يصطدم الفرد المسلم في حاضره المتأزم هذا بتلول من الموسوعات . . ، يسمونه تجوزاً . . تاريخ ، وماذا فيه ؟ .

ركوع باستخذاء تحت أقدام طغاة ، إضفاء صفات الملائكة على مصاصي دماء ، تشويه ساذج لمواقف نبيلة معطاءة ، تعفير جبهة الأمانة التاريخية في تراب غرض حقير :

يستدل من هذه الاوصاف ان تلك الموسوعات كتبت تحت وطأة سياسة معينة ، فكل ماورد فيها ـ وهذا شيء بديهي ـ من صميم ما تصافقوا عليه مرتزقة وحكاما ٠

ومن العجيب حقاً ان تصبح هذه المدونات لدى بعض المسلمين في مستوى الموارد التي يستقى منها الدليل ، وبها وحدها تساس افكارهم ، وعنها وحدها يأخذون متطلبات دينهم فى دنياهم وآخرتهم . . .

ومن القضايا التي شملها الخلط في هذا الميدان - مسألة التفريق بين الدين والدولة إذ مما لاشك فيه ان شيئاً من العناد أو ما شابه يعتور بعض جوانب القضية ، فالدولة اموية كانت ام عباسية ام عثمانية ام اية اجهزة اخرى حاكمة ، تنطلق في تصرفاتها عن نظرة سياسية مجردة بعيدة عن محتوى الشريعة السمحاء . كان ينبغي ان يرفع اولئك المؤرخون والكهان حرصاً على كرامة الدين وأسسه ونواميسه الصفة الدينية عن شعائرها وارتباطاتها ومهازل حكامها .

كانت سياسة الدولة الأموية مثلا بحدود ما حدثنا التاريخ تسلطاً وقهراً وانكباباً على الدنيا الى حد التخمة ، وانصرافاً عن الآخرة الى حد الاملاق .

انكتفى من ولى الأمر ان يخرج في موكب سلطاني مزركش ليؤدي صلاة الجمعة أو صلاة العيد فنسميه إعتباطاً وزوراً باسماء ليس لأحد منا أن يطلقها على كل من هب ودب ؛

إن مر نقمتنا على هـذا السلوك المجافي لابسط قواعد العدل والمروءة يأتي من مدرك أصيل من مدارك تجاوبنا مع صميم عقيدتنا .

نحن نفهم الدين على انه شريعة سماوية ، يحكم دفتها دستور لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وان مواد هذا الدستور واضحة ، واحكامه معلمة ، وحدوده صريحة ، وكل شذوذ في الأخـذ بمعنى من معانيه لا يعني شيئاً بقدر ما يعني الخروج عن الجـادة ، والتورط في إحياء نزعات جاهلية ضارة ، وافساح المجال لظهور امراض اجتماعية مرهقة ، وتمهيد السبيل لنمو قوى غوغائية مراهقة .

ان بعضاً ممن حـكم المسلمين في أيامهم الأولى لم يتورعوا من الأساءة الى حدود الاسلام كل بمستوى ما كان يحتلـه من مركز ، والى الأفتئات على أقداره وأغراضه ، والى تجميد طاقاته وحصرها في مجال ضيق ، والى

تعطيل موازينه الصارمة الدقيقة .

كانوا ولعل بيننا اليوم من يرى رأيهم ! ! ! يسمون فلاناً الذي كان يشرب الخمر بالكبير وبالصغير اميراً للمؤمنين ، وفلاناً الذي أمر بهدم الكعبة اميراً للمؤمنين ، وفلاناً الذي أوقف العمل بأحكام قضى بها رسول الله أميراً وفلاناً للذي أمر بقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق أميراً وهكذا .

اننا لا ننكر ان بعضاً ممن سمي أميراً للمؤمنين ، أو صعد الى منصة الحكم على غير اساس رشيد ، كان على جانب كبير من فهم السياسة وادراك لمبانيها ومن اندفاع الى بلوغ القمة كملك عريض السلطان ، موفور الهيبة . لقد خدموا امتهم خدمات بعيدة الأثر فى حقول الفتح والبناء والتطوير ، غير انهم عجزوا - وهنا الطامة - ان يكونوا القدوة في حكم إسلامي محض ، يتبنى بحزم واخلاص أحكامه وتطلعاته .

كان معاويـــة على سبيل المثال سياسياً من الطراز الأول ، مارس فنون السياسة ولعب باوراقها عن كفاءة - وإن باء بالفشل فى احيان كثـــيرة - ، واستطاع بوسائله الميكافيلية أن يشد الناس الى حكمه شدا . . بالمال . . بجنود من العسل . . بالارهاب . . بالخداع . . بالمكر . . بالتخويف والترغيب . . بالقدرة على اصطفاء الرجال ، بالمهارة فى تحريك هؤلاء الرجال ، بنجاحه في ايقاظ روح العصبية الجاهلية في نفوس القوم ، وتجديد دمها ، ومضاعفة فاعليتها .

ان معاوية بعد هـــذا الاستعراض البسيط . . اين تضعه بين الحكام ؟ حكام اليوم أو حكام الأمس ، سيكون محله ولا ريب فى المقدمة ، ولكن . . حين تأتي الى معاوية كخليفة أو كأمير للمؤمنين أو كمسلم - وكثيراً ما تكذب الاسماء - تنقلب المسألة الى مأساة . . الى مهزلة . . الى ضحك على الذقون .

طعن الرجل الاسلام طعنات نجلاء لا سبيل الى انكارها ، مزق فى المجتمع

الاسلامي يومذاك روح الصراحة والتجانس ، زرع الأزدواجية في نفوس المواطنين هذا بالأضافة الى مجموعة الآثام الاخرى التي اقترفها والتي تدرك في مضانها المفصلة .

ومن هنا .. كان موقف الامام امير المؤمنين علي (ع) منه بالذات موقف مناهضة ومقاومة وثورة على اعتبار ان سياسة معاوية تشكل خطراً جسيماً وصارخاً على المفاهيم الاسلامية .

يروي الشريف الرضي في كتاب نهج البلاغة ان أحد أصحاب الامام علي سأل علياً عليه السلام عن قضيته مع ابي بكر وعمر وعثمان ولماذا استأثروا بالخلافة دونه وهو أحق بها منهم ؟ فأجاب الامام قائلا : « يا أخا بني أسد .. أما الاستبداد علينا بهذا المقام ، ونحن الاعلون نسباً ، والاشدون برسول الله نوطاً ، فانها إثرة شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين والحكم لله والمعود اليه يوم القيامة .. ودع عنك نهباً صيح في حجراته .. وهلم الخطب في ابن ابي سفيان ، فلقد أضحكني الدهر بعد ابكائه ، ولاغرو والله فيالـه خطباً يستفرغ العجب ويكثر الأود ، حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه ، وسد فواره من ينبوعه ، وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئا ، فان ترتفع عني وعنهم محن البلوى أحملهم من الحق على محضه ، وان تكن الأخرى فلاتذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون » (١) .

يقول الدكتور علي الوردي (٢) :

« اما النزاع بين علي ومعاوية فهو من طراز آخر ، انه أشبه بنزاع ينشب بين القافلة وقطاع الطريق ، فلا مجال لنا ان نقول بأن قطاع الطريق كانوا

(١) عبده : الشيخ محمد نهج البلاغة ج ٢ ص ٨٠ ـ ٨٩ .

(٢) الوردي : الدكتور علي حسين . مهزلة العقل البشري ص ٧٢ .

مجتهدين فى تصديهم للقافلة ، وكان لهم وجه من الحق فى عملهم هذا » .

كان معاوية وهو (عينه) من تشكيلة عريضة ، يستخدم الدين كواجهة كوسيلة . . كسلم .

الرجل الذي يعفر النفس المؤمنـة فى الوحل . . يشتري الناس ويبيعهم لقاء غرض ردىء . . يسفك الدم الطهور ، يفترى على الله الكذب ، يراوغ فى سبيل أن يرسى كرسى الحـكم له ولذراريه ، لا يمكن ان تجد في عمق أعماقه ذرة من نور الاسلام .

عرف الناس وخبروا أيام الرسـالة . . أيام القائد المنقذ . . بر الايمان وصدقه ، صفاء العقيدة ومعطياتها .

عاشوا أيام العمرين يتذوقون حلاوة العدل ، ويستمرأون طعم الكرامة قطعوا عهد الامام ابي الحسن ولمسوا جوانب الأصالة في دينه ويقينه ، ثم جاء معاويـة . . تعالوا على الاسلام نبكى ونلطم ! ! وضع روح الدين . . تعاليم الاسلام . . مدارك الشريعة . . محبة السماء . . عطاء العقيدة . . جهاد الرسالة نضال الصحابة . . على الرف . . وشمر عن ســاعديه يتعامل بالشكليات . . بالقشور . . بالمخدرات . . بالمرهنات . . بما يكره الاسـلام . . بما يشجيه الوعى المحمدي الصادق .

ومنذ ذلك اليوم بدأت السحب تتجمع . . سحابـة فى إثرها سحابـة ، وسيأتيك خبرها في هذا الحديث . . خطوة فخطوة .

***

كان هـذا النظام بحاجة الى كادر إعلامي ينصرف كلياً الى تنظيم الدعاوة له . . يمهد لـه الطريق ، ويرقع الالتواءات اللامنطقية ، والبعيدة عن مناهج الرشد بستار من الطلاء ، ويضع في جيبه قارورة . . ماء ورد أو اية

رائحة ذكية اخرى . . لتختفي من الجو ـ ولو لفترة قصيرة . . رائحة الفسيخ وقد كان .

اصطنعوا لهم ثلة من الممسوخ ، رست عليهم شروط المناقصة ، وتوفرت فيهم كل لوازم الحذلقة ، قاموا يروجون آراء الحزب الحاكم ـ ان صح هذا التعبير ، ويحاربون بضراوة آراء المعارضة ، فانتشرت أفكار وطويت أخرى في واقع طغت فيه المناهج السياسية على المناهج العلمية ، وذهب بعض أفراد هذه الشلة فى مدار هذه المعركة السياسية مذهباً عجيباً . . كان أحدهم (١) من أجل لقمة أو أكلة معينة ينسج حديثاً ، ويقيم شأناً .

ولعل من مقتضيات طبيعة هـذا البحث وموضوعيته ان لا نغفل النص على جملة من الأحداث سبقت هـذه الفترة ، وكانت في الواقع مصدر كل المضاعفات التي رفعت رأسها في العهد الأموى وما تلى ذلك من عهود . . ذلك المنطلق الذي عناه الكميت بن زيد في بيت من قصيدته اللامية السائرة :

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم   فيا آخراً أسـدى لـه الغي أول

فالتشنجات المشبوهة التي تمطت على مسرح (المدينة) فى أواخر ايام فخر الناطقين بالضاد تمخضت فى نهاية المطاف عن مأساة ربما لم يشهد التاريخ لها مثيلا .

وهاك طرفاً مضغوطاً من أمرها .

---

(١) أبو ريه . الشيخ محمود . شيخ المضيرة .

بحث جرىء يعطى القارىء المسلم أبعاد شخصية ابي هريرة ، ويكشف للناس زيفه وتفاهته ، ومدى تأثيره السيىء على مقومات الفكر الاسلامي .

محاولة قلم ازهرى متزن أن يصحح أفكاراً حملتها العصبية على قفاز من حرير الى اذهان كثرة كاثرة من المسلمين .

لو كتب لك أن تقرأ تاريخ تلك الوصلة من الزمن بعمق وتجرد ستجد ان صراعاً حاداً كان يمور يومئذ بين الرسالة وبين جبهة كانت تصطنع لها حلفا ... تراه مرة يطفو على السطح ، وفى مرات تضيع تكتلاته بين الأمواج وان إجراءات (١) معينة كانت تحمل اكثر من مدلول قد اتخذت فى حينه .. كان يراد منها ايجاد مخرج أو حل ولو موقت للأزمة .

ولا أطيل عليك . . .

في ساعة يرتعش فيها الروع . . وفى أقسى لحظة من لحظات البعثة النبوية الرسول العظيم يودع الحياة . . روحه الزكية فى طريقها الى بارئها .. أنزلت الجبهـــة فرسانها الى الميدان ، وبتكتيك سياسي خاطف ودقيق ورائع ايضاً ارتفعت الستارة عن المشهد الذي فغرله المسلمون الأفواه .

اننا نتساهل كثيراً حين نسمى هـذه الحركة الانقلابية بانها توجيه غير طبيعي لمعركـــة ذات شق سياسي ، لأننا لو اردنا ان نسمى الاشياء باسمائها لوجب علينا أن نرفع ورقة (التوت) ، ولا نجد من مصلحة الاسلام بأي حال من الاحوال ان نثـير غباراً حول مشكلة بات تقـــدير صوابها أو عدمه بيد الله سبحانه .

والحق ان استعراضنا لهذه القضية وعلى النحو الذي تقدم ، ليس من أجل أن نضيف الى القضية فصلا دراماتيكياً جديداً ، أو لنلقى بضع قطرات من الزيت على الشعلة الدائمة التوهج ، بل هدفنا يتلخص في تعرية هذا الموقف تعرية لا مجال للتشكيك في هويتـــه كأب شرعي للانشقاق الفضيع الذي حاق

(١) راجع مضان السير والأخبار فيما يتصل بسرية أسامة بن زيد لاسيما :
الطبري فى تاريخ الامم والملوك .
ابن الأثير فى الكامل في التاريخ .

بالمسلمين منذ ساعة (الفلتة) والى يومنا هذا ، وربما الى قيام الساعة .

قلب صفحات التاريخ . . .

منذ متى بدأت السهام تنثال على الامام علي ، وما هي التخريجات التي كان يلجأ اليها الدهاقنة فى تبرير ذلك ؟

حملوا عليه ، وعلى من تمسك بحبله ، حملات لا أجـد في ذهني كلمة تمطى في التعريف ، لأضعها حيث يجب ان توضع .

من قدر على قتالهم بالسيف كان لـه ما اراد ، ومن طمع في تشويه مواقفهم بالقلم جال في الميدان كما شاء .

ولرب سائل يسأل لم تتمسكون الى اليوم بالتنقيب عن حـدث طواه الزمن ، وتبحثون اموراً يكاد أن يعفى رسومهـا تداول الليالى والأيام ، في الوقت الذي يتحتم فيه على الواعين من الناس أن يطيلوا المكث الى جانب مجتمعهم وقد عمت الرزية فيه بتكاثر المحن عليه ، وأن يسهموا كل بمقـدار حوله فى توطيد أسباب الاستقرار النفسي للمواطنين وانقاذهم من براثن فوضى الاخلاق ، وأزمة الضمير ، وانتكاسة الأعراف ، عن طريق إشاعة المفاهيم الطيبة ، ونشر واقع الاسلام وتطبيقاته الحية .

ثم . . إن التاريخ حين يدرس ينبغى أن تقوم دراسته على أمر يستفيد منـه الناس في حاضرهم ومستقبلهم ، كما تضع الشعوب الحيـة في دراستها لتاريخها ، ولعل من السخف أن نتجاول في أمر مضى على حـدوثه ثلاثة عشر قرناً ، ونحن ما برحنا في أماكننا لم نستفد من هذا الجدل البيزنطي شيئاً بل بالعكس أضفنا الى مآسينا مأساة جـديدة نتحلب شطرها انشقاقاً وضعفاً وهوانا . . وناهيك بعد هذا عن مكاسب الاستعمار الخيالية ومآربه من تقاتل الأخوة وكيف استطاع عن طريقـه ان يمرر كافة مخططاته الجهنمية التي

استأثرت بخيرات البلد وامكاناته :

هذا أمر وارد . . ولكن المسألة - ككل - ليست موضوع علي وجماعة مناوئة ، ولا مسألة تفضيل ومفاضلة . . يعني ليس في الأمر جانب شخصي طارىء ، لكي يتصور ان القضية لا تعدوان تكون غير مسألة نشر غسيل قذر وان المصلحة تقضي ان يطوى هذا الغسيل ، أو ان ينشر بين جدران أربعة على الأقل .

لا . . ان القضية أعمق من هذا وأبعد غورا . . لانها مسألة مبدأيه تتناول مقومات دين يحمل في كفيه وفي مستوى عالمي أسباب الخير والطمأنينة والسلام للناس أجمعين .

هذا الدين بقواعده السليمة ، وبأسسه المنطقية القويمة ، وبتشريعاته الحكيمة أراد بعض المسلمين ان يقلبوه الى لعبة ، او الى كرة تتلاقفها الأيدي ، أما غير ذلك ، فوالله لا جنة ولا نار ! !

ولو أردنا ان نضع مسألة الإمامة وهي جزء مهم من أجزاء تراثنا الفكرى والعقيدي جانباً وأن نخوض فى بحث الخلافة بروح موضوعية ، نجد ان كل التبريرات التي استخدمت فى سبيل اضفاء طابع الشرعيــة على نتيجة اجتماع (السقيفة) لا تستدر قناعة الاماميين بأي وجه من الوجوه .

وسبب ذلك لا يعود الى النتيجة ذاتها كما ستقرأ ذلك فى الحلقات القادمة وانما أصل المشكلة ينحصر في الاسلوب المباغت الذي حسمت فيه القضية اولا وفي الانصياع كلياً الى المفاهيم التي نبذها الاسلام ، وحاربها بلا هوادة رسوله الكريم ثانياً .

ودور الفكر الامامي عند هـذه النقطة يتبلور في تمسكه بوجهـة نظره التي تعتبر الحركة الانقلابية عاملا رئيساً فتت وحدة النضال الاسلامي ، وشجع

زمر المنافقين الذين دخلوا الاسلام إما رهبة وإما رغبة على التربص والتماسك واهتبال الفرص .

وبقى موقفنا من الامام علي (ع) لماذا نتشرب حبه ؟ ولأي أمر نتفانى في الأخذ برأيه ؟ . . ألمجرد قرابته لنبي الانسانية ، وهناك من هو أحكم وشيجة بالرسول العظيم منه ، نبذناه ظهريا . . أم لماذا . . اشجاعته وهذا وحده لا يجيز عقلا ان نكون اعتباطيين الى هذا الحد .

ان الاحاطة بمكانة الامام علي في الاسلام أصبحت مثيرة حتى لدى ادنى مستويات الثقافة سواء كانوا من المسلمين او من غيرهم ، وان هـذه المكانة هي التي قومت في خضم تيارات متضاربة الدافع الأساس للمدرسـة الامامية ، وربطت بين روادها هذا الرباط الوجداني العميق الذي تفجر طيلة امتداد طويل من السنين اخلاصاً ومحبة وتعلقا .

وعندي ان اكبر خصيصة كان يحملهـا الامام عليه السلام هي تفهمه العميق لرسالة الاسلام ، ولذلك كانت تحمله هذه الخصيصة الى الفناء فى ذات الله . . كان قد مكن طاعة الله من قلبه وجوارحـه ، ولو تأمل القارىء فى الخبر (عبدى أطعني تكن مثلي ، تقول للشيء كن فيكون) ، لوجدان الذين قالوا بتأليهه لم يصلوا الى هذه النتيجة عن طريق مشبوه ، او عن مفهوم طوبائى

ان عظمة الامام على تتلاشى بلا ادنى ريب أمام وحدانية الخالق ، بل ان عظمته مستمدة من يقينه بالفرد الصمد .

نعود الى أصل الموضوع . . .

ان التفكير الحديث يتجه باستمرار الى تعزيز النظرة الحاذقة فى البحث وذلك بدرس القضية - أية قضية كـانت - على ضوء مفاهيم واضحة تتسم معالجاتها بالجدة ، وبكلمة اخرى . . اننا حين نخوض في مثل هـذه الشوؤن

الحماسة يجب ان لا نكون سلبيين في عرض وجهات النظر ، وان لا نشجب أية ظاهرة بمجرد انها لا تنسجم مع آرائنا . .

وسر القلق في مجتمعنا الاسلامي اننا نهرب من التفاهم حين تقطع علينا الطريق معضلة من المعضلات . .

خذ هذه المسألة . .

ان الفكر الامامي لا يشجب الخلافة باطارها الذي عرفناه ، لأن فلاناً وفلاناً قد أمسكا بالدفــة . . وقد حدثنا التاريخ ان العمرين كانا في مستوى القيادة رجاحة وبعد نظر وصرامة .

بيد ان الخلافة كانت ـ ونرجو ان لا تؤذى هذه الحقيقة احــداً ـ في موقف دقيق ومحرج تتطلب إناطة مهامها الى رجل لا نقول هذه المرة ان الرسالة هي التي اختارته بتوجيه قدسي ، او ان القائد الاعظم وجد مصلحة في ترشيحه .

فلنبعد إذن هذين الاحتمالين عن طاولة البحث .

لقد ثبت بمقتضى ما وقع على مسرح الحيــاة الاسلاميــة من احــداث وهزات وتشابك في المشاكل ان تقــدير مجيء الامام الى الخلافة كان عملاً ايجابياً وحكيماً ، ومناط ذلك ربما ينحصر في أمرين هي :

١ ـ ان المركز كان ينبغي ان يشغل من قبل فتيه له قدرة التركيز على الأسس التي نهض بها الاسلام ، تتقوم كفاءته على أساس متين من معطيات الشريعة الاسلامية وأحكامها ، وماتضمنه دستور الاسلام من نصوص وتشريعات تمنحه امكانية ضم الصغريات الى كبرياتها ، وتطبيق الكبريات عليها ، واستخراج الاحكام منها .

لقد كان الامام علي بعيد منادح النظر في تعمقه بدراســة القرآن الذي هو حبل الله المتين وأحد الثقلين ، والأصل الأول للشريعة .

يقول الامام علي (١) .

« سمعت رسول الله يقول : انها ستكون فتن . . قلت فما المخرج منها يا رسول الله ؟ . : قال كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة رد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي من عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه دعا الى صراط مستقيم » .

كان الفاروق وهو أحد الصحابة الكبار ، وممن عمل على ان ينحى الامام عن دوره ، انساناً تقدمياً فى أفكاره ، ديمقراطياً فى نزعته ، عادلاً في أحكامه ، تضمه أعماله وسداد حكمه في مصاف الحكام الشعبيين الذين أضاؤا حياة الناس في فترات متباعدة من الزمن .

هذا الوجه الاسلامي البارز . . هـذا المدرك لمغزى العدل الاجتماعي ، كانت تعوزه ملكة الاستنباط الشرعي ، وهذه وإن كانت لا تفرط بمكانته ودوره ، إلا انها كانت من الاهمية بمكان .

حكم مثلا في مورد ميراث الجد مع الأخوة بسبعين حكماً فيما قيل .

قال عبيدة السلماني (٢) :

لقد حفظت لعمر بن الخطاب في الجد ماءة قضية مختلفة .

---

(١) الطبرسي : رضى الدين ابو نصر الحسن بن الفضل ـ مجمع البيان لعلوم القرآن .

(٢) شرف الدين : السيد عبد الحسين . النص والاجتهاد ص ٢١٧ كنز العمال / الفرائض ج ٦ ص ١٥ .

وعن عمر نفسه قال اني قضيت فى الجد قضيات لم آل فيها عن الحق .
وكان الرجل صادقاً في دعواه ، مخلصاً فيما أورده .

٢ ـ لقد توسع الحكم ايام الخلفاء الثلاثة ـ وهذه حقيقة صارخة لامجال أبداً لنكرانها ـ في الأجتهاد عن طريق اقتناص الأحاديث من الأفواه والاتكال على الظن والحدس في حسم قضايا حساسة . . هـذا أدى الى تشجيع بعض الصحابة أو غيرهم والاســلام في فجره الى اتخاذ الروايـة عن النبي (ص) وسيلة من وسائل التقرب الى السلطة أو التكسب او لمعنى آخر من المعاني ، كما ان خروج الاجتهاد بمعناه العفوى الذي كان سائداً يومئـذٍ عن النص في بعض المناسبات ولد في النهايـة ارتباكاً جاوز حد الافراط في شتى مضامين القواعد التي أرساها الاسلام والتي عبر عنها بحلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامـه حرام الى يوم القيامة ، ومن ثم باعد بين هـذه القواعد ، وبين الاعتبارات الادبية بمختلف اتجاهاتها الاجتماعية والسياسية والثقافية .

لانريد هنا ان نعيد مقاطع من تلك الاجتهادات ، فهي بالاضافة الى انها معروفة ومشهورة بشكل عام ، لا تنفع في تقريب وجهات نظر عنـد عرضها من جديد ، لاشتمالها على شيىء من التطرف والمغالاة .

ان تلك الاحكام والاجتهادات صدرت بالتأكيد عن نيـة حسنة ، وان اسباباً مقنعة لحاكم بالطبع وفرت لـه جانب الرضا ، فألهمته الحكم والإصرار عليه بل وربما معاقبة من يعمل بضده :

ولو تأملنا بنية حسنة أيضاً في مدلول هـذا الضرب من العمل الشرعى المحض ، لو جدنا ان طرقه عن غير تفقه بدستوره كان بمثابة اللعب بالنار .

وتكفى صحة قال الله وأقول للدلالة على صحة هذا الرأى ، ويكفى كذلك مجيء بني أمية الى الدست للدلالة على ان الخلافة لم تستأصل من الأعماق

روح الجاهلية ولم تبادر الى تمزيق ذلك الاطار القبلي الذي استمر يتحكم في تصرفات الناس ، ويحول بينهم وبين المد الحضارى الذي حمله الاسلام اليهم :

• • •

كان للامام على موقف خاص بالنسبة لمجموع هذه الاعتبارات ، ينقدها على ضوء أعراف اسلامية دقيقة ، ويضعها بصراحة فى مكانها ، وكانت تتسع آلامه وتتضاعف ، كلما نأى برأيه عن الصواب قدوة ، فيمثل تبعاً لذلك آراء الناس واهواءهم ذات اليمين وذات الشمال ، وربما كشفت (نفثاته) عن هذا الجانب بدقة ووضوح وتركيز ، مما الب عليه خليطاً متباينا من الناس عاداه اولئك الذين كرهوا ان ترجع اليهم أحكامهم الشرعية وهي ورقة امتحانية خاسرة . . صفر .

واولئك الذين تمتد أحقادهم الى الجذور من هاشم وأمية الى محمد وابى صخر الى علي ومعاوية . ناوأه . . أعداء العدل الاجتماعي . اولئك الذين تنغص أحلامهم الوردية مفاهيم الثورة واليقظة والنور .

جميع هؤلاء ووراءهم اعدادمن الجلاوزة وخدمة السلاطين، وحارقى البخور في الأثواء الدافئة . . الناعمة . . وقفوا في وجه الامام ينازعونه وهو في بيته علمه ودينه واستقامته وحكمته .

سهام من كل جانب ومكان . . عنت مع اشراقة كل شمس . . عداء بسبب اوبدون سبب . وفي صف هذا الامام العظيم ، الصفوة الواعية من الناس . . وثقوا بعدله ، وادركوا مكانه في الاسلام . . الاسلام الدين لا الاسلام الواجهة ، فأرخصوا حين أرادها من أرادها حرباً عواناً ، النفس والولد والمال : . يبذلونه رخيصاً . . رخيصاً في سبيل عقيدة قوية كدفق

الشلال ، سمحة بيضاء كقلب طفل برىء .

وعلى كل . . .

خاض أصحاب الامام علي وشيعته المعارك التي اكرهوا على الاشتراك فيها ، والتي وجدوا ان لامندوحة لهم من خوضها ، برباطة جأش ، وبإيمان راسخ عميق . .

وفي وسعي أن أملأ لك قوائم بلا حساب . . بأسماء شهداء بررة . حافظوا على شرف الكلمة ، وكرهوا ان تلتصق بأيديهم مايعلق بايدي المتهالكين على فضلات الموائد . . وفضلات الافكار .

استعرض معي هؤلاء . . الافذاذ (١) .

خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، حذيفة بن اليمان ، عمار بن ياسر ، عبدالله وعبد الرحمن ابني بديل ، ومالك بن الحارث الاشتر ، وخباب بن الأرت ، ومحمد بن ابي بكر ، وأبا الهيثم بن التيهان ، وهاشم بن عتبة ابن ابي وقاص (المرقال) ، وسهل بن حنيف ، وثابت بن قيس الانصاري وعقبة بن عمرو ، وسعد بن الحارث بن الصمة ، وأبا فضالة الانصاري ، وكعب بن عمر الانصاري ، وقرضة بن كعب الانصاري ، وعوف بن الحارث ابن عوف ، وكلاب بن الاسكر الكناني ، وأباليلى بن بايل . . هؤلاء العمالقة صمدوا في العتاة الذين كانوا يريدون الاسلام سلماً يرتقون به الى الملك العضوض ، ليتخذوا دين الله دغلا ، وعباد الله خولا ، ومال الله دولا . . كافحوا التحريف ، ومضوا في الكفاح الى آخر الشوط ، وتقبلوا برحابة صدر كل شنشنة ، شرسة إمتطاها الجلاوزة في سبيل التنكيل بهم ، ومن أجل تشتيت شملهم .

---

(١) آل ياسين . الشيخ راضي . صلح الحسن .

كان هدفهم أن يبقى دين محمد نقياً من الشوائب ، بعيداً عن شريعة الغاب ، منزهاً من أحابيل الكهانة .

لم ترهبهم أبهة الملك وتشنجاته ، ولم تثنهم شوفينية الجلاوزة ، ولم تقعد بهم في منتصف الطريق قرقعة السياط .

وستظل مدرسة الامام علي باذن الله تتحف الدنيا بين فترة واخرى ، إما بعالم يفتح للناس ابواب الخير والنور ، وإما بشهيد يضع بدمه حداً لجور الفاسق ، وعنت الجبار .

. . .

وكما رأيت ابتدأت المشكله بنوازع شخصية لعبت فيها الأطماع والعوامل النفسية الأخرى دوراً ايجابياً بعيد المدى ، وكان مرور هذه القضية فى سلسلة من الاختلاطات القبلية سبباً في نقل المأساة من صعيد الى صعيد ، فأصبحت بتأثير مباشر من حفنة من الانتهازيين تتشكل بأزياء جديدة ذات محتوى عقيدى وبموحيات لاتدخل تحت حصر ، وتحت وطأة ارهاصات مفتعلة انشقت الأرض عن هوة تفصل بين خباص المسلمين .

هكذا ببساطة أصبح للمسلين جناحان ! ! !

وجاء المستعمر الكافر فيمن جاء الى ديار الاسلام ، يغزوها بجيشه وأساليبه واستثماراته ورهطه ، فراح على ضوء تخطيط مدروس يغذى الاطراف الحساسة للمشكلة ، ويبث في شرايينها المتقلصة المريضة انسام الحياة والصحة ، فكان من الأمور الاعتيادية ان يمزق الهدوء بين الفينة والفينة صوت نشاز ، يثير في المؤمنين الصادقين كوامن الألم .

وهناك في مزابل التاريخ ، اكداس من الاوراق الصفراء التى حنطوا فوق سطورها كلمات فتنة . . متوحشة ، تعم طائفة كبيرة من المسلمين

بالمروق والكفر والهرطقة ، في الوقت الذي تتمسك فيه هذه الطائفة بكل خصائص الاسلام ومعانيه ، وتستقي أفكارها واخلاقيتها وأحاسيسها من مصدر ثر . . من سادة العرب وقادة أمجادهم الانسانية . . آل البيت .ماذنب هذه الطائفة اذا كانت مبادؤها وهي مبادىء الاسلام الصحيحة ، تلتصق عن وعي بمصالح الجماهير ، وترعى عن بصيرة مصالح الأكثرية من الناس ، وتمضي باصرار في دعم جانب المضطهدين فى كل عصر ومصر . .

اذا كانت تضطرم حماساً وتلتهب ثورة فى وجه كل طاغية مستبد يحاول ان يجعل من الدين ستاراً يدرأ عنه الأبصار . . لينفرد بالتصرف بحقوق المواطنين على النحو الذي تتخم فيه جوارحه بالشهوات والملذات والسحت والحرام

ان المنهج الثوري فى تفكير الامامية لايحتاج الى برهنة وشرح ، وتاريخها مملوء حتى عقد الكرب بالشهداء والثوار والمناضلين . .

وشيء معروف . العقيدة الثورية تهب صاحبها الجرأة فى مقارعة التيارات اللاانسانيه التى تعصف بمقومات الشعوب الآمنة المسالمة .

كان ابو ذر - المفكر الثائر - من المسلمين الصادقين الذين تغلغل الايمان في كلى حجيرة من دمائهم . . ساقه إدراكه الحي للعقيدة الاسلامية الصلبة الى مواكبة الثوار في مسيرتهم ضد العبث بالموازين والقيم والتعاليم .

كان مسلماً متيقظ الحواس ، ولهذا تأججت في أعماقه معاني الكفاح ضد كل الانحرافات التى رفعتها الأموية - بوجه خاص - كشعار للملك الجديدملك يعتمد على البطش ، بدل ان تكونه خلافة ترتكز على الضمير .

كان ابوذر لوحة بسيطة متواضعة رسمتها ريشة الامام علي . . تلميذ بار من تلاميذ المدرسة الامامية . . إضمامة ورد من حديقة معبقة الانفاس .

بقيت مسألة مهمة ، معظم الثوريين الذين ظهروا على مسرح الحياة الاسلامية

العامة ، والذين كانوا ينشدون وجه الاسلام المضيء ، ويحطمون بمعاولهم (بيروقراطية) المنحرفين ، . كانوا من الشيعة .

هذه حقيقة لاصلة لها بمقولة القائلين . . كل فتاة بأبيها معجبة . :

تصفح تاريخ الاسلام . . تاريخ الشهداء . . صفحاته المشرقة . . : ستلاقيك مواكبهم على طول الطريق : . مرفوعة اللواء . . صلبة العود . . حديدية اليقين .

• • •

قلنا في حلقة سابقة ان الحكام حاولوا باسراف وبضراوة ،تشويه مواقف أصحاب الامام علي ، ونبزهم بما هو ليس فيهم ، وخلق أجواء غير طبيعية ومكفهرة ، لغرض تهيئة مبررات ولو سطحية ، تبيح لهم ممارسة سياسة المجازر الرهيبة . . تلك المجازر التي ارتكبوها واستعانوا بدها قنة السوء يغلفوها بغلالة من الانطباعات الشرعية الموهومة .

وثمة حقيقة كبرى في التاريخ الاسلامي الوسيط ، هي ان الدين لم ينفصل عن السياسة ، بل ظلا يسيران جنباً الى جنب ، وكان الخليفة يجمع في يديه السلطتين الروحية والزمنية ، وعلى عكس مانجد في الغرب إبان العصور الوسطى ، حيث كانت السلطة الروحية بيد البابا والزمنية بيد الأمبراطور .

ومن هنا لايستطيع الباحث في تاريخ المجتمع الاسلامي أن يفصل ماهو ديني عما هو دنيوي ، وهذا هو السر في بقاء الخليفة يتمتع بمكانته لدى بعض المسلمين بالرغم من انحرافه عن جادة الدين ، وعن الاخلاق القويمة ، لأنه بمداول هذه الفكرة السلطانية يعتبر منفذ الشريعة الاسلامية وممثلا للرسول ! ! ! ومفسراً للقرآن والسنة ! !

ان هذه الحقيقة أدت الى نتجتين :

الأولى : ان كل حركة قامت في التاريخ الاسلامي مهما كان نصيبها من الحق والصواب ، وصمت بأنها زيغ وخروج على الدين والدولة وزندقة

والثانية: ان اية حركة ثورية لم يقدر لها النجاح مالم تستند الى حجة دينية شرعية تسعف قيامها ضد النظام القائم(١).

على هذا الاساس أقام الحاكمون بناء سياساتهم بالنسبة للامامية أجواق من المضارطة والصعاليك ومدعي العلم يروجون للسلاطين مفاهيمهم المصلحية . . الزمنية . . ويلوثون المجتمع الاسلامي بنعت المعارضين بشتى النعوت التي تدني رقابهم الكريمة الى المقصلة . . ويحاربون بالباطل اولئك الأحرار الملتزمين بشرف الحرف ، والسائرين في سبل الكفاح بالرغم من كل الالغام . . وكل التهم . . الها تفين بالعدل الاجتماعي الذائدين عن رسالة محمد بن عبدالله (ص) ذود الطير عن وكنه . :

• • •

وقد كان من الطبيعي ان ينهض بمسؤولية تفنيد تلك المزاعم ، وتفتيت متراكماتها أعلام ذوو حمية . . ومروءة . . ودين .

وقد كان . .

تزخر المكتبة الاسلامية اليوم بمئات الموسوعات التي وضعها الثقات والتي بثت في مدار فهمها للاسلام ونصوصه أحاديث الود والتراحم ، وتنشر بين الملأ روح الاخوة والتفاهم ، داعية المسلمين الى الأخذ بمعطيات الشريعة أخذاً لاغوغائية فيه ولاتراشق ، وذلك بنبذ مادسته السياسة من مفاهيم ، وترك ماحشرته المذهبية الضيقة من أحقاد ، لينعم الناس بماتزجيه اليهم هذه الرسالة السمحاء من نعمة باذخة وشرف عظيم ، سيما ونحن اليوم تلقاء

---

(١) الدكتور فيصل : ثورة الزنج .

تغييرات أساسية في المعطيات الثورية ، تتطلب منا عملية انقلابية مزدوجة في أعماق نفوسنا ، فهما اولا عليها ان تتطهر وان تتجرد من رسوبات الذهنية المذهبية الأولى . . من وسائلها الساذجة المباشرة ، ومن مضمونها العفوي الذي يحتمل الخطأ والصواب أمام أضعف المنبهات الخارجية .

ولقد تباينت السبل فيما كتب الكاتبون ، تبعاً لما كانت تفرضه في حينه ملابسات الظروف من أحكام ، فالذي كتب في العهدين الاموي والعباسي غير المؤلفات التي ظهرت في أيام اخرى تلت ذينك العهدين ، من حيث النهج والاسلوب أو من حيث طبيعة الحديث ومداه .

وظاهرة معروفة في الآداب العالمية . . حين لايجد الثوريون المخلصون من حملة الأقلام ورواد الفكر متسعاً من الحرية للتعبير ، كانوا يلجأون الى وسائل اخرى كالروايات والمسرحيات والقصص ، يضعون بين ثناياها افكاراً متحررة تؤدي دورها في التوعية والبعث والانهاض .

كذلك . . حين نلقي نظرة سريعة وعابرة على تراث الفكر الامامي نجد ان معظم المصنفات التي وصلت الينا كانت تعبر عن مفاهيمها العقيدية بطريقة غير مباشرة ، ملتمسة مثلا في علوم السير والتواريخ الاسلامية والرجال وأحوال الرواة والفرق ، وفي بعض موسوعات الفقه والأصول سبيلا يعكس ولو بنزارة آراءها الواضحة وافكارها المستقيمة .

كان هذا ديدن الكثير من اولئك الفحول الاعلام (١) . جاهدوا بصبر من أجل ان يقيموا صرح ثقافة اسلامية خالصة تستمر في منجى من الهراء والطيش والهوى :

---

(١) كالشيخ ابي محمد الحسن بن محمد بن جعفر التميمي ، استاذ الشيخ المفيد ابي عبدالله محمد بن محمد بن المعلم العكبرى ، والمسعودي ابي الحسن صاحب —

اننا نحن رؤوسنا اكباراً لافذاذ حفظوا لنا تراثاً فكرياً مجيداً في ظروف كان يفضل ان يسمى فيها الانسان زنديقاً ولا يقال له انه من شيعة علي ،

ومن الغرابة بمكان .. أن يزور الاستاذ احمد امين رحمه الله النجف الاشرف عام ١٣٤٩ هـ في ثلة من الاساتذة والطلاب المصريين ، وان يقوم بزيارة للامام المرحوم الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (نور الله ضريحه) في مدرسته (١) ، وكان ذلك عقب انتشار كتابه فجر الاسلام ، وحين

ـــ كتاب مروج الذهب ، وابن عبدون صاحب التاريخ المعروف بتاريخ ابن عبدون ، وابي يعلى العلوى صاحب تاريخ من روى عن جعفر بن محمد من الرجال ، والشيخ ابي عبدالله البرقى ، وثقة الاسلام الكلينى صاحب الكافي في الحديث عن طريق أهل البيت وكتاب الرجال وكتاب ماقيل في الائمة من الشعر المتوفى سنة تسع وعشرين وثلاثمائه ، والاسكافي محمد بن ابي بكر ابن سهيل الكاتب الاسكافى صاحب كتاب الانوار في تاريخ الائمة الأطهار المتوفى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، والشيخ الصدوق ابن بابويه الذي كتب اكثر من ثلاثمائة كتاب ، وشيخ الطائفــة ابي جعفر الطوسى محمد بن الحسن بن على الطوسي البغدادي الغروي وكتابه المعروف برجال الشيخ وله كتاب فهرست مصنفات الشيعة، والشيخ النجاشي وهو احد تلامذة السيد المرتضى علم الهدى الموسوى ، والشيخ ابي الحسين احمد بن الحسين بن عبيد الله الغضائري ، والعلامة جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي ، والشيخ ابن شهر اشوب صاحب معالم العلماء في الرجال ، والشيخ منتجب الدين بن بابويه صاحب الفهرست وغيرهم مما لا مجال الى النص عليهم في مورد عابر .

(١) كاشف الغطاء الشيخ محمد الحسين . أصل الشيعة واصولها

عوتب فى ذلك المحفل الحاشد عن الأفك - لا أدرى بم اسميه - ؟ . الذي ورد في كتابه .. أتدرى بماذا اعتذر ؟ ..

قال الاستاذ احمد امين معللا ومعتذراً .. ان عدم الاطلاع وقلة المصادر هما السببان اللذان دفعاه الى تسجيل تلك الملاحظات ..

تماماً كما يفعل طالب مدرسة ابتدائية حين يمسك المدرس أخطاءه ..

استاذ كبير ، واديب عريض الاسم ، وناقد وفيلسوف وعالم ومؤرخ ولابد ان هناك القاباً اخرى قد قلدته اياها صحافة الأدب في القاهرة .. نسيتها .. ينشأ بحثاً واسعا ثم لا تسعفه مروءته أن يبحث عن كتاب يعطيه رؤوس أقلام في مسألة خطيرة كهذه المسألة .

اين كانت موسوعات الأمامية عن عين احمدامين .. هذه الموسوعات التي اتحفت الفكر الاسلامى بانضج البحوث وأسماها ، والتي تمنح المتتبع الحريص كل مقومات الموضوعية فى قضايا الاسلام الكبرى .

والواقع ان الرجوع الى مؤلفات قادة الفكر الامامي ، ومن ثم الوقوف عندها ، اكبر من ان تتسع لها هذه الوريقات ، لانها من الغزارة والوفرة مايجعل مسألة المرور بها ليس بالأمر الهين ، ولكن حين يراد القيام بعملية تقييم في منطلق ايجاد بحث واف عن الحركة الفكرية يصطلح عندئذ ان يرجع للاختيار نختار من أمهات المراجع الأكاديمية آثاراً تعطي فعالياتها العلمية بمستواها الرفيع مانصبو اليه من رأى حاسم .

كان في وسع الاستاذ احمد امين رحمه الله .. وغير أحمد امين ، ان يرجع الى أمهات المراجع ، وهي معروفة ومقيمة .. تتمركز في دقائقها النظرة الاسلامية المجردة .. الصادقة .. الجادة .

المهم . . .

ان ظروفاً سياسية قاهرة وعنفاً شديد الوطأة مارسته الاجهزة الحاكمة ضد القوى الثورية المتحمسة للاسلام ، طبعا انتاج اعلامنا بطابع فهمي هادف، ينحو الى المعارضة عن طريق ابراز معالم الشخصية الاسلامية المتكاملة متمثلة بالامام علي ومن سار على دربه . . واعني بذلك مدرسة الامام الفكرية التي تتحرى موازين الصحة في دين الانسان وضميره ويقينه وفكره .

ومنذ مطلع الثلاثينات طرأ على مناهج البحث العقيدي طارىء جديد لايخرج عن كونه أحد مضامين هذا القرن الذي استوعب في رحمه معاني اليقظة والتحرر والانطلاق ، ومايتبع ذلك بالطبع من ظهور معايير علمية فعالة تستهجن الطرائق القديمة في كتابة التاريخ وفي معالجة القضايا الفكرية .

وكان حصاد هذا الشأن الخطير ظهور دراسات عقيدية متفتحة ، تعطي بحرية شبه تامة أبعاد القضية وظروفها والتزاماتها .

ولو رجعنا الى هذه للدراسات لوجدناها تتبع نمطين في العرض ، فالقسم الأول تغلب عليه المسحة الاكاديمية وماتتصف به من شؤون تلتزم بها المجامع العلمية ، والقسم الثاني بحوث عقيدية صريحة تلتمس توحيد المسلمين وجمع شملهم بعد طرح أفكار الامامية على بساط المناقشة الهادفة الهادئة .

والحقيقة ان الابحاث العقيدية كانت بحاجة الى تفرغ كامل يقضي في مرحلة من مراحله الى مايشبه التخصص . وهذا مانراه جلياً لدى جمهرة من روادنا، أضف الى ذلك ان المهمة التي أخذوا على عواتقهم انجازها كانت من الصعوبة والخطورة بمكان ، وسبب ذلك ماأصاب الخط العقيدي للامامية من تضاغط مزحزحة بسبب انغماس الحكام في إغراق مفاهيمنا المتجلية بوابل من التهم والاباطيل ، الأمر الذي أدى الى عزل افكار الاسلام الموضوعية عن معترك الحياة العامة .

وكأن العناية الربانية أدركت هذا المغزى ، فظهر على مسرح الفكر الاسلامي قلم الامام السيد عبد الحسين شرف الدين . هذا القلم الذي كشف بصراحته وعمقه وتجرده وثباته واخلاصه اشياء كثيرة وموارد متعددة ، كان بعضها وراء الكواليس ، وبعضها الآخر تختفى وراء واجهات ، وقسم ثالث بين بين . . وهكذا ، ولاتحسب ان فى مطاوى هذه الكلمة شيئاً من المبالغة او التهويل .

إسمع مايقوله العلامة الشيخ اغا بزرك الطهراني (١) :

(. . وقد أدى رسالة عظيمة قد يعجز عن تأديتها جيل بكامله وأمة بمجموعها ، وقد يرى البعداء من القراء مبالغة فى هذا القول أو إغراقاً في الاطراء ، ولكن الذين عرفوا المترجم له وقرؤاكتبه يعلمون مانقول جيداً ويعترفون به باذعان ، ولااكون مبالغاً اذا قلت بأن المذهب الجعفرى على ماهو عليه من حق وظهور ووضوح مدين للمترجم له ، فقد نشره من جديد بأسلوب العصر ، وخدمه بكل ماأوتى من براعة وعبقرية ، فأظهر الحق ، وأزهق الباطل . .)

نعم ، ارتفع قلم الامام شرف الدين إلى قمة ابداعه حين اعطى الافكار الامامية تخطيطاً علمياً واعياً أكسبها فى فورة تيارات متلاحمة صفة ثابتة في مقدورها ان تنازل نزعات الجيل وتخبطاته وأفكاره المعبئة بقوالب جذابة ومغرية . . فى مقدورها أيضاً أن تشل اذا جد الجد طاقاته وفعالياته .

والواقع ان دراسات الرجل تشكل جداً فاصلا بين نمط البحث العقيدي الذى كان سائداً من قبل ، وبين النمط المعاصر فى الصراع الفكر الذي يؤمن بالدليل والحجة متى كانتا صادرتين عن عقل مفتوح .

---

(١) الطهراني . الشيخ اغابزرك . نقباء البشر الجزء الأول .

وتقوم دعوة الامام اومعالجاته على نسق علمي متجانس ، ترتبط مقاييسه بمقدرات نابعة عن تجربة ، ومتى كانت التجربة الحية مصدراً لتعيين أبعاد مسألة من المسائل ، فهذا يعني ان النتيجة ستكون بعيدة كل البعد عن مفاهيم السطحية او التعنت او المغالاة .

انت حين تقرأ آثاره لاتجد اية صعوبة فى ملاحظة هذا الرأى ، وفى اكتشافه ، وتجد فوق ذلك ان سيطرته على عواطفه في المواقف الحساسة لايرقى اليها الشك . . وانه يعطيك من خضوعه لمنطق العلم صوراً نادرة :

يقول الشيخ سليم البشرى رحمه الله مخاطباً الامام شرف الدين (١) :

(. . أما وعينيك مارأت عيناي أرشح منك فؤادا ، ولاأسرع تناولا ولاسمعت اذناي بأرهف منك ذهناً ، ولاأنفذ بصيرة ، ولاقرع سمع السامعين ألين منك لهجة ، ولاألحن منك بحجة ، تدفقت فى كل مراجعاتك تدفق اليعبوب ، وملكت في كل محاورة الافواه والأسماع والابصار والقلوب ، لله كتابك الأخير (ذلك الكتاب الذي لاريب فيه) يلوى أعناق الرجال ويقرع بالحق رأس الضلال . .)

وفى حديث شيخ الجامع الازهر فصل الخطاب .

° ° °

وليس ثمة من شك ان المعالجات العلمية تنزع الى تحليل المعضلات التاريخية بروح تختلف عن الروح التي كانت تسود فىعصور التاريخ المظلمة ولهذا من الهين أن تجد اليوم اناساً تختلف واياهم فى العقيدة ، ولكنك مقتدر على اقناعهم بوجهة نظرك وسلامتها فيها او حاولت ان تجادلهم بمنطق العصر ومفاهيمه ، وكنت على جادة الحق .

---

(١) شرف الدين • السيد عبدالحسين . المراجعات . المراجعة رقم ١٧

والذي لامراء فيه ان العقلية الاسلامية على طول التاريخ حفرت طرقاً عديدة ، واجتهادات عظيمة في تفسير الحركة العلمية ودور الانسان الطليعى فى تنظيمها ، ولكن سيطرة الاعتبارات المصلحية بالذات أهانت الثقافات الاسلامية ، ومزقت تماسكها ، حتى فقد البعض ايمانهم أو حتى رغبتهم من التعرف على مصادر ثقافاتهم الروحية .

ان الليل الطويل الذي هاجم مسيرة الاسلام ، عمل على تبديد مظاهر الحضارة الفكرية وإضاعتها وسط زحام من الدعوات الحمقاء التى تجمع بين التعصب وقصر النظر .

ان نظرة الامام شرف الدين الى المسائل الخلافية تنطلق من هذا المفهوم وهي فوق كونها نظرة حاذقة ، فانها تعبير عميق عن المعاناة التي يعانيها الانسان في نضاله ضد التحريف والجور والاستعباد . . في نضاله من أجل صيانة الكلمة الحرة من عبث الذين يعيشون على ضفاف ماء راكد . . آسن.

والامام شرف الدين يعبر عن هذا بالحدث المباشر الدال ، تعبيراً ينبض دائماً بالانفعال الفاجع النابع من الحدث نفسه ، ومن عشرات التفاصيل الصغيرة الذكية التي تسهم فى تغذية الحدث الرئيس .

وتواجهنا في دراستنا للرجل مسألة . . انه يتغلغل في القضية المختلف عليها تغلغلا يصل الى أعماقها . . الى ابعد نقطة فيها . . لديه موهبة كبرى فى التعبير بالصور البلاغية . . فى استنطاق الصورة بأعمق الدلالات ، لهذا يمضي في تحليل جوانب القضية على نحو مختبرى دقيق ، وربما يتبادر الى الذهن لاول وهلة ان الامام شرف الدين يحاول ان يرفع القضية من السفح الى القمة لتعود مصدر تناطح بين المسلمين، ولكن الحقيقة انه ينهج في رسالته - كما اوردنا ذلك من قبل - على نحو علمي يتبنى عن طريقه

مبدءاً واضحاً مدركاً يهز به رواسب الماضي هزاً عنيفاً ، ويكشف به نسباً كاذبة ودعايات باطلة :

يقول العلامة السيد محمد تقي الحكيم (١) :

(وسماحته من دعاة الوحدة ، ولكن لابشكلها السلبي الذي يدعو الى تناسي الماضي والتغافل عنه من أساسه ، واسدال الستار على مافيه من مفارقات على نحو مايتبناها بعضهم ناسين اومتناسين ان السكوت عنها وإسدال الستار لايذهبان برواسبها المتأصلة في النفوس ، وانما تبقى عملها فى داخلها الى ان تظهر بصورة انفجار يلتمس المنفذله فى مناسبة عابرة من المناسبات ، فهو يرى ان جملة كبيرة من صور الخلاف بين الفريقين لاتستند على اساس ، وانما هى وليدة نسب كاذبة ودعايات خلقها بعض الظروف وغذتها قسم من السلطات فى عهود غابرة ، ولو قدرلها ان تبحث بحثاً موضوعياً لآ من الفريقان بمدى بعدها عن الواقع ، والخلافات الأخر لاتعدو ان تكون من قبيل الخلافات بين اى مذهب ومذهب أومجتهد ومجتهد ، وهى لا تستحق التنابذ والتحاقد ، وحتى هذه لوأمكن ان تعرض للجدل والنقاش على نحو ماصنعه العلمان في المراجعات لقاربت بين وجهات النظر) .

ان المجازر البربرية التي تعرضت لهاالامامية كانت بسبب موقفها الصلب ومحاربة الحكام لهذا الموقف النابع من عقيدة أصلب . . العقيدة التى كانت تهدد أجواءهم السلطانية الزاهية .

الامامية لم تبدع في الدين بدعا ، ولاخرجت الى الناس بدين جديد، ولاقالت بشيء يناهض تعاليم الاسلام أويمس طرفاً من أحكامه .

---

(١) شرف الدين . السيد عبد الحسين . النص والاجتهاد ، راجع المقدمة بقلم العلامة السيد محمد تقي الحكيم .

فدور الامام شرف الدين بالنسبة لمجموع هذه القضايا ، أن يفضح العوامل التى اصطنعوها للاجهاز على كل صوت يرتفع فى دنيا الاسلام يشجب النعرات الظلامية ، ويسفه السياسات المتهالكة التى تدعم الانحراف وتبعد المسلمين شيئاً فشيئاً عن محجتهم الواضحة .

ليس بين المسلمين بكافة مذاهبهم مايدعو الى الخصومة الحادة ، واذا ماطرأ على اوجه الخلاف البسيطة من مضاعفات ، فلابد ان هناك أيدياً تعمل في الخفاء تطميناً لمصلحة من المصالح . الأمويون قديماً ، والسلاطين والاستعمار فما تلا ذلك .

قاتل الأمويون الاسلام عشرين سنة ثم حكموه بعد عشرين سنة ، وهذه كمايقول الدكتور على الوردى مهزلة يعفران يحدث لهامثيل في تواريخ الأمم (١) .

الأموية بلاء الاسلام . أقولها ولست مشدوداً في أمرها الى عاطفة أوعقيدة مناوئة . . لاوالله .

الأموية هى التى قتلت الخليفة عثمان بعدان انتكث فتله لتأخذ القضية كذريعة للخصومة والعداء .

الأموية هى التى خلقت من على وعمر عدوين لدودين في اسطورة عجيبة ، فأتت على كثير من الناس قديماً وحديثاً .

الأموية هى التى أركبت عائشة فى هودجها الذائع الصيت الى معركة مخزية : واقعة الجمل .

اول معركة في تاريخ الاسلام قاتل المسلمون بعضهم بعضا . .

الأموية هي التى خلقت مهزلة ابن سبأ ، وروجت لحفنة من الأفكار

---

(١) الوردى . الدكتور على حسين . مهزلة العقل البشرى ص ٣١٨ .

اللااسلامية ، وانا من المؤمنين ان السبأية حركة مفتعلة لاوجود لها فى دنيا الواقع ، وكل مابنت حولها كان من تخرصات المؤرخين ، ولقد أصاب الدكتور على الوردي (١) حين سلط الأضواء على عمار بن ياسر فى مدار دراسته للمسألة وتفنيده مدفة لكل مرتكزاتها الوهمية .

اسألكم بالله هل كانت النصابة التى تحلقت حول معاوية تحمل بين جوانحها شعوراً إسلامياً ؟ هل كان في ضمائر اولئك بصيص من ايمان . .

استعرض أسماءهم في عجالة :

النعمان بن بشير ، يزيد بن شجرة ، عبد الرحمن بن قباث ، زهير ابن مكحول ، مسلم بن عقبة ، سفيان بن عوف ، بسر بن ارطاة وماأدراك ماىسر بن ارطاة : . الضحاك بن قيس ، زياد بن سمية (٢) ، الذى تتبع المسلمين الأبرار . . أصحاب الامام على تحت كل حجر ومدر : : قطع أرجلهم وأيديهم ، سمل عيونهم ، صلبهم على جذوع النخل :

وعبيد الله بن زياد ، والسفاح الشرير الحجاج : . قتل هذا الفاسق المنزوع الضمير مائة وعشرين الف مسلم ايام حكمه (٣) . توفى في اسجونه خمسون الف رجل وثلاثون الف إمرأة منهن ستة عشر الف إمرأة عارية مجردة من الثياب .

ولله در عمر بن عبد العزيز رحمه الله حيث قال (لوجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم) .

* * *

---

(١) الوردي · الدكتور على حسين وعاظ السلاطين .

(٢) استعمله معاوية على العراق .

(٣) المسعودي · على بن الحسين بن على · مروج الذهب ج٢ ص ١٧٥ طبعة ١٩٤٨

يقول بعض كتاب السوء ان ماوقع للشيعة في العهدين الأموي والعباسي كان بسبب طلبهم الحكم ، فهم ثائرون لا لمقصد انساني واع ينشدون به وجه المصلحة العامة ومصلحة الدين الاسلامي قبل ذلك ، بل لازاحة الخلفاء ! عن المنصة ليرقى سنامها علوي : وربما تجرأ بعضهم فنسب الى الامامية نشاطاً شعوبياً في هذا المضمار ، يختلقون اليه حين يراد الوقوف في وجه السلطات .

وكلمة الشعوبية لفرط مااستعملت في عهود كثيرة لاسيما حين يراد توجيه ضربة الى من يناهض أساليبهم واتجاهاتهم ومفاهيمهم المنطوية على اعتبارات معادية لجوهر الدين ومصالحه ، تستحق أن نلبث أمامها ملياً .

صحيح ان العنصر العربي واجه فى عنفوان مده أعداءاً أشداءاً من القوميات التى خضعت لسيطرته ابان الفتح الاسلامي وبعده ، وان هؤلاء الاعداء حاولوا بمختلف الوسائل والأسباب أن يضعفوا الجبهة العربية ليسهل عليهم أمر تفكيكها ومن ثم القضاء عليها .

وصحيح ان هذه (العقدة) فى القوميات غير العربية بقيت ميراثاً يتنقل فيما بين الصلب والترائب ، وانها تنساح إذا واتتها الفرصة لتسقى أية حركة تعتقد انها مضعفة للجانب الثاني .

لكن ماصلة هذه النزعة الحاقدة تساق بلاوعي الى اية فئة ربما تتجنب الانزلاق في منحدر يأبى الاسلام والوجدان .

جاء الاسلام بقاعدة انسانية سمحة هي « لافضل لعربى على أعجمى الابالتقوى » .

نحن إن أردنا الخير للاسلام ، وكنا حقيقة نسعى من أجل أن تسود كلمته وتعلو . يجب علينا ان نرفع فوق رؤوسنا هذا الشعار .

إن العروبة هي الأمينة على هذا الدين ، الانساني ، المبدع ، العظيم فلا ينبغي لها أن تبدد أريحيتها وتضحياتها . وخدماتها ، وتراثها الاخلاقي الرفيع ، بكلمات وتصرفات ليست في مستوى مسوؤلياتها ودورها . بصراحة ، ولاشيء أحسن منها في يوم الناس هذا ،

اذا كان للشعوبية بمعناها القاموسي دور في مراحل التاريخ العربي ، وكانت هناك تربة خصبة لنمو خصومات ، وتعاقب نزيف ، فينبغي الآن ان نبحث عن اصطلاح آخر جديد لاينصرف الى تأويل مثير والى ايجاد مضاعفات نحن الآن في غنى عنها ،

لقد آن الأوان أن نبعد أعرافنا الدينية ومعتقداتنا الروحية . أن نحمي إسلامنا من سرطان المكائد السياسية وخبثه ، أن ننزه عواطفنا في هذه الانفعالات الديماكوكية ، ان نرتفع بها حيث تدعم مسيرتنا وتمهد لنا طريق الحياة .

ان كل الاورام التي اعتورت الفكر الاسلامي منذ مطلع القرن الثالث الهجري والتي استنفدت قوى بشرية هائلة كان مصدرها في الغالب تعميق المفاهيم العرقية في المجتمع الاسلامي وعزله عن تلك القيمة المشرقة التي بثها القرآن الكريم كماقلنا ـ ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، والاستمرار على تزييف روابط المجتمع بتفتيت الحياة الاقتصادية القائمة على العدل الاجتماعي ، وقبلها الى ماينافض التشريع الاسلامي ويضادده في الكثيرمن تطلعاته الاجتماعية وأسسه الاقتصادية، وروابطها لأخلاقية،

ان الشعوبية ذهبت مع الموالي والزنج وغيرهم ، وكل استثمار جديد لصفة من صفاتها يجري لحساب سردفين إن لم نسم الاشياء بأسمائها دون مخاتلة اوالتواء ؛ إن اطلاق لفظ الشعوبية على كل فئة . فيه الشيء الكثير من التعميم

والبعد عن التعبير العلمي الدقيق ، ولهذا يلزم أن نميز بين المعنى العلمى لكلمة الشعوبية كمذهب سياسي ثوري تمخض عنه القرن الثاني الهجرى ، وبين المعنى اللغوي العام لكلمة الشعوبية التى تعنى تمرد الأعاجم على السلطان العربى وتوسلهم بشتى الاسباب للانتقام من العرب الفاتحين الذين مزقوا أمجادهم ، وقضوا على تيجانهم ، وحطموا تراثهم .

وبعد . . .

فقد جرنا الحديث عن الشعوبية اى أشواط بعيدة في الكلام ، ولكنها لانخرج عن مقتضيات المقام ، فليس أطيب من الخوض في مثل هذه الأمور مناسبة لازاحة الستار عن زيف الآراء ، وشطط الأفكار : : . محاولة لتقويم الموازين ، وتمحيص الحقائق ، وتميز الخبيث من الصحيح .

ولقد كان الامام شرف الدين وهو سبب هذه الرسالة ، محباً في حياته كلها للحرية والصراحة في التعبين والصدق في العمل ، كلفاً في تصحيح المقاييس ، والحفاظ على القيم ، واشاعة المفاهيم الصحيحة . . مغرماً بالكشف عن باطل الآراء . : جاهداً في فضح الزيف والخطل وفي تمزيق الأقنعة أقنعة الملق والرياء والنفاق والكذب . . عن الوجوه ، والعقول . . راكباً أصحابها بسخريته الرائعة ، لاهباً ظهورهم باسواط عقيدته السامقة ، مظهراً للناس حقيقتهم وحقيقة دعواهم . ! ليضحكوا منهم ، ويتعرفوا عليهم ، وليتقوا شرهم . ونعود الى اصل المسألة . .

كان يردد كتاب السوء دائماً ان انتفاضات الامامية كانت تتوخى نقل الملك الى العلويين ! ! وليس لديهم من مطمح سواه .

هذه الاتهامات رددها اكثر من فم . . وقرأناها في اكثر من كتاب.

قالوها دفاعاً عن جبابرة مترفين ، وتخفيفاً للوزر الذي مارسوه في حق

الدين والناس والاخلاق .

بعد ذلك ماذا تقولون في العهد العثماني .. عهد النتانة والمواخير والجوارى وقصور السفور والاستعمار الروحاني ؟ .

هل تعلمت الامامية لتصطاد مغنماً عاجلا ؟ أم هل سعى ساعيها من أجل زعزعة قواعد الباب العالى . . . وتعكير مزاج امير المؤمنين .

ارجعوا هذه المرة الى التاريخ القريب . ماذا صنع السلطان سليم ؟ وكيف استحصل على فتوى من شيوخ الضلال بقتل كل من كان معروفاً بتشيعه (١) .

يروى صاحب أعيان الشيعة (٢) ان السلطان سليم قتل في الاناضول وحدها أربعين الف مسلم .

ويقول الامام شرف الدين (٣) ان الشيخ نوحا الحنفى افتى بكفر الشيعة ووجوب قتلهم ، فقتل من جراء ذلك عشرات الألوف من شيعة حلب وغيرهم ، وتشرد من سلم من شيعة حلب ، حتى لم يبق فيها شيعي واحد ، وكان التشيع فيها راسخاً ومنتشراً (٤) .

وقتل العثمانيون الشهيد الثاني المعروف بفضله وورعه ومقامه فى حقلى العلم والشريعة :

أعلمت إذاً لماذا نشد الامام شرف الدين ، وهو المصلح المفكر المتحرر،

---

(١) الحصري . ساطع . البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٤٠ طبعة ١٩٦٠م .

(٢) الامين . السيد محسن . اعيان الشيعة الجزء الاول .

(٣) شرف الدين . السيد عبد الحسين . الفصول المهمة .

(٤) مغنية . محمد جواد . الشيعة والحاكمون ص ١٨٧ .

تلك الايجابية الواعية التى تقطع الطريق على السفسطائيين فلا يدعهم يستغلون تشابك الحوادث التاريخية ، وغموض بعض حلقاتها ليرتكبوا ارضاء للسلطات الزمنية ـ الغارقة فى حمأة المجون ـ أبشع الجرائم وأحطهـا ، باسم الدين والاسلام والسنة :

لقد مزق الرجل كل الاستار التى تختفى وراءها العملاء ، ورفع إصبع الاتهام فى وجه الكبير والصغير على السواء ، منددأ بكل المعايير التى صنعها السلاطين ، وملاحقاً الانقلابيين الأوائل الى آخر زاوية من زوايا بيوتهـم (الزجاجية) .

كل ذلك . . من أجل ان يبرز للمسلمين من خلال ضباب كثيف ، حقيقة النضال الامامي في سبيل الاسلام ومفاهيمه ، وحقيقة الارهاب الذي فرضته العصابات الحاكمة في مختلف العهود ، وحقيقة التزوير الذي دسوه بين السطور

ان الدعوة الى الوحدة الاسلامية لايرتفع لواؤها في دنيا الواقع مالم تمهـد الساحة ، وتنتزع من تربتها الاشواك ، وعملية التمهيد هذه ليست مسألة طيعة ، ترتفع مسؤولياتها عن كواهل الرواد فى عجالة أو ماشابه ، فهي كعملية مركبة تحتاج الى خصائص موضوعية ، وقابليات لاتحرز إلا في القلة القليلة من الأعلام .

فالامام شرف الدين بنى دعوته الى الوحدة الاسلامية على اساس متين من المنهجية الموجهة التى تملأ رئة البحث نسيماً منعشاً .

مارس ـ قدس الله سره ـ رياضة عنيفة مع التاريخ ، وأنفق أيام صباه وكهولته وشيخوخته في البحث والتنقيب والتعقيب .

روى صاحب الذريعة مانصه (١) :

---

(١) الطهران . الشيخ اغابزرك . نقباء البشر .

(. . وغربل تاريخ الاسلام غربلة دقيقة ميز فيها غثه من سمينه ونخل حوادثه ووقائعه صغيرة وكبيرة ، فعرف الصحيح من المزيف ، والحقيقة الثابتة من الوهم والخيال ، وقرأ الأحاديث المروية عن النبي واصحابه وأهل بيته بأجمعها) مما رواه الفريقان قراءة ضبط واتقان حتى كاد ان يستظهرها كلها ، ولقد أبان اموراً وكشف حقائق لم يكن ليعرفها الكثير من العلماء لولم يبعثها قلمه الحر النزيه . .) .

وتغنيني كلمة الشيخ البشري رحمه الله عن كثير من القول . . إقرأها ففيها شهادة بعيدة المغزى (٢):

يقول :

(قطعت على المعتذرين وجهتهم ، وملكت عليهم مذاهبهم ، وحلت بينهم وبين مايرومون ، فلا موضوع للشبهة فيما ذكرت ، ولامساغ للريب فى شئ مما بـه صدعت) .

° ° °

ولعل من النادر ان تجد أثراً للامام شرف الدين يخلو من صيحة الى الوحدة الاسلامية لايمانه العميق بأهمية التآلف من جهة ، ولعدم وجود مايبرر الاخلاق الحاد من جهة اخرى .

ونظرته الى الوحدة ـ وهذا أمرمهم سبق ان مررنا به اكثر من مرة ـ تعتمد على معانى العدل والتواضع والانسانية ، فهي ليست دعوة سلطانية تأتى من فوق ثم تنساب الى القاعدة .

المصلحيون يفهمون الوحدة والتكاتف والتآلف على نحو ماكان يفهمه معاوية أو من شرب من مائه ، اى انها خضوع وخنوع واستسلام لمشيئة

---

(٢) شرف الدين . السيد عبد الحسين . المراجعات . المراجعة ٨٩

الطغاة .

ان الاختلاف وتصارع الأفكار ، والنقاش . مظهر من أجمل مظاهر التدافع الاجتماعى واليقظة ، وهذا بالطبع إن اصبح مستساغاً اليوم فلانه أحد وجوه التوعية الحديثة ، النابعة من مفاهيم هذا العصر ، أما حتى يصبح الاختلاف مصدر خطر على الأمة . . يكون ذلك متى أمسك بقميص عثمان جلواز من الجلاوزة . : أو حتى استغلت الفجوة من قبل الاستعمار ، وعندئذ تنتقل المشكلة الى الزناد :

ان رسالة الامام المترجم له ، أو جزء من رسالته - إن شئنا الدقة - تتبلور في هذه النقطة ، فى سبيل ان تنتقل المشكلة الى الفكر بدل الزناد :

ناضل بعزم وعناد من أجل ان يبلي قميص عثمان الى الأبد ، فلا يخرج بعدها صعلوك يبيح دماء المسلمين لقاء أجر . أو لقاء تفجير دمامل . . أو لقاء سكب ماء بارد على حقد متأجج . أنا لا أمنع أن يتدحرج من وعاء ولغت فيه كلاب . . في يوم من الأيام ، حجاج آخر او سلطان سليم أو جزار . . فليا لينا حبالى . . ولكن أنا موقن ايضاً ان الفكر الحر سيكفاه على عقبيه : . فأراً يبحث له عن جحر ياوذ به . .

نحن الآن على أعتاب شيخوخة القرن العشرين . . فى وسع أية مشكلة في أقاصى الدنيا . في الكونغو . . أو كوبا أوفيتنام ، أن تهزني أنا القابع هنا : في هذا الركن القصي هزا.

فى عنفوان حرب الجزائر . . الجمهورية الفرنسية بكل قواها وامكاناتها قائمة وقاعدة . : عشرات من الباريسيين يتهاوون صرعى برصاص المجاهدين : الشرف الفرنسي تمرغه أقدام جيش التحرير في التراب .

في هذه الفورة ، وقف مفكر فرنسى معروف ، على رأس المناضلين

ضد الحرب القذرةالتي كانت تشنها جمهوريتهم على الشعب الجزائري البطل :
اسمعه يقول :(١)

نحن فرنسي المتروبول ليس لنا إلادرس واحد نتعلمه من هذه الأحداث . . ان الاستعمار يعمل الان على تهديم نفسه ، ولكنه مايزال ينتن الجو . انه عارنا ، وهو يهزأ بقوانيننا ، ويظهرها بمظهر كاريكاتوري : انه ينشر بيننا وباء العنصرية ، كما أثبتت ذلك حوادث (مونبلية) اخيراً . : وهو يفرض على شبابنا ، ان يموتوا رغماً عنهم ، من أجل مبادىء نازية نحاربها منذ عشر سنوات ، وهو يحاول ان يدافع عن نفسه بخلق فاشية في صميم بلادنا ، فرنسا ، وان مهمتنا هي ان نساعده على الموت ، لافي الجزائر وحدها بل حيثما وجد).

معنى هذا ان القضايا العامة سواء كانت للامم او للشعوب او للفئات أصبحت بتأثير عوامل التحرر والوعى والتطورات الشاملة التى باشرتها مبادىء ونظم حديثة ذات طبيعة معينة تتصل بصميم مدارك البشرية هذه المدارك التى تؤمن بالوازع الانساني كمنطلق لأخوة وتلاحم وارتباط . عزيز على الاسلام . . اى والله . . أن يملك الحقد أعنة أفكار في هذا القرن . وهذا الجيل . . بعض المسلمين بدوافع لم تعد خفية يريدونها أتوناً تلتهم . اخواناً لهم في الدين . . وكانوا يحسبون ان العصر سيسعف أطماعهم كما كان ديدنه ايام كان الجبابرة يفهمون الدين بعقلية ـ جنكيز خان ـ . . ولكنهم أخطأوا هذه المرة فلم يبلغوا الهدف كما بلغه آباء لهم من قبل .

اطلبوا الرحمة معي لمن مات والعافية لمن هو على قيد الحياة . لهؤلاء الأخوان الذين طاش بيدهم السهم . . لمحمد السباعي الحفناوي والرافعي

---

(١) سارتر . عارنا في الجزائر . تعريب عايدة وسهيل ادريس .

وأحمد امين ، والدكتور مصطفي السباعي ، والشيخ نوح الحنفي ، والنشاشيبى وابراهيم الجبهاني ، ومحب الدين الخطيب ، ومحمد كرد على ، والنصولى وغيرهم . (١)

• • •

ربما يلحظ القارىء في الحلقات المتقدمة اني حين استطر د فى العرض اسرف فى مجافاة عنصر الحبك المفروض توفره في مثل هذا الحديث التاريخي .

وقناعتى . : . اني لست مؤرخاً كلاسيكياً ألتهم حوادث التاريخ وأكتفى منها بمعرفة كيف وقعت هذه الحوادث ، بل اريد ان اعرف لماذا حدثت الأمور على نحو معين وليس على نحو آخر :

انا وراء المفهوم العلمي للتاريخ ، ولهذا تجدني لاأقف عند الحادثة التاريخية إلابمقدار ، ماأنزع عنها الغلاف . : وبعدها أجرى باحثاً في مضانها ، عن لقى . : عن أفكار أستطيع بها أن انقل الى القراء أحاسيس حارة من معارف الانسانية .

انك قد تجد أصدافاً لماعة . . جميلة عند الشاطىء ، ولكنك لاتجدها تحتضن لؤلؤة ثمينة واحدة . . ومن أراد اللؤلؤ عليه ان يفارق الشاطىء الى بعيد : : الى الأعماق . :

• • •

بينا عبر ملاحظات وردت في هذا الفصل ماذا كانت تعنى دعوة الامام شرف الدين الى الوحدة الاسلامية ، ولماذا رفع شعار سحق كل عوامل التفرقة بين الأمية والمذاهب الاخرى عن طريق عزل أفكار اصحاب المصالح من

---

(١) راجع ماقامت عنه اقلامهم بالتسلسل . ابوسفيان شيخ الامويين تحت راية القرآن فجر الاسلام . السنة . الفتاوى الحامدية الاسلام الصحيح مجلة راية الاسلام التى تصدر فى نجد

الحكام والوعاظ والمرتزقة عن خط التاريخ العام .

وهذه فى الواقع منهجية رائعة ، لان إقتصار أوجه الخلاف بين طوائف المسلمين على المسائل التى تأتى تحت عناوين الاجتهاد والبحث والمناقشة ، وفي الامور التى تحمل طابع الحرية الفكرية ممايِنشط الحياة العقلية في دنيا الاسلام ، ومما يبعث فى محيطنا الثقافي روح النضوج والتحسس والابداع .

إقرأ كيف يضع الامام شرف الدين يده على الداء (١)

(: : . أما اذا كانت الامة اوزاعاً متباينة ، وشيعاً متباغضة ، لاهيئة بعيثها ، غافلة عن رقبها ، لتكونن حيث منابت الشيح ، ومها في الريح ، أذل الأمم دارا ، وأجدبها قرارا ، مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وهدف السهام ، وقبسة العجلان ، في باحة ذل ، وحلقة ضيق ،وعرصة موت ، وحومة بلاء ، لاتأوى الى جناح دعرة ، ولاتعتصم بظل منعة ، فحذار حذار من بقاء الفرقة ، وتشتت الألفة ، واختلاف الكلمة ، وتنافر الأفئدة ، ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات ، واولئك لهم عذاب عظيم ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا ، وان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئى ، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون : . .) .

ثم يقول في نهاية هذا البيان الساحر مخاطباً المسلمين :

(. فهلا شرعوا خطى أقلامهم ، وجردوا صوارمها ، ووتروا قسي أفكارهم بثواقبها ، فازهقوا نفس العصبية ، وصحقوا آثارها ، وصدعوا بوظائف الانسانية ، ورفعوا منارها ، وهتفوا بدعوة التمدن ، واعتنوا بدعوة التشيع والتسنن بخطابة تملا مسمع الدهر ، ومكرمة تقلقل جلاميد الصخر : .) :

(١) شرف الدين . السيد عبد الحسين . الفصول المهمة .

هذه الصرخة هي التى تضعك قريباً كل القرب من أفكار الامامية ، ومن نظرتها المدركة الى الاخوة الاسلامية بمعناها الواعي ، ومن حرصها الشديد على شرف الكلمة .

والحقيقة انه معظم قادة الفكر الامامي درجوا على اقامة هذه الدعوة الخالصة ونشرها ، تطميناً لهدفهم الأكبر . وهو حماية الشريعة الاسلامية وصيانتها ، وتحمساًمنهم لمقاصد بناءة تنفع المسلمين •والمسألة برمتها انعكاس لواقع عملى . فالأمامية اوالفكر الامامي بعبارة اكثر شمولا ، يستمد طاقاته من تعاليم الرسالة المحمدية • ثم تتحول هذه التعاليم • وعلى صعيد التطبيق الى تصرفات اخلاقية تضفى على شموخ العلم هذه النكهة اللذيذة من تواضع النفس ، ودماثة الخلق ، واتزان البيان (١) :

ان التكفير والثلب واللمز لايتحقق بها غرض نبيل ، ولافي مقدورها أن تطمس حقائق تتصدر كبد الحقيقة كالشمس ، كما انها من جهة اخرى لاتخلق لأصحابها وجوداً فكرياً محدد المعالم ، بل بالعكس تنمو أسباب التمزق وتستطيل في البيئة التى يخضو ضرفيها الحقد ، وهذا ماحدث بالفعل في دنيا الاسلام • شكوك ورصيد ضخم من علامات الاستفهام .

إسمع مايقوله الامام شرف الدين فى مقدمة المراجعات بهذا الصدد :

(. . أمافكرة الكتاب فقد سبقت مراجعاته سبقاً بعيداً ، إذ كانت تلتمع فى صدرى منذ شرخ الشباب ، التماع البرق في طيات السحاب ، وتغلي في دمى غليان الغيرة ، تتطلع الى سبيل سوى يوقف المسلمين على حد يقطع

(١) على سبيل المثال راجع كاشف الغطاء . محمد الحسين أصل الشيعة واصولها ، وراجع المختصر النافع للمحقق الحلى وتأمل مقدمة العلامة القمي تجد فيهاتجارب فكرية كثيفة وخصبة ومعطاءةمافوفةبسحر الخلق المحمدى الصادق

دابر الشغب بينهم ، ويكشف هذه الغشاوة عن أبصارهم ، لينظروا الى الحياة من ناحيتها الجدية ، راجعين الى الأصل الديني المفروض عليهم ، ثم يسيروا معتصمين بحبل الله جميعا تحت لواء الحق الى العلم والعمل ، اخوة بررة يشد بعضهم ازر بعض ، ولكن مشهد هؤلاء الاخوة المتصلين بمبدأ واحد وعقيدة واحدة كان (واأسفاه) مشهد خصومة عنيفة ، تغلو في الجدال غلو الجهال ، حتى كأن التجالد فى مناهج البحث العلمى من آداب المناظرة أوانه من قواطع الأدلة ، ذلك مايثير الحفيظة ويدعو الى التفكير ، وذلك مايبعث الغم والأسف في الحيلة ؟ . ؛ وكيف العمل ؟ . .)

نعم ماالحيلة ؟ ، وكيف العمل ؟ . .

قلب واع كبير يتطلع الى وحدة المسلمين ، وتنزع نفسه الكبيرة الى افق مشرق فسيح ، ثم يأتي بعض المسلمين مدفوعين بأسباب لم تعد مجهولة كمابينا يغرقون في الجدول الآسن كلمات ودعاوى وأحابيل لاتنبت زرعاً ولاتعطى خيراً . ، ليلقوها بلا استحياء على كواهل اخوانهم فى الدين .

لم يكن الامام شرف الدين أسير فكرة مذهبية ، ولم ينتسب في حياته الى أية فئة تحمل هذا اللون من التفكير ، واذا كانت آثاره مطبوعة بطابع عقيدي فلايعني ذلك انه متأثر بمقدرات هذا الشأن .

كان المترجم له يؤمن ان كل كلمة تنبعث من قلب حاقد مريض فى مقدورها ان توهن مسيرة الاسلام ، وان تقعد بالمسلمين في منتصف الطريق ولذلك أدرك منذ اللحظة الاولى لبدء كفاحه ان مسوؤليته تنصب على مقارعة هذه الكلمة الغادرة بكل الوسائل والأسباب :

كان يسعى بقوة وبجلد الى نقل المسائل الخلافية فى صعيد حقد وتكفير ودس الى صعيد اخوة وعلم . واتفاق واذا جاز ان تكون تلك السلعة رائجة

في أيام الجهل والتقوقع والضمور . . ايام زمان . . فلا يعنى ذلك ان الناس سيقبلون عليها دائماً لان هذا مما يتنافى وطبائع الاشياء .

إن أية بضاعة مغشوشة ، لاتلقى في السوق زبائن باستمرار ، سيكتشفها الناس لامحالة عاجلا كان ذلك أم آجلا :

وفي قضيتنا هذه اكتشف المسلمون العملة الزائفة ، عرفوا لماذا تهاجم الامامية ، ولماذا ترمى في وجوههم سلسلة من التهم النكراء . . المنافية لمنطق الدين . . بلاتحفظ ولاذمة .

يقول الشيخ احمد حسن الباقورى (١) :

(. . وعندما ندخل مجال الفقه المقارن ، ونقيس الشقة التي يحدثها الخلاف العلمي بين رأي ورأي أوبين تصحيح حديث وتضعيفه ، نجد ان المدى بين الشيعة والسنة كالمدى بين المذهب الفقهي لابى حنيفة والمذهب الفقهي لمالك أو الشافعي ، أو المدى بين من يعملون بظاهر النص ، ومن يأخذون بموضوعه وفحواه ، ونحن نرى الجميع سواء في نشدان الحقيقة وان اختلفت الأساليب) .

أقسم عليك بعزة الاسلام . . قارن بين هذا الرأى الحر النابض بالحياة المملوء بالتفاؤل الداعي لرسالة التوحيد ، المتشبع بالمعرفة ، وبين قول الاستاذ أحمد امين رحمه الله :

(. . والحق ان التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة او حقد ، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرد شتية ، وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته

---

(١) راجع المختصر النافع للمحقق الحلى . مقدمة العلامة الاستاذ الشيخ احمد حسن الباقوري .

فاليهودية ظهرت بالتشيع بالقول في الرجعة ، وقال الشعية ان النار محرمة على الشيعي إلا قليلا ، كما قال اليهود لن تمسنا النار إلا اياماً معدودات ، والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم ان نسبة الامام الى الله كنسبة المسيح اليه وقالوا ان اللاهوت اتحد بالناسوت في الامام ، وان النبوة والرسالة لاتنقطع أبداً ، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي ، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الارواح ، وتجسيم الله والحلول ، ونحو ذلك من الاقوال التى كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس قبل الاسلام (١) .

هذا هو نص مادونه أحمد امين في معلقته السيئه الصيت ، وهو كما ترى رأى أملاه قلم كانت مروءة صاحبه ودينه وعلمه في اجازة .

ولادرى بعد ذلك من اين جمع حروفه ، وفي اية بوتقة صهر اسطورته والحق ان الامامية عانت ماعانت .: من الانوف الوارقه : : من القلوب المعقمة التي لم يخترق أجواءها خيط من نور .

نحن كمثقفين نعتز بأحمدامين والسباعي وكرد على وخالد محمد خالد كطليعة مثقفة لهذه الأمة ، ملكوا نواصي الابداع باللسان الذرب ، والقلم المتين ، والاسلوب المتميز .. ولكن مما يثير حفائظنا - حفيظة كل منكر ان ينزلق هؤلاء . . الى هوة يسكنها الشيطان ، وأية هوة اشد هولا من الهوة التي انقلب اليها الاستاذ احمد امين : .

غمس قلمه من دورق مملوء بالسم ثم هات ياورق ! ! . .

تحية اجلال . لكل رجل دين . أوحامل قلم ، او رائد فكر ، يخضع ثروته العقلية لما تتطلبه سعادة الانسان ، ويتصرف بها تصرفاً وجدانياً رصينا .

وحفنة تراب . . لكل انسان يرى سعادته في شقاء الآخرين ، ومجده

أحمد امين . فجر الاسلام ص ٣٣ .

في ذل الباقين ، وشكيمته في التنكيل بالمستضعفين . • ووحدانية في تكفير الموحدين •

• • •

وخلاصة ماتقدم ان المسألة من الوجهة التاريخية قديمة ، خاض فيها كتاب ، وبحثها رجال دين ، بحثها اولئك وهؤلاء من زاويتي العقيدة والتاريخ ، بحثاً واسعاً ودقيقا ، أدى في كثير من مراحلها الى معارك واضطهادات تعرفها حلقاتها المفصلة .

والجديد في الموضوع هو اسلوب الامام شرف الدين في دراسته للقضية وفي تقويم الأعوجاج الذى لازمها طيلة عشرات من السنين ، وذلك بوضع القضيه في إطار من الموضوعية الرشيدة التى تؤمن بالدعوة الى نبذ كل مايشين كرامة الانسان المسلم غير ناظر إلا الى جدوى الفكر وخدمة الرأى ، مطلق الرأى .

وقد أعطينك فكرة مبسطة عن اتجاهات هذا القصد بقلمه رضوان الله عليه في اعقاب دراسة مبسطة ايضاً عن بعض جوانب الاختلاف .

ولقد دخل الرجل تاريخ الفكر كمفكر جرىء تأخذه حماسة البحث بكلمة من كلمات الانتصار العلمي فيتركها تدور له أو عليه بدون قيد او معارضة •

وبعدذلك : • •

اعترف بصراحة ان الكتابة عن الامام شرف الدين مهمة شاقة ، وتبلغ مشقتها الذروة ، حين احاول ان يأتي دلوى مملوءاً الى الحافة ، ومع ذلك فقد كتبت عن الرجل بمقدار فهمى لآثاره •

الفصل الثانى

عقيدة ٠ ٠ ٠ ومدرسة

ومؤرخو الفكر اليوم يجمعون على ان آثار الامام شرف الدين يمتد تعريفها الى مفهوم المدرسة ٠ ٠ وهي بتخصصها في معالجة قضايا الفكر الامامى ٠ استطاعت عن طريق تسليط الأضواء الكاشفة على المشاكل التى غذتها أثداء السياسة ، ان تميط اللثام عن كثير من شؤون التاريخ والفكر والاخلاق ٠

ان الكفاح في سبيل العقيدة ـ بصرف النظر عن تعيين صفتها ـ مسألة عاشت مع الانسان الواعي ، ومارستها الانسانية على أساس انها مرحلة عالية من مراحل النضوج والشرف ، ولقد حفلت هذه الظاهرة الايديولوجية بكل معاني التمجيد والأكبار في كافة مراحل التاريخ ، وتساوت النظرة اليها من قبل سائر المفكرين سواء كانوا ميتافيزيقيين ام كانوا من أنصار المادية العلمية .

والغناء في ذات العقيدة ، ليس من معطيات العاطفة المحضة ، بل هو حصيلة فعاليات وجدانية أصيلة ينظم مداها عقل راجح ، ولذلك كان للمجاهدين العقيديين ، والمناضلين ، مكانة مرموقة في سيرة الانسانية ، بهم وبأضرابهم انيطت آمال شعوب ، وبتضحياتهم ارتفعت جباه ، وخفقت ألوية .

والجهاد العقيدي لايعني ميداناً معيناً ينصرف اليه الذهن ، وانما تتعين ادوات النضال بمؤثرات العوامل البيولوجية ، وعوامل البيئة ومايتفرع منها من شؤون تدرك في حقول الاقتصاد والثقافة والاجتماع ، ولهذا فجهاد الفكر وجهاد القلم ، لايقلان شأواً عن جهاد الدم ، ولكل ميدانه وسلاحه وصولته .

والفكر حين يخضع لبرمجة علمية مركزة ، في مقدوره أن يشعل الفتيل وأن يؤجج أوار الثورة ، وفي وسعه ان يقلب نقائبية المجتمعات الكلاسيكية رأساً على عقب :

والفكر الاسلامي على هذا الصعيد خطط للشخصية العقيدية شكلها الهندسي ووضع لها اطارها ، وتعطيك شهادة الحسين (ع) اروع مثال لصراع العقيدة في الاسلام ، حيث تتجسد في دقائقها افكار مبرمجة كما قلنا ، وتلتقي عندها

شتى أفانين اليقين والحس الانساني ، وروعة التصميم ، وقبل ذلك خلقت هذه العقيدة نفسها من فرد وهو الرسول الكريم (ص) قوة جبارة هشمت كبرياء الجاهلية ، ورفعت على انقاضها حضارة الاسلام الوارقة .

وحقيقة كبرى . .

اذا خالطت العقيدة دماً ، تحولت (كرامة) ساعة المخاض الى متفجرات ، تصارع الحديد ، وتحيل الصخر الى تراب .

• • •

وبقدر ماللفكر من دور فى هذا المجال ، فان للقلم كذلك دوره وزخمه وانتصاراته ، في مقدوره ـ القلم المدرك ـ أن يحرك التاريخ ، وان يزلزل الأرض تحت أقدام الظالمين ، ودونك حلباته وصفحاته . شهدت سجالا عنيفاً بين القلم وبين أعدائه المتزمتين .

هذا يملأ التربة بذوراً تتفتح يقظة ، وتلتهب ثورة ، واولئك ينشرون على الناس ـ على أخيارهم ـ صفات الزندقة والكفر والمروق .

وفى منعطفات التاريخ ـ تاريخ الانسانية ـ تلوح من الرؤوس المهشمة رؤوس طغاة ونيرونيين وجلاوزة ، والى جانبها تنتصب أقلام حية : : متمرسة بالنضال ، غنية بالتجارب ، مفعمة بالعقيدة ، يتضوع منها عبير الاخلاص .

وقفة بسيطة عند زبور آل محمد : . : لوحة قلم بارع .

يستمع الناس ويقرأون أدعية الصحيفة ، ويتصور معظمهم انها مجرد دعاء . : مناجاة . صورة قلمية لصلة روحية بين العبد وبارئه .

والواقع ان من يتأمل الصحيفة وكلماتها ، وتنهض ارادته على دراستها دراسة استيعاب وتمحيص ، يجدها مذكرة سياسية عميقة ، تعكس آراء

ومبادىء وأحاسيس ، هي في مقدماتها ، وتوليها صادرة عن نفس الغرض الذى استشهد من أجله سيد الشهداء ، أمالماذا جاءت بهذا الاسلوب ، ولم تأت بشكل آخر ، فهذه هي الحكمة بعينها ، وتلك معالجة لظرف لايفيده غير هذا العلاج : (١)

المهم ان هذه الصحيفة أدت دورها الاخلاقى في إلحاق الهزيمة الأدبية بكل أدوات الحكم الأموى فى حينه وعرت اولئك الوحوش ، المتدثرين بالأوزار أقطاب المجازر · منفذى مأساة الطف .

هؤلاء جميعاً تهشمت رؤوسهم على صفحات التاريخ · وفي اذهان الناس الطيبين : :

أماصحيفة (شاعر الله) (٢) ، فهي باقية ، وخالدة : . مرفوعة للهامة : . واضحة الغرة ، أقرأها أنا ، وتقرؤها أنت ، وتقرؤها الأجيال جيلا بعد جيل ، بكل تواضع وحب وتقديس .

وصدق الدكتور الوردى حين قال (٣) !

(وقد يصح أن نعتبر القرآن ، والصحيفة السجادية ، ونهج البلاغة كتباً ذات منهج واحد ، هومنهج الثورة على الظالمين) .

وعلى كل . :

---

(١) وكذلك موقف الامام الحسن (ع) في ساباط مظاهر آخر من مظاهر هذه النظرة الجادة، لاستيعاب دقائق هذا الموقف. راجع صلح الحسن للشيخ العلامة راضى آل ياسين رحمه الله .

(٢) عنوان كتاب للاستاذ السيد صدر الدين شرف الدين يدرس فيه الامام علي بن الحسين على ضوء الصحيفة السجادية :

(٣) الوردى ـ الدكتورعلي. مهزلة العقل البشرى ص ٢٣٨ :

: فى كل زمان ومكان ، لابد وان تجد نفسك بين رجلين أو فئتين ، أو نقيضين على حد سواء . بين على ومعاوية .. بين الأمويين والعلويين بين مجازر رهيبة تقشعر من هولها الابدان . . وبين صحيفة أنماها قلم إمام تقرأها فتسرى فى أعصابك موجة من الراحة والاستمتاع :

فى جيلنا هذا : :

تفتح عينيك فى كتاب للدكتور مصطفى السباعى رحمه الله : « فتفزعك رهبة الحقد . . نقمة : . وزبد وسعير : . وحزازات ، باسم الدين ايضاً كما كان يفعل معاوية ويزيد والوليد ، ثم انقلها الى كتاب المراجعات . . ستجد نفسك حتماً في دنيا جديدة . . رياض مشحونة بالورد ، زنبقة ونرجسة وأقاحة . . وعالم مفعم بالجمال سحره وعذبه ووشاحه :

وليس كتاب المراجعات وحده ، وهو من أروع أدبيات الفكر الأمامى يتسم بكل هذه الصفات النابعة ، من نزعة انسانية متألقة ، بل ان سائر الآثار التى وضعها قلم الامام شرف الدين تتقاسم فيما بينها هذا الرصيد الضخم من إعجاب المنصفين وتقديرهم ، وسبب ذلك يعود الى ان الرجل حينما كان يكتب ويؤرخ ، كانت لاتهيمن على قلمه وروحه ، اعتبارات خارجة عن اطار الاسلام ، فتحرفه هذه الاعتبارات عن منهجيته الرائدة التى لاتعترف ابداً بالنكوص أو التلون او المحاباة :

ومؤرخو الفكر اليوم يجمعون على ان آثار الامام شرف الدين يمتد تعريفها الى مفهوم المدرسة ، وهى بتخصصها فى معالجة قضايا الفكر الامامى استطاعت عن طريق تسليط الأضواء على المشاكل التى غذتها أنداء السياسة أن تميط اللثام عن كثير من شؤون التاريخ والفكر والاخلاق ، بصورة تكاد ان تكون فريدة من نوعها فى تاريخ المدارس سواء كانت يدنيةأم

أدبية أم سياسية .

وقيام المدارس بمختلف اتجاهاتها ظاهرة حضارية مألوفة ، تقود روادها وأنصارها على أساس منهجي معلوم الى حيث تبلغ بهم مستوى الانتاج المعبر عن أفكارها ، وأهدافها ، وخطوطها العامة ، وقيامها قبل ذلك يستند الى دافع معين يتحكم فى مجرى سيرها ومصيرها :

مثلا . : المدرسة الرومانتيكية : : هذه المدرسة التى كانت تهدف الى احداث تجديد جدى فى الأدب والفن ، والتى ظهرت فى اوربا في نهاية القرن الثامن عشر ، وفي اوائل القرن التاسع عشر ، والتى احدثت بالفعل انقلاباً خطيراً في الشعر والروايات والمسرحيات . قامت هذه المدرسة نتيجة رد الفعل الناجم عن المغالاة في اخضاع كل شيء للموازين العقلية (١)

وفي شرقنا العربى قامت مدارس متعددة ، أدبية وفنية ، كتب لبعضها ان تنمو وأن تزدهر ، وأن تؤدي خدمات جلى في مجالات متعددة من حياتنا العقلية ، كما ساعدت على تطوير بعض جوانب الحياة في هذا الركن من العالم . (٢)

فالمدرسة إذاً ليست مظهراً عفوياً من مظاهر الانطلاق الثقافي ، كما انها ليست واجهة لتيار فكرى يرتجل اسلوباً من الأساليب ، بل ان المدرسة بمفهومها العلمى تعنى أول ماتعنى عملية صهر ثقافية . تنتهى الى منهج واضح المسالك ، ويكون هذا المنهج خاضعاً لمدارك واعية تقوم بالطبع على مقياس سليم ، ورأى مشمول بمسحة عمق :

على ضوء هذا الاستهلال البسيط ، نستطيع أن نفهم بسهولة ، طبيعة

---

(١) غلاب . الدكتور محمد . أدب الثورة :

(٢) كمدرسة ابولو ، ومدرسة الامناء في مصر:

تلك الظروف التى ساعدت على قيام مدرسةالامام شرف الدين ، وأن نفهم ايضاً ونلم بمناهجها ورسالتها ، وماوفرته للفكر الامامى من زاد متطور دسم .

ومن القضايا المعروفة في تاريخنا ان مفاهيمنا الاسلامية خضعت ردحاً طويلا من الزمن لمقدرات السياسة ومآربها . وبمؤثرات عوامل جمة انحدر الرأى العام الى مستوى تصديق وتبنى شبهات عمل على ترويجها وبثها رتل من المرتزقة والمضارطة ، فزجت الأمة الواحدة في معارك دموية وكلامية بلا أية دوافع يقتنع بها عقد موزون ، وذهب ضحية هذه الغوغائية المصطنعة جانب كبير من المسلمين :

هذه الأمور بمجموعها خلقت فى الجانب الذي ذهب ضحية المطامع السياسية مسؤولية كبرى ، ولابد ان تنصب هذه المسؤولية بالبداهة في أعناق المبرزين في حقول الدين والعلم والثقافة .

وكان التجاوب مع هذه المسؤولية من قبل المفكرين لايتطارد فى مستوى واحد ، وانما أخذ اشكالا متباينة ، وقد أعربت عن هذا الأمر بوضوح الدراسات العقيدية المتوافرة بين أيدينا في الوقت الحاضر .

كان بعض أعلامنا يرى في الوقوف بوجه تلك المفتريات ضرباً من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان بعضهم يحفزه العامل الاخلاقي الى كشف اوكار التلصص في التاريخ ، وقسم ثالث كان يرى في دعم الجانب الموضوعي لمحتوى الفكر الاسلامى اخلاصاً لروح الثورة الاجتماعية التي فجرها الاسلام ، والتى اتجه الى تحقيقها بمداها الواسع المؤمنون الابرار

وبمقدار ماتتصل القضية بمدرسة الامام شرف الدين من كل الشؤون المتقدمة ، فان قيامها كان بمثابة ظاهرة فيزيائية (رد فعل) .

جبهات سياسية ميكافيلية شرسة ، سخرت مواردها البشرية والمادية والمعنوية ، من أجل دحر جناح معارض ، اكبر مايتهم به إلتصاقه الشديد العنيف بروح الاسلام .

كان لابد ان تتمخض الأيام عن عمل حاسم عنيد ، يفند دعاوى الخصومة، ويحطم مخططاتها على صعيد الفكر .

فكانت مدرسة الامام شرف الدين .

ومن اجل الشروع في استطلاع دورها في حياة الفكر الامامي نستعرض فيما يلي افكاراً ربما لاتخلو من فائدة في هذا الباب .

عانى المسلمون في نهاية القرن الماضى ارتباكاً اجتماعياً فضيعاً ، كان سببه الفراغ الفكري وتخبط الناس في متاهات ممحلة شديدة الجفاف ، ولو حاولنا دراسة مسألة الفراغ وتقصينا العوامل التى افردت له مكاناً مناسباً لقيامه ، لوجدنا انها لاتخرج عن المضامين التالية :

١ - الخلافات المذهبية : لقد اورثت هذه الاختلافات للفكر الاسلامى الكثير من المتاعب ، وتسببت في ضمور العديد من تطلعاته الانسانية الحكيمة وقد اطلعناك على شيء من ذلك في فصل سابق .

٢ - المواقف السلبية حيال الاتجاهات الفكرية الجديدة . لقد باشرت الطبقة القائدة يومئذ ، وهم اقطاب الحوزات الدينية، وبعض المنورين الكلاسيكيين - بمقياس تلك الفترة - ضرباً من الانطوائية كحل - هكذا كانوا يعتقدون - يضمن للمجتمع الاسلامى الصمود بوجه الغزو الفكرى الغربى .

وقد ثبت بالدليل والبرهان عقم هذا المنهج وسطحيته ، بل وفشله في تحقيق ولو نسبة ضئيلة من النجاح . إن السلبية ربما تكون دواء لحالة مشخصة ، يرى اهميتها لتلك الحالة النطاسي الحاذق : اما استعمالها لكل

الحالات ، فهذا خرق لكل اصطلاح معقول ، بل وجهل بكل معايير التحسس والتمعن (١)

٣ ـ الاستعمار . وهو الآفة الكبرى . . جند طاقاته كلها في سبيل تعميق مسألة الخلق والفراغ في مجتمعنا ، بما اوحاه صنائعه من اللاوطنيين والمصلحيين والاحتكاريين وأضرابهم من مفاهيم تغاير مصالح المجموع ، وتنشيطهم لكل الحركات الظلامية التي تعمل على حصر الأفكار الاسلامية الشابة ، في قوقعة مغلقة لاينفذ اليها النور .

لقد دأب الاستعمار بمقتضى نشاطاته التخريبية في الحقل الاجتماعي ـ وهو الذي يهمنا الآن بصورة رئيسة ـ على الاستعانة بكل الوسائل والاسباب من أجل تفكيك عرى الوحدة والتآلف بين أطراف المجتمع الاسلامى ، ومن أجل ارباك الاجواء الفكرية بعلامات التشكيك ، ومالى ذلك من وسائل التحدى والقلق .

٤ ـ الاستشراق : كان المستشرقون فى الواقع اسبق منا الى عرفان تراثنا والاهتمام به والبدء بنشره ، اننا نشعر من أعماقنا بالاحترام والاكبار لنفر جليل منهم ، ان وستنفلد الالماني الذي بدأ بنشر نصوصنا قبل مائة عام واكثر ودخويه ودوزى قدموا خدمات كبيرة لثقافتنا العامة وتراثنا . . هؤلاء الذين درسوا لغة ليست لغتهم وأدباً ليس ادبهم ونشروا مؤلفات لاتتصل بهم بشئ ، قاموا بذلك كله خدمة للقيم الحضارية التى تضمنتها تلك المؤلفات .

---

(١) لقد ذاقت الامامية بالذات مرارة اقحام السلبية في موقف سياسى نهضن في اعقاب ثورة العشرين ، ومازلنا نتجرع الى اليوم وربما الى ايام قادمة طويلة مغبة ذلك التقدير :

غير ان البعض من هؤلاء خلقوا فجوات واسعة وعلى مستوى مبدأى عال فيما انتجوه وحققوه (١) ، كانت هذه الفجوات مع الأسف مصدر بلبلة فى تفكير بعض مثقفينا أدت بهم الى التشكيك في صحة التطبيقات الشرعية التى حملها الاسلام الى الناس ٠

أضع بين يديك الآن مثلا واحداً ، لعله تكشف لك طبيعة التهكمية اللاذعة شيئاً مما أريد التأكيد عليه ٠

يقول الدكتور على الوردى فى كتابه وعاظ السلاطين مانصه بالحرف الواحد(٢)

والمدهش فى هذا الباب ان بعض الفقهاء يفرقون بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك ، فاللواط بغلام غير مملوك يستوجب فى نظرهم القتل والرجم ، أما من يلوط بغلام مملوك له فلا يستحق عندهم غير التعزير من القاضى ، ومعنى ذلك انهم يقتلون الفقير الذي يلوط ، أما الغنى الذي يشترى الغلمان ليلوط بهم فعقابه ان يقول له القاضى :

قف . . قبحك الله . . » :

هذه كما ترى تهمة خطيرة ، تتناول المحتوى الانسانى لخط بارز من خطوط عقيدتنا كمسلمين ، ان هذه القضية لووقف عندها اى مثقف تتمطىء بين ضلوعه نزعة تقدمية ، وتأكد من وجودها في صلب مداركنا الفقهية فانه معذور لو فلت من القافلة ، وتاه في الدروب والازقة ، لان المسألة بحد ذاتها لاتحتمل اى وجه من وجوه التأويل أو التبرير أو اى معنى آخر من المعانى التى تتداخل في تقريب المفاهيم الفقهية الدقيقة من أفهامنا وخواطرنا

---

(١) السامرائى ٠ الكتور ابراهيم ٠ مقدمة في تاريخ القرآن . مجلة البلاغ العدد السابع السنة الأولى .

(٢) راجع الصفحة الثالثة عشرة من المرجع المذكور اعلاه .

اقدري من اين حمل الدكتور الوردي هذه التهمة ؟ . :

اكبر الظن انه أخذها من المستشرق آدم متز ، الذي فتشها بداعة وقصها فى كتاب ابن السبكى ، ودونها في كتابه على نحو الواثق من وجودها في صلب مقوماتنا الشرعية :

٥ ـ التبشير : وكان للتبشير في هذه المنطقة دور كبير زاد في نغمة الطنبور وأسهم فى جعل الفراغ الفكرى فى محيطنا الاسلامى حقيقة واقعة ، وقد نجح التبشير فى إنجاز مسؤولياته بصورة تسترعى الانتباه .

ويجب ان نعرف ان سياسة التبشير فى المرحلة الاولى لاتعنى أن يصبح الفرد المسلم مسيحياً ، هكذا بسهولة ، الخطوة المطلوبة ان يكون الانسان المسلم في واد ، ودينه في واد آخر . : مابينهما حجاب . . نفرة . . انقطاع شبابنا اليوم ، ماذا يربطهم بدينهم ؟ تصرفات ، وفعاليات ، وسلوك بعيد عن مقتضى مايتطلبه الاسلام فيمن ينضوى تحت لوائه .

ان النتائج التى ترتبت على النشاط التبشيرى في اوساطنا الاجتماعية واندفاع هذا النشاط الى نشر عادات وتقاليد وميول تدغدغ عواطف المراهقين والسذج ، وضعاف التربية ، معروفة وملموسة ، ولاحاجة الى المروربها ، والافاضة في التحدث عنها .

هذه الأمور مجتمعة ، ومتعاونة ، نقلت الى محيطنا حالة مرضية عسيرة من أبرز أعراضها ، موجة (الضباع) العاتية التى تحتضر بين طياتها أحوالنا العامة :

والدليل على ذلك : : .

تكاكأ الجهل . . واستحوذ القلق على المجتمع الاسلامى ، وإغراقه

في لجة من المصطلحات المكفوفة . . وفى هذا المنحدر من التفكك واللامبدأية والميوعة ، كتب للدين الاسلامى أن يخوضها حرباً شعواء ضد مجموع هذه الارماث ، وماروجته من أساطير ومفتريات وبدع وجرائر وشجون . ان مواريث الفترات الكالحة التى مرت على العالم الاسلامى منذ نكبة بغداد والى نهاية الفترة المظلمة كانت تكفى لاخفاء معالم الاسلام الحية عن بصائر المسلمين تحت طبقة كثيفة من الأباطيل .

وفي وسعك أن تقدر مدى الخطورة لواجتمع الى هذا الميراث السيء تلك العوامل التى عددناها قبل اسطر :

فتح الفرد المسلم عينيه على الدنيا في مطلع هذا القرن ، وهي تمور بعناصر اليقظة والتقدم والتطور . . شعوب كانت مشلولة . . هزيلة . . تدفق - مابين غمضة عين وانتباهتها - في عروقها دم جديد . . فاذا بها تسابق الريح .

وشعوب اخرى ، كانت تستجدى الرغيف . . قلبت بوار أرضها الي جنة وارفة . . لم تقرأ عليها دعاءأطويلا . . ولم تدس بين طياتها تعويذة ، أو . . بل مسحت عن ذهنها رسوبات متكاثفة قديمة ، وفجرت بدل ذلك فى أخاديده ، نشاطاً ونوراً واحساسا ، ثم استخدمت ذلك كله في سبيل خير الانسانية ، ومصلحة الانسان ، ومكانة العلم .

الفرد المسلم ، يرى ذلك ، ويسمع أضعاف مايرى ، ولكن إرهاصات الكهان ، كانت تمنع هذا الفرد من أن يضع قدمه في العربة المنطلقة الى الامام أبدا . .

ومن صعد اليها في غفلة منهم : : فهو زنديق .

• • •

كان الفراغ الفكري إذاً معضلة شائكة ولاريب ، عصفت بكل المقومات التى كان من المؤمل أن تسند البناء ، وأن تحصن المفاهيم الاسلامية ضد كافة المخاطر والألتواءات .

وهكذا ضاع جيل كامل في زحمة تخبطات لاواعية ، وكلما تعاقبت الأيام ، كلما كانت تتجمع على السطح علامات جديدة للتفكك والانحدار .

وكان من مظاهر ذلك : . أن كل دعوة كانت تنقلب الينا من الخارج يلتف حولها أنصار بعدد النجم والحصى والتراب :

ولوتأملت بشيء من التقصي . كم فقدنا خلال نصف قرن ، من الضحايا ضحايا الضياع والفراغ الفكري ، لأخذ منك العجب مأخذه :

ولقد قلت مراراً : " العالم تلفه موجة حضارية لم يسبق لها مثيل " تقدم مادي في كل ناحية وصوب : : سباق في دنيا الاختراع ، والأكتشاف معادلات رياضية (١) دقيقة ، يضع رموزها عقل جبار . تتجول على ايدى جمهرة من رواد مدنية القرن العشرين ، الى معاجز . انطلاق الذرة ، وعصر الفضاء .

وقادتنا الروحانيون ، رحم الله من مات منهم ، وحفظ الباقين ، كانوا ومازالوا الى اليوم ، يصرفون طاقاتهم من أجل ان لاينقص حوض الكر سنتمترا واحداً .

ومسألة حوض الكر واحدة من مئات . .

لانريد من العالم الروحاني ان ينصرف الى المختبر ، ويترك وراءه مسؤوليته الكبرى . ان التخصص في الميدان الشرعي جزء خطير من

---

(١) نظرية الزمكان لاينشتين ، وهى النظرية التى نسفت قوانين نيوتن في الجاذبية ، وعالجت موضوع الزمان على اساس ان الكون يحتوي على ابعاد اربعة لاثلاثة ، والكون ينحني نحو البعد الرابع وهو الزمان .

ثقافتنا العامة ، ويجب ان يدعم بكل الطاقات المتيسرة التي تنمي وتوسع فيه ليكون جهازاً روحانياً ، يقود ويصلح ويشيد .

ولكن ، نريد منه لقاء ذلك ان لايقف عند حوض الكر وابعاده - والمسألة كمثال لاغير - وقفة تستنفذ طاقاته ، وتأكل وقته ، نريد منه ان يدرس شؤون العصر ومشاكله ، وكل جديد فيه ، ان يفهم مغزى المبادرة الجبارة (علموا اولادكم ، فقد خلقوا لزمان غير زمانكم) .

• • •

في مثل هذا الجو ، برزت مدرسة الامام شرف الدين ، فكانت عاملا مهماً من عوامل تنسيق الفكر العقيدي ، واظهار خصائصه على النحو الذي يصل بين ماضي هذه الأمة وحاضرها .

قامت هذه المدرسة في فترة دقيقة وحرجة للغاية : فترة كانت تصطرع فيها آراء ، وتشتبك في ساحتها ميول ، والناس يومئذ في أزمة فكرية تكاد ان تكون خانقة . والفراغ كما قلنا يستحوذ على مشاعر الناس وأحاسيسهم .

وثمة حقيقة هنا ، كان جيل الامام شرف الدين ، هو جيل الغلق قيم تشده الى الوراء ، وأفكار جديدة تحاول ان تنتزعه من واقعه انتزاعا ، وكل أمة مرت بهذا الدور اعتراها القلق وساورتها الظنون .

وكان المفروض في قادة الفكر ، وفرسان الثقافة ، يومئذ أن يتنبهوا الى اعراض هذا الوافد النفسي الخطير ، فيجنبوا الأمة مضاعفاته وآثاره ؛ كان عليهم ان يقيموا (ترسانة فكرية) من مبادئنا وتراثنا واخلاقنا ، تنتشل المجتمع الاسلامي من شرور الفيضان . ولوانهم بادروا الى ذلك في حينه لتغير مجرى تاريخ الفكر لهذه الفترة على الأقل ، ولكان الناس اليوم ينعمون بدفئ افكارهم الى جانب المظاهر المترفة التي أفاضت بها عليهم

مدنية هذا القرن :

ومن الضروري ان لايتبادر الى الذهن ، انى اميل الى حجر الفكر وارباكه بسلسلة من التمائم والتعاويذ ، او انى أدعو الى شل المفهوم الديمقراطى بمعناه الذي يتيح فيه للانسان أن يقرأ وأن يفكر ، وان يناقش فى الأمور التى تروق له وتستدر اهتمامه ؛

الذي أريده • ان كثيراً من أعلامنا في اواخر القرن التاسع عشر ، وفي مطلع هذا القرن عزلوا - وهذه حقيقة ارجو ان لاتثير مشاعر احد - انفسهم عن واقع الفكر يومذاك ووقفوا في وجه الآراء الجديدة التى تفجر عنها العقل البشري ، وقفة ليس فيها من عناصر التكافؤ اى شيىء كمن يحارب عملاقاً مسلحاً بسيف من خشب •

ان الرسالة الاسلامية لم تكن رسالة مسجدية فحسب ، بل كانت رسالة مسجدية واجتماعية وثقافية ، وفي وسعها بكل تأكيد ان تماشي النهضة العالمية الى آخر مدى ،

وشيء واضح • ليس من الممكن ان تخضع مدنية هذا القرن . أسبابها ومظاهر ها الى شى اسمه الاختيار نحن نختار أمراً معيناً ، ونترك أمراً آخر هكذا بارادتنا • مظاهر المدنية التى غزتنا وتغزونا في كل يوم مسألة واقع ودورنا - أعنى دور القادة - قادة الدين والفكر . ان لايتركوا الطوفان يلتهم الجيل بأكمله . عليهم ان يتجاوبوا ولو قليلا مع الاجتهاد الذي شرع يقيناً ليوم الناس هذا •

أما السكوت المطبق • والسلبية على طول الخط .

فسوف نصل وإياهم الى الحافة • إن لم نكن قد وصلناها بالفعل •

° ° °

الناس في كل بلاد الدنيا التى ازدهرت بشمس الحضارة المعاصرة ٠ متسابقون الى الأمام ٠ قفزات ; هرولة .

أمانحن فمازلنا في نهاية الصف . دع عنك هذه الزركشة ٠ إمرأة ريفية ساذجة تستعمل لاول مرة مساحيق ماكس فاكتور ٠ تقليد بلاوعى ٠

نعم ٠ في نهاية الصف ، وإذا كتب لنا أن نخطوها الى الامام خطوة فزحف السلحفاة ٠ خطوة ثم الوقوع في هوة ٠ أزمات ٠ خصومات ٠ حمامات دم ٠ : رجعية مشبوهة ،تقدمية مضطربة ٠

أتدري ما هو السبب ؟ ٠

ان نصراف بعض المسلمين الى نبش أحقاد متفسخة والسعى الى تزييف مفاهيم صميمة بعثرت امكانات ايجاد كتلة متراصة تقف بوجه نزعات الفكر الغربى ، وماجره وراءه من أدران وفلسفات وتخريجات ٠

اهتمامهم بمسائل بعيدة عن روح الدين ، وانشغالهم بقضايا ثانوية ركزت في اذهان المسلمين مدلول القلق ٠

العقل الخلاق يمنح البشرية المكافحة . الصامدة في معركة الحياة ٠ في كل ثانية وسيلة جديدة من وسائل السيطرة على الطبيعة وفي كبح جماحها وفي اكتشاف اسرارها ، ونفرمن المسلمين ـ عفا الله عنهم ـ انشغلوا وشغلونا معهم في شؤون ترجع بالركب الى عصور التاريخ المظلمة ؛

نقاش طويل . . ومؤلفات بعدد النجوم السيارة . ٠ عن ماذا ؟ .

عن ابي هريرة راوية الاسلام الذي لولاه . . لولا مطاعم كاتب الوحى ! ! ولذائذ خوانه ، لضاع في امعائه حديث موثوق . أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ـ

وهكذا أضاع هذا الرجل جوهر الدين ولب الاسلام ، وخلاصة نواميسه

من أجل أن يكون معاوية في القائمة . نجماً يقتدى به . وعليك البقية : :

. . .

شقت مدرسة الامام شرف الدين طريقها وسط هذا الحشد المتلاطم من التيارات، بعزيمة الشباب وحنكة الشيوخ ؛

ولاشك ان أفضل مايرجى من أية انطلاقة ثقافية ، ان تتوفرلها قيادة مناضلة واعية ،ترتبط تماماً بالفكر المتطور .. تعرف أدق مشاكله ،وتتجاوب مع مشاعر الناس ، وتسعى دائماً الى رفع مستوى الوعي ، وتعمل على خلق نضج ثقافي .

ولكي نصل الى فهم لجميع هذه القيم المحسوسة ،ينبغي أن ندرس طبيعة العناصر التي اعتمدت عليها قيادة هذه المدرسة في نهوضها بمسؤولياتها الخطيرة .

فما هي هذه العناصر ياترى ؟ . .

لقد ظهر لي بنتيجة البحث الموضوعي الدائب ان هناك ثلاثة عناصر اعتمد عليها الامام شرف الدين في تعزيز مدرسته وفي نجاحها كأداة فاعلة ركزت المفاهيم الامامية ، واعادت اليها رواءها الاسلامي الاصيل وهي :

١ - ثقافة موسوعية عميقة .

٢ - تخصص عال في الدراسات الاسلامية ؛

٣ - اسلوب متميز ،

ان المتتبع لحياة المترجم له العقلية يرى انه كان شديد التعلق بالاطلاع على مصادر المعرفة وتطلعاتها ، ولهذا افرزت دراساته مادة واسعة الافق في محتواها الرصين، وقد دأب على ارجاء دقائقها الى سند مثبت معلوم ، مكتسباً عناصر ذلك من مطاوي التاريخ العميقة .

والثقافة في الواقع لاندرك بكمية المعلومات المحشوة في ذهن الانسان،

ورب موسوعي يشبه الى حد بعيد ذلك الأمي الثرى ، الذي يعجبه ان تزدان اثواؤه بمجاميع من الكتب الأنيقة المنسقة ، او كمثل ذلك (المعمم) الذي عناه الشاعر :

وعند الشيخ كتب من ابيه   مصفطة ولكن ماقراهـا

ان المعلومات التي تنعكس على شاشة الحياة جموداً و (روبابيكا) ، وافكار بلا روح ، ليست ثقافة ، ولا شيء يقرب من هذا المعنى.

المثقف هو الذى يحمل فى رأسه مصدر نور . . . يفتح للناس الطريق، ويشيع فى سبيلهم مظاهر الطمأنينة والسلام ، وينقل أحاسيس التحضر الى كل قلب .

والامام شرف الدين حين زودته جامعة النجف بثقافته المعطاءة ، لم يعامل هذا التحصيل العلمي معاملة سواه . عملية تحنيط لطاقات فعالة ، والانصراف عنها الى حفنة من المصطلحات البراقة التي تتراقص لها الطبائع المحبة للراحة ، بل جاهد من أجل ان لاتضيع من يومه - بلا ادنى مبالغة - ساعة واحدة بلا انتاج :

وبين يديك مؤلفاته السائرة المطبوعة ، وفى مكتبته الخاصة مؤلفاته التى نرجو لها ان تجد طريقاً الى المطبعة ، وهذا بخلاف الانتاج العلمي الضخم الذي ذهب طعمة النيران ، يوم هوجم بيته من قبل المستعمرين الفرنسيين ، كما ستعرف ذلك فى فصل قادم .

أضف الى ذلك مقالاته وبحوثه المنشورة فى الصحف ، ورسائله الطويلة الى أبنائه المغتربين في المهاجر ، وأصدقائه الكثر فى دنيا الاسلام (١) .

---

(١) الطهراني . الشيخ اغا بزرك - نقباء البشر . الجزء الاول . حيث يقول (وتكاد مراسلاتنا خلال السنين الاخيرة ان تؤلف مجلدا) .

ولشدة اخلاصه لعقيدته ، وتفانيه في سبيل مبادئه ، نذر نفسه لقضايا الاسلام الكبرى ، على نحو انقطع فيه الى احتراف التمحيص التاريخي ، ليصل منه الى مواجهة التحديات المهزوزة التي تكشف وجودها النزوات السياسية ، الاستعمارية ، ومواريث الحقد .

ولقد خدم هذا التخصص والانقطاع مفاهيمنا العقيدية خدمة لايمكن ايجاد وصف لها ، وهى على كل حال خدمة جلى لواقع المضامين الاسلامية البعيدة عن روح التجاوز والافتراء والطمس ، وموضوع التخصص أو مبدأ الاحتراف - مسألة بدأت تصبح شاغلا كبيرا من مشاغل عالمنا الحديث ، فنحن اذا القينا نظرة على تطور الحرف والمهن والفنون، نجد انها تنمو باستمرار ناحية التخصص حتى انكاد تصل فى هذا الى درجات من التخصص لم تكن تخطر على بال :

فمنذ نصف قرن من الزمان كان العالم يرى ان تخصص طبيب واحد في فرع واحد من فروع الطب كالجراحة مثلا يعد تطوراً وتقدماً كبيرين ، ومع ان الوضع بقى على ما كان عليه ، مازالت الجراحة كلها ميداناً للتخصص إلاان تطور التخصص قسم الجراحة الى جراحة عامة وجراحة خاصة ، والجراحة العامة نفسها انقسمت الى جراحة أجهزة ، فأصبح هناك جراح قلب ، وجراح جهاز هظمي ، وجراح مسالك بولية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استمر التطور يمشي ، وأصبح الطبيب الجراح المتخصص في جراحة الجهاز الهظمي لايتخصص في جراحة الجهاز كله ، وانما يتخصص في جراحة جزء من الجهاز فقط ، واليوم نسمع عن جراحي معدة . . . اكبر من هذا تطور التخصص الى تخصص في عملية جراحية واحدة من عمليات المعدة .

ومن يدري . ربما يؤدي التطور غداً الى تخصص خطوة واحدة فقط

من خطوات العملية :

والأمر كذلك ينطبق على الفنون والآداب . تلك التي وان كان التخصص لم يصل ، كما حدث في العلوم الى حد المغالاة ، فوقف عند حد أن يتخصص الأديب الكاتب في كتابة المسرح مثلا ، أو القصة القصيرة ، ولكننا بالتعمق في دراسة كل كاتب سنجده قد حظى بمكانته ، لا لانه يجيد كتابة الرواية بشكل عام ، وكلى لان عبقريته تكمن في قدرته على رسم الشخصيات مثلا ، فكتابة الرواية هي قدرة على السيطرة على فنون كثيرة داخل العمل الروائي نفسه ، مثل القدرة على القص ، والقدرة على اثارة الشغف ، ورسم الشخصيات واجراء الحوار والحبكة القصصية . . الخ . .

والكتاب لايتساوون جميعاً في قدرتهم على السيطرة على هذه الأدوات بنفس الدرجة ، ولكن مانلاحظه هو ان بعضهم ينفرد بقدرة خارقة على هذه الأداة ، وبقدرته تلك يستطيع ان يكتب رواية رائقة . .

خذ .. الاستاذ توفيق الحكيم الكاتب المسرحي الكبير . كتب عدداً كبيراً من المسرحيات ، نالت اعجاب الناس وتقديرهم . . وأكثر مسرحياته شيوعاً هي التى نسجها عن أساطير . . في حوار الاساطير تلقى توفيق الحكيم في القمة .

وعلى الصعيد العالمي . . :

دستوفسكى مثلا . . ذلك الذي طبقت شهرته الآفاق ككاتب رواية ، لم يحظ بمكانته تلك لانه كان نابغاً في كل فنون العمل الروائي ، انما كانت كل عبقرية دستوفسكى تكمن في قدرته غير المحدودة على كشف الغطاء عن أنفس أبطال ، وأدق خلجات ارواحهم .

انه كاتب عادى جداً وهو يسرد ، وهو يحكى . . وهو يصف المكان

او الشخص ، او الحادثه ، وحين يصل الى النقطة التى يبدأ فيها البطل يتحدث عن نفسه او يعترف ، فلحظتها يرتفع دستوفسكي من مرتبة اي كاتب عادى الى اعلى مرتبة . . الى مرتبة لم يصل اليها كاتب قبله او بعده .

شكسبير كمحاور لاينفرد بعبقرية فذة خاصة . . انما ينفرد بتلك الصفة حين لا يحدث (البطل) غيره او يحاوره ، وانما حين يحدث نفسه ويحاورها حين يهمس لها . . ويعنف . . ويهدأ . . ويغضب ، ويرضى ، ويناجيها .

الغرض مما مر ذكره ان كل كاتب يتميز عن غيره ، وينال مكانته بالتالى ، بقدرته على تناول ناحية بعينها من نواحي الفرع الذي يزاوله .

فالامام شرف الدين على ضوء ماتقدم إختص كما قلنا بالدراسات الاسلامية وعلوم الشريعة ، واصبح فى حينه في الصف الأول من مجتهدي الامامية ، غير انه امتاز بقدرة خارقة على معالجة قواعد الفكر الأمامي ، وتقريب مضامينها الى الذهن .

ولا اعتقد ان هناك من اعلامنا وكتابنا من وصل الى هذا المستوى او قرب منه .

اما اسلوب الامام في جملة مؤلفاته فهو الاسلوب المتسم بالاشراق والاصالة واليسر ، وابلغ دليل على اصالته ، وان انتاجه بقى محافظاً على مستواه الرفيع منذ ان صدر له اول كتاب ، وهو الفصول المهمة في تأليف الأمة عام ١٣٢٧ هـ ، حتى آخر كتاب نشر له ، وهو النص والاجتهاد ١٣٧٥ هـ . وكل مؤلفاته - وهذه ظاهرة وقف عندها كثير ممن تعرض لها بالبحث - تتمتع بمواصفات محكمة . . . تتعين ملامح هذا الاحكام ، في قوة العارضة في الأدب ، وبعد النظر في البحث ، وسلامة الذوق في الفن ، وحسن التيسير في ايضاح المشاكل ، وتحليل المسائل .

وبالرغم من وفرة مانشر من بحوث غنية بالنزعة العلمية ، فانه ليعسر على الناقد ان يجد فيها مايشبه الثغرة ، او تبايناً فى الاسلوب او النهج ، او القدرة الفنية ، او في عمق النظرة ، او خوراً في اداء الرسالة .

إقرأ هذه الالتفاتة الدقيقة يوردها اية الله الامام آل ياسين (١):

(... وليس ادل على هذا من إنتاجه ، هذا الانتاج الغزير الثرى النبيل ، وان مؤلفاته لتشهد بأنه من الحياة العلمية ، كمن ينصرف اليها ولا يشغل بغيرها ، وادل مايدل منها على ذلك ، كيفية مؤلفاته ، لا كميتها ، فهي وان كانت كثيرة حتى بالقياس الى رجل يتفرغ اليها ، فانها من الأصالة والعمق والاستيعاب ، حيث لاتدل على ان مؤلفها رجل يمتحنه الناس بتلك المشاغل ، ويبتلونه بما عندهم من مشاكل ، فهي بما فيها من قوة ، ومتانة وغور ونحت وتفكير ، ادل على اتصاله الدائم بحياته القلمية من جهة ، وادل على فضله ، وخصوبة سليقته من جهة اخرى .

بهذا الميزان يرجع علم الرجل وفضله ثم يرجع به امتياز ماكتب ، هو امتياز قليل النظير ، فان المؤلفين المكثرين كثيراً ماتظهر عليهم السطحية ، ويميز كتبهم الحشو ، اما المؤلف فليس فيما قرأنا من مؤلفاته مبتذل سطحي ، ولا رخيص سوقي ، بل كل ماكتب انيق رقيق ، رفيع عميق ، يجمع بين سمو الفكر ، وترف اللفظ .

نأتى الآن الى مسألة مهمة ربما تكون اهم مواد هذا الفصل .. ماذا قدمت ؟ او ماهى منجزات هذه المدرسة في عالم الفكر الاسلامي وماهو تأثيرها المباشر بالنسبة لتقديم الفكر الامامى بصورة خاصة ؟ ..

---

(١) شرف الدين . السيد عبد الحسين . المراجعات . المقدمة لاية الله الامام الشيخ مرتضى آل ياسين .

الذي لاشك فيه ان زعامة الامام شرف الدين الفكرية قبل كل شيء قد تخطت منذ امد بعيد حدود الواقع الامامي لتمخر الآفاق الاسلامية نسمة دافئة ، تشيع الأطمئنان وتزرع حتى في معاقل الشك الايمان بالاسلام وبقدرة الانسان على ان ينفلت من اغراءات الشر بتحقق وحدة اسلامية سماؤها السلام وقاعدتها الاخوة في جو من الحب الدافيء النابع من صميم القلب وقرارة النفس .

فهذه هي مهمة الانسان المسلم في هذا العصر . لا مجال للاختيار الا بين سبيلين : سبيل الوحدة الاسلامية التي تجند امكانات الدين لرفاه الانسان والقضاء على مصادر القلق في حياته او سبيل الفرقة والخصام بما يتمخض عنه واقعه من معاني التفكك والانهيار .

وليس ماأوردناه سلفا من باب التمهيد لغرض ان نؤكد على نفوذ الامام بالنسبة للتفكير الامامي على وجه التخصص انما كان من قبل بسط لنقاط جوهرية يجب ان تتضح في الأذهان قبل المضي في عرض زبدة افكاره في القضايا والمعضلات الملازمة للاتجاهات الجديدة التي دفعت القضية الاسلامية الى مسرح التاريخ ، والى ادوار عظمى تصل ماانقطع من امجادها الحضارية.

اما كون الامام - رجل الفكر - مصدراً ملهماً في هذه الوصلة من الزمن فهذا ماقام عليه اجماع اسلامي .

ولعلنا نحن الأمامية اكثر الناس ايماناً بزعامته الفكرية واكثرهم قابلية على فهم معالجاته ، والانسجام معها ، لما فيها من تدعيم لمفاهيمنا العقيدية الصادقة :

وبعد هذا . . . فلنلخص مع مدرسة الامام شرف الدين في فعالياتها الجزيلة والتي شذبت روضة غناء كان يختفي زهرها اليانع تحت رحمة

طحلب كثيف .

اولا . ملأت فراغاً كان يستوطن رقعة شاسعة من اذهان الناس ، بما بسطته من تفسيرات علمية ، لمنطلقات عقيدية كانت مطموسة ، بفعل نوبات هستيرية ، كانت تنتاب حكاماً افلسوا من الناحية الدينية ، لشدة التصاقهم العفوى الكامل بمقدرات ذاتيه ، تتحمس للشهوة العابرة ولمصالحهم الشخصية فقط ، وتتنكر لكل وازع ديني يحرص على تطبيق نصوص الشريعة ، والتمسك باهداب الفضيلة ، وما تشتمل عليه من متطلبات العدل والرحمة والمروءة .

ربما يبدو ان فى هذا التقدير شيئاً من المبالغة ، قلب في مجتمعنا ما يشعر بحرارة ان الفراغ الفكري قدسه او ماشابه .

هذا قد يكون صحيحاً لاول وهلة ، ولكن لدى الاستغراق في التأمل بروية الباحث الاجتماعى المشدود الى نظرة علمية جامعة ، نجد ان الهزات النفسية التي عاناها مجتمعنا في السنين الأخيرة بسبب نقص فى التوعية السياسية، وبسبب ايضاً الاختلاطات الفضيعة التى حصلت اثناء ذلك . . هذه الأمور بمجموعها لعبت دورها فى ايقاظ الناس - بعض الناس - من الغفلة او السبات، او المراهقة ، سمها ماشئت .

ومن خلال هذه الأزمات سرى فى اغوار البعض ، داعى العودة الى حظيرة (التراث) ، لما نجع حل للتخلص من زحمة تلك الارتكاسات العنيفة ، ولأنه بالتجربة الحية اسلم الوسائل لبلوغ الحياة الطبيعية المسالمة :

وهكذا ساقت المقادير مدرسة الامام شرف الدين - وكأنها كانت على موعد - لتقود الوعي الاسلامى في اخطر فترة مرت بها او مر بها .

ولهذا كان الاقبال على انتاجه في السنين الاخيرة ، طارىء يفضي الى مسؤولية جديدة بالنسبة للعقيديين الاماميين : تحفزهم الى مضاعفة الجهود

من اجل ان يكون وراء الرعيل الاول .. رعيل ثاني : . وثالث . .بصراحة .:
في اذهان الجيل صورة للدين الاسلامي هي غير صورته الحقيقية ..
صورة مهزوزة ، مملوءة بالرتوش والالوان ، والمساحيق : . والصنعة .
نضال شاق : . وكفاح مرير . . عملية جبارة :
تعود الصورة الى ما كانت عليه يوم بزغ نوره ، واضح القسمات ، طرى الاهاب ، يتدفق انسانية وسماحا .
وشيء آخر لا مندوحة لنا عن تبيانه :
ان التاريخ يقيم الدليل على ان الجماعة التي تمتلك من القوة المعنوية مايمكنها من تحمل صدمة تمرد بعض عناصرها على اهدافها ، تخسر قليلا من العناصر . . ولكنها تعوض عنها بعناصر اكثر عدداً واقوى .
ثانياً . حلت المدرسة من خلال دعوتها الى اسقاط اعباء الخصومة التى فرضتها السياسة بين المسلمين ، مسألة الامامة حلا برهانياً سهلا مقنعاً ، واطفأت سورة غضب كان يتشبث بها التطرف المذهبي ، الذي ادرك اغراضه فى صلبية نزاعه الى الدم والتنكيل والغمط .
ولو تصفحت كتاب المراجعات لوقفت على هذا الشأن بصورة اجلى واكمل .
ثالثاً . عرت المدرسة ـ لمصلحة اسلامية عليا ـ اقطاباً كانوا يحاطون دائماً بهالة من التقديس وأرغمتهم على امتطاء خشبة المسرح عراة . . على حقيقتهم .
وكانت هذه الخطوة هي اخطر عملية (تقييم) يتناهى اليها قلم متجرد وفي كتاب النص والاجتهاد لقاءات صارمة مع اولئك اعطت كل واحد منهم كتابه بيده . . إقرا هذا كتابك . . .

كل ذلك اعتزازاً لكلمة الدين في نصوصه الخالدة ، وابراءاً لذمته مما حملوه اليه من اعتبارات كانت فى احسن الفروض لاتتمم ببعد نظر .

رابعاً - اكدت المدرسة ان الكفاح فى سبيل العقيدة حركة ذاتية دائبة، تتفاعل مع الأحداث دون ان تستطيع موانع السن ، والشيخوخة ان تحول بينها وبين الهدف .

سقط قلم عميدها الرائد ، وهو في مشارف الخامسة والثمانين ، يخطط منهجية مدرسته بفكر يقظ متنور ، ويناجز اعداء فكرته باب صاب ، وعزيمة ابن العشرين :

خامساً - رسمت المدرسة طريق العمل للعقيديين المتمرسين ، وفتحت لهم السبيل من اجل تطوير اساليب النقاش المبدأى ، وتصعيده الى المستوى الانساني الذي يؤمن بالصراع الثقافي كمصدر من مصادر الرحمة ، لا مورد من موارد النقمة :

* * *

الفصل الثالث .

غرس ... وثمر

والثابت لدى المعنيين بقضايا الثقافة ، ان الانتاج الفكرى لايوزن بأسماء اصحابه الرنانة ولا بمراكزهم المرموقة ، وانما تقدر وتوزن بقدر مافيها من طاقة على الربط بين ظواهر الفكر ، وبقدر مافيها من قدرة على الاستنتاج المحكم ، وبقدر مافيها من امكانية على التحليل والتركيب ، وبتعبير آخر بقدر مافيها من قوة على اقناع الاذهان المتفتحة بحقائق مسلمة .

لايتسنى الالمام بحياة الامام شرف الدين العقلية مالم يصار الى دراسة بيئته ، دراسة موضوعية شاملة ، تعطي هذا الحديث لونه الثابت ، وتكسبه طابعه العلمي المميز :

واذا كان علماء الاجتماع فيما مضى قد اختلفوا في مسألة ايهما ابعد تأثيراً فى حياة الانسان ، الوراثةام المحيط . اوبعبارة اخرى ، العوامل البيولوجية ام العوامل الاجتماعية . . فإن اليوم ميل واضح لدى اكثر المعنيين لهـذه القضايا الى التأكيد على تأثير العوامل الاجتماعية بالنسبة لتكوين الشخصية البشرية ، ويعتبرون الشخصية نتيجة تفاعل مستمر بين الدوافع الطبيعية الفارقة في الانسان من ناحية ، والقواعد التى يفرضها المجتمع عليه من ناحية اخرى(١).

وعلى هدى هذه الحقيقة سنحاول اعطاء سمات دقيقة لظروف المجتمع الاسلامي الذى عاش فيه الامام شرف الدين ، وعلى كافة مستوياته الاجتماعية والثقافية والسياسية :

ومن أجل اعطاء فكرة شاملة عن المسألة نحاول ان ندرسها على النحو التالي :

١ ـ ايامه الاولى .

٢ ـ حياته في النجف الاشرف .

٣ ـ استقراره في عاملة .

ايامه الاولى : سأنقل اليك فيما يلي حديث هذه المرحلة بقلمه رضوان الله عليه فاستمع اليه :

ولدت مستهل جمادي الثانية سنة تسعين ومايتين والف في المشهد المقدس (الكاظمي) اثناء رحلة والدي لطلب العلم .

وحين رجع اعلى الله مقامه الى جبل عامل واستوطن قريته (شحور) من اعمال (صور) كنت فى الثامنة من عمرى ، انعم بحضانة والدى المبرورين ،

---

(١) . الوردي علي . شخصية الفرد العراقي . مطبعة الرابطة ١٩٥١.

فأنزل من حنانهما الى جناب مريع ، وألوذ من حنوهما الى كهف منيع ، وقد أحنيا على بالتربية كما تحدبا على بالتغذية : فطبعاني والحمد لله على غرار الدين القويم في منهجه المستقيم .

لاعذب الله امى انها شربت حب الوصي وغذتنيه في اللبن

اخذت عنهما اصول الدين وعقائده القيمة ، وطبعاني وانا طفل على إقامة الصلاة بشروطها ، وتلك نعمة لايؤدى حقها ، والفضل لله تعالى إذ خلقني من والدين مخلصين له الدين ، داعيين اليه بالحكمة ، وله النعمة والالاء ، إذ لم يدخرا في دلالتى على الله تعالى وكتابه ورسوله واوليائه واليوم الآخر وسعا ، وهو القادر على جزائهما بالاحسان احسانا ، وبالسيئات عفواً وغفراناً .

قرأت القرآن الكريم فى (كتاب) على معلم من الصالحين في النجف الأشرف وجودته في شهور ، على عمى المرحوم السيد محمود شرف الدين ، وكان من الحفاظ والقراء ، والبررة الاتقياء ، رحلة فى علم التجويد .

ثم أقبل المقدس والدى على تعليمي بنفسه فألقيت اليه بسمعي ولبى ، حتى اخذت عنه العلوم العربية : الصرف والنحو والمعانى والبيان والبديع والأدب العربي وعلم المنطق بكل ضبط واتقان ، واخذت عنه « نجاة العباد » للعمل على مقتضاها إذ كانت مع حواشيها يومئذ مرجع المقلدين - وقرأت كتابي « فقه الامامية » « وشرائع الاسلام » ، وكان يأمرني بكتابة الدروس وعرضها عليه ، فما فاتنى كتابة شيء مما قرأته عليه من دروس العربية والمنطقية إلا القليل والحمد لله .

وحين قرأت عليه كتب النحو كان يفرض على قراءة العبارة على العربية ثم إعرابها ، ثم تفسيرها قبل الدرس فى كل يوم ، وكنت احفظ فى كل يوم بيتين من ديوان الحماسة او غيره من شعر العرب ، فأتلوهما وأفسرهما بين يديه بعد مراجعة المعجم في حل الغريب من مفرداتهما . وألزمني بحفظ

ألفية ابن مالك حين قرأت عليه شرحها ، وكان في شهر رمضان يلزمني بمتابعته في قراءة القرآن - وكان من القراء - وهناك أجزل الفوائد وأرجى المنافع ، بخشوع الأبصار ، وسكون الجوارح خشية وفرقا .

مارأيت كوالدى أباً رحيماً حكيماً ، يعنى بأمر ولده ويهتم بشأنه ، فلابني في شيء من مبلغات نجحه أبداً ، ومارأيت مثله استاذاً يغدو على التدريس بسعة ذرعه ، فيعيره - اذا تكلم - أذناً صاغية ، ويتلقاه - وان أخطأ - بوجه متهلل ، وصدر منشرح ، فكنا فى كل مانسمعه منه أو نرفعه أليه،على جمام من انفسنا ، ونشاط من عزائمنا ، وكان يرهف طباعنا بتشجيعه ويجلو عنا صدأ الفتور بما يذلله من العقاب والصعاب ، خائضاً بنا عباب العلوم ، يغرينا بالغوص على اسرارها وجمع اشتاتها ، ويحملنا في ذلك على كل صعب وذلول، فيضطرنا الى تمحيص حقائقها ، وكان فى سلخ كل شهر يبلو ماعندنا ، فاذا وجد نقصاً اكمله ، او ضعفاً تداركه ، يرهف بهذا طباعنا ، ويستأنف به نشاطنا .

وحين لمعت من تباشير الصبح ، اجمع على ارسالى (حاضناً لا خي الشريف) الى جامعات العلم فى العراق، وكان اعلى الله مقامه ، ماضى العزيمة اذا قال فعل ، فحمدت الله جلت الاؤه على ان بلغنى مافى نفسي ! ومقدمة لتلك الرحلة ، اهانني بكريمة صنوه الأكبر عمى المبرور السيد محمود (ام افلاذي الكبار الستة) وكانت من خيرة الفاطميات فى كل امر يعلو بهشأن الخفرات، من حيث الدين ، ومن حيث الدنيا ، ومن كل جهة ، وقد ختم الله حياتها على نحو السبعين من عمرها فى حرم جدها امير المؤمنين عائذة به ، فطيب الله رمسها في مثواه الأقدس ، مثوى الرحمة ، ومعقل الهدى والعصمة مساء السبت سلخ جمادي الأولى سنة الف وثلثمائة وتسع وخمسين .

ان لوالدى فى رحلتى العلمية نعمة تجدد قديم نعمائه ، وقدارهف لها همته فأرصد مايضمن لنا الراحة فى التفرغ للعلم حتى نعود اليه بما ناطه بنا من الثقة ، وعلقه علينا من الأمل ، وهذا مااضطرنى واخي الى انفاذ الهمة وبسط العنان في ايقاظ الجنان ، فلم نأل جهداً ولم ندخر وسعاً ، وكان قد شرط علينا ذلك قبل السفر، وامرناعند الوداع بتقوى الله عز وجل ،والاخلاص له تبارك وتعالى فى العلم والعمل ، وعلى هذا فارقناه .

وفى التاسع من ربيع الأول سنة ١٣١٠ هـ قمت بهذه الرحلة الميمونة بخدمة المقدسة والدتى (وكنت وحيدها فلن تستطيع عنى صبراً) مجبوراً بحضانة اخى الشريف ، وله يومئذ اثنا عشر عاماً ومعى كريمة عمى تحضن بكرنا طفلة مفطومة ، ومعنا وصيفة لنا كانت صالحة (سعيدة) كاسمها ، تعرف وجوه الخدمة - فكنا ولله الحمد - فى طريق كله في انعم بال ، واحسن حال : حتى وردنا المشهد الكاظمي اعزه الله تعالى (١) ، فألقينا العصا بفناء الرأفة والحنان ، وموضع الحكمة والايمان ، فناء آية الله البالغة ، ونعمته السابغة ، جدى المقدس السيد محمد هادي فآوانا اعلى الله مقامه الى ظلال رحمته ، واوسع لنا اكناف نعمته ، وحنت تلك الطاهرة جدتي الجليلة علينا حنو الوالدات على الفطيم ، وقد جمعها الله بكريمتها والدتى وكانت بكرها، وقد منيت بفراقها ثلاث عشرة سنة تجرعنا فيها الغصص . اما العلويات شقيقاتها الأربع فقد اخذتهن سورة الفرح فبكين سروراً وأبكيننا حبوراً ،وكان خالى العلامة السيد حسن اعلى الله مقامه يبكى متمثلا :

---

(١) قبيل الفجر يوم الثاني من جمادي الأولى من تلك السنة ، ابحرنا في بيروت الى الاسكندرونة ، ومنها مع القافلة الى حلب ، فدير الزور ، فالكاظمية ، استغرقنا في الطريق اثنين وخمسين يوماً :

هجم السرور على حتى انه من فرط ماقد سرني ابكاني

وكانت ساعة روح ومسرة ، وجدنابها قرة عيوننا وبرد السرور في قلوبنا

• • •

ولم يكن تحصيل الامام شرف الدين العلمي مقتصراً على النجف الاشرف بل رغبه طموحه الى المعرفة قبل ذلك ، ان يتنكب مشقة التنقل بينها وبين الكاظمية وسامراء وكربلاء ، وجند له ولعه بتمتين صلاته مع اعلام هذه الحواضر المقدسة ومراجعها واللامعين من روادها ان تكون له علاقات مع الكثيرين من اولئك الأفذاذ .

ويروى لنا الامام طرفاً من حياته العلمية في سامراء ، وهي حلقة مهمة من حلقات تكوينه الثقافي لابأس من ايرادها فى هذا المقام :

(ولما تشرفنا بأعتاب الكاظمين عليهما السلام كان خالي الامام ابو محمد الحسن وابن عمه الامام اسماعيل فى مهجرهما (سامراء) فآثراها لنا على النجف الاشرف، وماان صدر الامر منهما بذلك ، وأمضاه سيدنا الجد، حتى وردنا شرعتهما فآوينا منهما الى وارف حنان وسوابغ نعمة واحسان، وكانت سامراء يومئذ آهلة بأعلام الهدى ومصابيح الدجى .

أقمنا بين ظهرانيهم سنة واحدة فكانت أجزل ايامنا فائدة وأرجاها منفعة، قرأت فيها (شرح اللمعة) في الفقه و (مباحث الالفاظ) في فصول الأصول .

اما شرح اللمعة فقرأته على شيخنا المقدس الشيخ باقر حيدر، وكان من ذوي البسطة في الفقه والاصول إماماً فى العلوم العربية على غاية من الاعتدال في مفاد الادلة ومجارى الاصول معدوداً في المبرزين .

انطلق (قدس سره) - يطوى بي فى اليوم الواحد من شرح اللمعة مالا يطوى فى الاسبوع، واندفع بعدو بي حثيث السير في ذلك الكتاب المستطاب على ما كان ملتزماً به من اعمال الروية الثابتة والنظر الدقيق والغور البعيد راعى في عمله هذا مطابقته لمقتضى الحال ، اذ لم يرنى والحمد لله بمحتاج في اللمعة الى استاذ فكان يغذ بي السير فيها وربما حضني فقال : لاتون فرصك ولا تكن عوقاً، فما عتم ان ختم الكتاب والحمد لله .

وأما درس (الفصول) فقرأته على شيخنا المقدس الشيخ حسن الكربلائى وكان من اعلام الفقه واطوار الاصول وابطال البحث والتنقيب ربيط الجأش فيها مشيع القلب فى الجدال والمناظرة صادق البأس فى معترك الاراء، قد ملك فصل الخطاب ومفصل الصواب .

عني بي - قدس سره - فتعمق فى درس يتقصى فى التحقيق والتدقيق، فيعلمني كيف تمحص الحقائق وكيف تنجلى الغوامض، وكان يغربنى بمناقشته ويحدوني على نقض مايبرمه ، وابرام ماينقضه ويرهف عز مى لمناظرة العلماء والافاضل ويشذر الي لدفع الحجج المزيفة وقرعها بالحق ، ويحماني على الامعان والاستقصاء في البحث مع اترابي ومن هو افضل مني ومع من هو دوني .

وكنت صبح كل جمعة من كل اسبوع اغدو بخدمة سيدنا الخال اعلى الله مقامه الى مجلس مولانا القدوة الشيخ (ملا فتح على) السلطان ابادي ، وكان اعلام الدين ينتدون يوم الجمعة مجلسه لينتجعوا حكمته ويردوا شرعته وكان ممن ترمقه ابصار الصديقين وتمد اليه اعناق المقدسين (الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه) .

وكان اعلى الله مقامه (ممن تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم

خوفاً وطمعاً) (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض) ،رقيباً على نفسه في كل حركة وسكون ،يحاسبها على كل منهما ، زاهداً في الدنيا ، راغباً فيما عند الله ، ضعيفاً في بدنه قوياً في ذات الله ، كان أمير المؤمنين عليه السلام انما عناه اذ وصف بعض اخوانه فقال (لعظيمه في عيني صغر الدنيا في عينه) .

فاذا افاض في الحكمة ، تفجرت ينابيعها على لسانه فملك اعنة القلوب وقاد حرون الشهوات ،وقوم زيغ النفوس ، فخفقت الأفئدة خيفة ، وخشعت الجوارح خشية .

وبعد . . . أفلم يكن لغدوي الى خدمته ، واستماعي لحكمته ، أثر هو أرجى ماأرجوه ؟ . .) ويمضي الامام في اتمام جوانب هذه الحلقة ،فيتحدث عن الفتنة العمياء التي شغلت سامراء في تلك الايام ، صوراً مملوءة بالمعاني القيمة التي تعكس حيطة الفكر الامامي على الاسلام ، واخلاصه للأمة ،حيث تبلور الأمر وتجلى في موقف امام الامة وشيخ الاسلام الشريف الحسيني (الشيرازي) رفع الله درجته في رده الأبي الحمي وانكاره الشديد ان يكون قد وقع شيء من اهل سامراء ينافي الكرامة .

كل ذلك من اجل ان يقطع الطريق على بريطانيا ان تستغل ، وعلى الدولة العثمانية او غيرها ان يستفيد من أمر طارىء لخلق فجوة أو هوة بين الجمهور (١) .

وفي ختامها يقول رحمه الله : . .

(وفي اثناء هذه الفتنة خرجنا من سامراء نقصد النجف الأشرف ، ولم

(١) للتوسع في الوقوف على المسألة ، راجع العدد الرابع من السنة الثالثة من مجلة المعهد اللبنانية في صفحات من حياتي بقلم الامام شرف الدين.

يكن بد من المرور بالكاظمية ، تشرفاً بأعتاب الامامين (الكاظمين) الجوادين عليهما السلام ، وتزوداً من عطف سيدنا الجد السيدهادي، وتفيؤاً بظلال حنانه وبلا للجوانح من لاعج الشوق ، الى خدمة جدتنا وخالتنا ، وكرائم اهلينا في حمى ذلك الجد الرحيم .

وكم كنا نحظى بخدمته في حلقة من اولاده وأحفاده وأسباطه ، نستقي من بحر فرائه ماشاء ، من علم ودين وأدب واخلاق وطهارة ، فيروينا من كل ذلك بكأسه الأوفى ، ويفيض علينا من حكمة المربي ، وتربية الحكيم .

وحفقنا الى النجف متوكلين على الله عز وجل ، فانخنا حاجاتنا كلها بفناء الوصي ، وباب علم النبي ، اذ لامذهب للآمال عن ذلك الباب ، ولا مراد للنجح عن تلك الرحاب ، ووجدت استاذي الشيخ حيدر قد سبقني اليها .

• • •

وكما ترى في وسط هذه الاسرة الدينية العريقة ولد الامام شرف الدين وشب ، وكانت الظروف الاجتماعية السائدة يومئذ مثقلة بكل مظاهر التأخر والجهل والارتباك ، ولو اضفنا الى ذلك تدهور الحالة الاقتصادية وشللها بنتيجة ما كانت تعانيه الدولة العثمانية من شتى انواع العلل ، تفسخ شنيع في اجهزتها المختلفة ، وتفكك منقطع النظير في كافة مرافقها حتى حقت عليها كلمة الرجل المريض :

نعم . . انشبت الفوضى مخالبها في جسمها المهزول ، وادمى الانحلال قوامها المرتعش ، وفي الوقت الذي كان القلب (الاستانة) يعاني الام التدهور السريع ، امتد الداء الى الولاة في اقطارهم ، والحكام في امصارهم . فسار هؤلاء الولاة على نهج ابعد التوازن المطلوب في دولة ضخمة كالدولة العثمانية

والعراق فى طليعة الاقطار التي منيت بالاستعمار العثمانى ، وتحملت اوزاره منذ ان انتزع من قبضة الفرس ، وضم الى املاك آل عثمان على عهد مراد الرابع ، فجف النسغ ، وجمدت القرائح ، واقتصر اللاحقون على الاتباع والتقليد ، وشاعت بين الاوساط روح رجعية فيها لكنة تقوت على ماينبت في الوديان الآسنة من افكار عتيقة ، ومصطلحات بالية ، وطقوس جافة .

وكانت الاسر الدينية فى حواضر الاسلام الكبرى ومنها الكاظمية يومذاك هى معقل الثقافة ومصدر الاشعاع ، ومنطاق الرأى ضمن الحدود التي كانت لاتخرج بها عن حدود ونطاق الالتزام .

ومن الحقائق الصارخة فى هذا الباب ، ان الكثيرين من اقطاب هذه الاسر بالذات ، كانوا غير آبهين بالبيئة التي يعيشون فيها ، فهم مغلقون لم ينفذوا الى روح الحضارة التي كانت تحيط بهم ، (١) لايتأثرون بها، ولا يؤثرون فيمن حولهم .

هذه الانطوائية السلبية هي التي حالت دون تقدمنا الحضارى . . اغلاق العقل والروح دون الحضارات والقيم الثقافية والانسانية .

ان الدفاع عن هذه الانطوائية والسلبية بحجج مختلفة تارة باسم القومية او المحافظة على التقاليد ، وتارة باسم الخوف من الاستعمار ، اصبحت غير ذات قيمة . . .

كان يجب ان تكون نوافذنا وابوابنا وشؤوننا - ان امكن - كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد ، (٢) مفتوحة مع عقولنا وارواحنا ، لكي

---

(١) الاسلام ناموس الحضارة وعنوانها . . كانوا يعيشون في بحبوحة تعاليمه وأسسه :

(٢) المنجد : صلاح الدين . لمحات من تجاربي الفكرية ص ٣٨ .

تصل الينا الافكار الانسانية والثقافية كلها ، ونساير الحياة بألوانها المتجددة.

لابد ان تتعانق قيمنا مع القيم الأخرى ، بحب وصداقة وان تتمازج ليكون هناك لقاح مستمر خلاق . . اذا وقف اللقاح وقفت الحياة، ولولا اللقاح منذ الأزل لما كان هذا الانسان ولولا لقاح الافكار لما كانت الحضارات وليس هناك خوف ان تذوب شخصيتنا او يضيع تراثنا اذا كنا واثقين بأنفسنا مؤمنين بتراثنا .

يجب ان لا تكون لنا اعين الخفافيش تخاف الضياء بل اعين الصقور تتفتح ببريق على نور الشمس.

• • •

كان هذا المناخ ذا تأثير بالغ في نشأة الامام شرف الدين ،اختصر مدة التبرعم او مرحلته الى حد نهضت به ملكاته الى مستوى لايتناسب وسنه .

ويبدو لى ان العناصر الثقافية الفاعلة فى هذا الوسط كانت قوية فى تأثيرها، وربما كشف امتدادها الى العنصر النسائي وبمستواها الرفيع ومنهجيتها العالية عن مظهر آخر من مظاهر هذا التأثير، وعن جانب الأصالة فى مركزها العلمى الدقيق :

ولا بأس من ان نقف . . هنا . . وقفة بسيطة . .

كان الى جانب الامام في هذا البيت . . العلوية مريم الصدر (١) درجت معه ونهلت من ذات المعين الذي نهل منه، فاذا بها بعد حفنة من السنين تتصدر الثوى كفقيهة وادبية وشاعرة من الطراز المدنى يندر وجوده فى نساء ذلك العصر .

---

(١) وهى خالته الصغرى . توفيت سنة ١٣٤٧ هـ عصر يوم الجمعة في السابع عشر من شوال ودفنت فى مقبرة والدها الامام الهادي الصدر .

ومن المؤسف ان تطمس بعض الاعتبارات التي كانت سائدة فى الاجواء العامة يومئذ آثار هذه الاديبة الكبيرة ، وان تذهب آثارها نهب الاهمال والنسيان ، اللهم الا عدد يسير من قصائدها باللغة العامية الدارجة تستذكر في المآتم الحسينية في كل عام

وشيء لايخفى ، ان دراسة حياة هذه الاديبة ، بالاضافةالى انها تعرض لوحة من ادبنا النسائي (١) والتي من المروءة ان تنبرى اقلام اخرى الى التحقيق عنها والكشف عن روائها ، تخدم في هذا المجال غرضين رئيسين

---

(١) مما لاشك فيه ان مرور مدة تزيدعلى ٣٥ سنة على وفاة الاديبة الصدرية ، وقعود اعلام تلك الفترة عن التعريف بأدبها واحجام آلها عن المشاركة فى ذلك ، اسباب أدت الى ضياع جزء كبير من انتاجها ، وخلال جولة عابرة فيما تركته من تراث عثرت على نصوص من رسائلها النثرية والشعرية كانت قد بعثتها الى العلامة السيد محمد صادق الصدر ايام هجرته العلمية الاولى فى النجف الأشرف ، وسأكتفى في هذا المورد بتثبيت رسالة واحدة ، اعتقد انها تغمر اعطاء فكرة مقربة عن الموضوع ، وفي الرسالة ترجمة صادقة لعواطفها وعواطف شقيقتها الكبرى العلوية (ملكة) رضوان الله عليهما وذلك في حدود سنة ١٣٤٢ هـ .

اي عزيز عمتيه وحبيبهما.

سلام عليك من شقيقتين ما برحتا منذ فارقتاك متلهفتين لجميل رؤياك ومتشوقتين الى التطلع لضوء محياك ، ذلك المحيا الساطع ، بل القمر اللامع .

ومنها وهى رسالة طويلة . . والله قسماً ماهون على عماتك مانزل بهن من الام فراقك ، الا أملهن الكبير بأن يكون لك في حجرتك المباركة اكبر وسيلة في نشاط روحك الأدبية ، وتقدم حياتك العلمية ، حياة ابائك الطيبين.

اولا - تكشف عن دور المرأة فى حياتنا العقلية لوصلة زمنية معينة من تاريخنا ، كانت توصف بالجمود :

ثانياً - تصور اثارها جانباً من تربيتنا العقيدية .

على كل . . .

تنم الاخبار من سيرته - كما رأينا - على انه تلقى دروسه الاولى فى مدرسة البيت ، وانتقل منها الى حلقات مشايخ اسرته التي طالما كانت تعقد في دواوينهم ، يتذاكرون فيها مصالح الناس ، ويعالجون مشاكل الحياة ، ولهذا حين انتوى والده السيد يوسف الرحيل الى عاملة بعد ان أنهى دراسته العلمية وأجيز بالاجتهاد كان الامام شرف الدين قد خلع تمائم طفولته واستوى على صغر سنه يتهيأ للحياة الجديدة برباطة جأش وتصميم ملحوظ .

وربما كان اكثر مايستهويه من العلم انساب العرب وتاريخهم وأيامهم في الجاهلية وفى الاسلام ، وبخاصة سير الابطال . . ابطال الاسلام وفى مقدمتهم . . سير آل البيت التى كانت تبعث فى صدره الفتى النشوة والفخر

- واجدادك الطاهرين ، اولئك الذين سابقوا في حلبة العلم ، فسبقوا وحلقوا في جو الفضل فلم يلحقوا ، فكم من شخص حذف من سطر الأحياء ، قبل ان يمحى من صحيفة الحياة ، وكم من شخص مات ولكنه لم يزل حياً في الارض والسموات ، فعليك ياابن الاخ الأعز ببذل الجهد ، لتكون حياً حقيقياً ، فعلى وزن تلك الحياة ، ستكون قيمتك في سوق الاحياء ، وإياك ومسارة الكسل فانه ولا ريب يحط من قيمتك بين قرنائك ، ويزهد من ثمنك بين زملائك ، ولا تفوتنك الفرص السانحة وانت بين ابناء خالك الكرام ، اولى الجد والاجتهاد ، والذين ذهب صيتهم فى البلاد ، وكن منهم كما تكون من اخيك ، فانهم كما تعلم ابناء خالك هل ابيك - عمتك -

والاعتزاز ، واستطاع ان يبلغ شأواً بعيداً فى هذه الضروب المتعددة من الثقافة بفضل ماأوتى من حدة الذكاء ، وقوة الحافظة وصفاء الذهن ، وامتاز بين أقرانه من الناشئين بمواهب طيبة ، قربته كثيراً من نفوس كبار قومه ومعارفه كسرعة البديهة ، وعذوبة الحديث ، ودماثة الخلق ، والعزوف عن كل مايشين ويزري بالكرامة ، والصراحة المتناهية ، وربما كان ابرز ظاهرة فيه جرأته واقدامه ، وتحمله المتاعب في سبيل مبدأه وعقيدته ، حتى لكأنه ولد للقيادة فتعلم كل مايتعلمه الفتى المرشح للرئاسة .

وليس غريباً ان يسير على هذا النهج ، فمجتمعه الذى عاش فيه ، واسرته التي انحدر منها ، واستعداده ومواهبه ، كل ذلك وغيره كان يدفعه نحو هذه الغاية التي سار اليها .

كان ذلك العصر ، عصر خمول وضعف وتمزق ، كما كان في الوقت نفسه عصر تطلع وانتفاض وثورة ، وفى كلا الميدانين تاريخ يكتب ، وبطولات تدون ، وشخصيات تنتصر فتحكم ، او تندحر فتزول ، تاركة وراءها خبراً يروى وأثراً لايمحى ، وكانت حواضر العلم والدين مستودع هذه المعادن من الرجال ومدارس تنجب الافذاذ ، وتضع القادة ، فتغذي بهم ميادين الجهاد الفكرى

وقد ولد الامام شرف الدين في صميم هذا الميدان الواسع ، ونشأ في مدرسة كبيرة من تلك المدارس ، وانحدر من بيت رفيع ، فتلقفته الأيدي الحريصة ، والعقول الماهرة الخبيرة ، فمهر بفنون العلوم الشرعية ومارس مختلف مضامين الأدب العربي ، وراض نفسه على البحث ، وعودها على الصبر في المضائك ، وشدائد الحياة :

وكانت وسائل التحصيل العلمى ، وتدريب الناشئين على البحث والتعمق ، وتهيئتهم للمراكز القيادية الحساسة ، صعبة وشاقة ، لايخلو بعضها من المغارة

والمجازفة ، وما كان باستطاعة كل ناشيء ان يمارس هذا اللون في العمل الا من وهب قوة العقيدة واليقظة ، وكان الامام شرف الدين في مقدمة من يملك هذه المواهب ،ومن اشدهم ولعاً بممارسة هذا الضرب من الانغماس الثقافي :

وفي اخبار نضاله العقيدي التي سبق وتحدثنا عنها ، وماينبيء عن قوة ذهنية صامدة ، ودراية باكرة بفنون الثقافة والمعرفة ، كما ان حنكته في مآزق النزال ، ومصارعة الاتهامات ، ومبارزة الأباطيل التي تهدف الى النيل من مقومات الفكر الامامي ، تدل عن ضلاعة العقيديين الاشداء المعهودين بين رجال القلم ، وهي ضلاعة يوشك ان تستمد من حماسة النفس وشهامة القلب ، اضافة ماتستمده من الاقلام والافكار .

ومن هنا نفهم ان مواهب الامام ، وتربيته ، كانت الأصل في تكوين شخصيته ، وتسويد نفسه ، وايصالها الى مصاف المفكرين والافذاذ ، ولكنها لم تكن لتصل الى غايتها هذه ، لو لم تصادف تلك الظروف المواتية والمناسبات السخية التي تحدثنا عنها . : وغير بعيد أيضاً ان رحيل الامام الى لبنان ، في تلك الايام ، مهد له سبيل التعارف مع مختلف طبقات المجتمع هناك ، ودراسة الحالة عن كثب ، فعرف الناس وعرفوه ، بفضل مكانة ابيه وآله بين ائمة الدين ، ونبل بيته فيهم ، وافاد من اسفاره هذه ثقافة اجتماعية واسعة ، ماكان ليجدها في كتاب ، ولا يتقنها على ألسنة المخبرين :

° ° °

وتعتبر النجف الخالدة بداية مرحلة الانطلاق في حياته ، فلاول مرة يتبوأ مكانته في صفوف جامعتها الكبرى كطالب علم ، ورائدا تنفتح أمامه أبواب مستقبل مجهول ، يحمل فيه وحده نتائج اعماله ،

غير ان سبيل التقدم كان واسعاً لموكبه . وأسباب النجاح متوافرة لديه فهو في منعة من نفسه ، واسرته وعشيرته ، وفي المكانة المرموقة بين وجوه الطلبة المسلمين الوافدين من كل حدب وصوب ، وكان هؤلاء على علم بشخصية الامام ، ومتانة خلقه ، وإصالة معلوماته ، فأحبوه واحترموه ونال الحضوة بعد ذلك لدى المراجع الكبار الذين كانوا يديرون دفة الجامعة ، ويحملون على اكتافهم مسؤلية ذلك .

ولابد هنا من ان نلقي ضوءاً على جامعة النجف الاشرف على اعتبار انها كانت ولا تزال وستبقى مركزاً متألقاً للنشاط الفكري في الاسلام وملتقى كبار علماء الدين واللغة ، وفي جوها العبق تنفس الامام شرف الدين شذى معارفها الفاغم .

ان اول بناية تأسست في جامعة النجف كان في القرن الثاني الهجري وهي بناية قبر سيدنا الامام امير المؤمنين علي بن طالب (ع) بأمر الخليفة العباسي هارون الرشيد ، فاصبحت منذ ذلك اليوم لهوى أفئدة المسلمين الذين يتعطشون الى الانتهال من نمير روحية صاحب هذا القبر والاستلهام من عقيدته العالية ، وقدسية نفسه ، مع العلم ان هذا الوضع موصوف بجفاف تربته وبعدها عن العمران ، ونوعها فى صحراء مرتفعة قاحلة ، لاماء فيها ولا كلأ ، إلا ماكانوا يستنبطون من ماء اجاج فى آبار عميقة الغور(١).

وكانت النجف الى ماقبل الحكم الوطني تأخذ مياهها من الجداول والترع التى انفق على حفرها رجال البر والاحسان ، في اويقات مختلفة ، وقد شاء

(١) راجع بجلة المجمع العلمي العراقي . المجلد الحادي عشر . محاضرة العلامة المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر التي القاها في جامعة القرويين بالمغرب .

الحاج محمد علي رئيس تجار عربستان أن يكون من بين المساهمين في تأمين المياه لسكان هذه المدينة المقدسة، فتبرع بثلاثة الكاك من الربيات لحفر جدول في محل يعرف بالزنديات المتصلة في جدول بني حسن، وينتهي مصبه الى بحيرة النجف، وهذا التبرع لغاية ارواء النجف، والانتفاع بالماء اينما جرى .. الخ

وقد قبلت في حينه الوزارة العسكرية الاولى هذا التبرع، وكتبت وزارة المالية الى مجلس الوزراء حول هذا الموضوع، فقرر مجلس الوزراء ان تتخذ اللجنة التي الفت بامر من الملك فيصل الاول وتحت نظارته، الوسائل المقتضية لاسالة الماء الى النجف بحفر قناة لذلك، وان تفوض الاراضي الاميرية الغير المزروعة التي ستروى مما يزيد من الماء على درجة احتياج بلدة النجف الى الملك فيصل الاول نفسه ليوقف ربعها بعد دفع العشر الى خزينة الحكومة على المعاهد الخيرية كالمدارس والمستشفيات وتطهير القناة، والمحافظة عليها، وان تسد المصاريف المبذولة على الحفر من المبالغ الموقوفة كما قلنا، وقد بدأ بالعمل في غرة رمضان ١٣٤٢ هـ (٦ نيسان ١٩٢٤ م)، ثم ظهر ان المواصفات والاستشارات الفنية غير كافية وغير منقبة فاخفق المشروع واعيد مبلغ التبرع الى الشخص المار ذكره(١).

والامر الذي لم يتحقق الى الآن متى كان ابتداء اتخاذها معهداً للدراسات الاسلامية، ولكن حين يعلم ان النجف تقع في ظهر الكوفة، والكوفة يومئذ مركزاً علمياً معروفاً، من اليسير اذا، ان نفهم، ان في هذا الموضع المجاور حركة علمية ومدارها العلوم الاسلامية.

ويقول العلامة المظفر رحمه الله ان شواهداً على ذلك كثيرة مثل بعض

---

(١) الحسني. عبد الرزاق. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الاول ص ١٣٧.

الاجازات العلمية التى صدرت في مدينة النجف في ذلك العهد ، ومثل رواية (كتاب الغري) التي ورد فيها ان عضد الدولة البويهي لما زار النجف سنة ٣٧١ هـ وزع مالا على الفقهاء والفقراء ، فذكر الفقهاء والمجاورين ، يعطيا نصاً على وجود الحركة العلمية .

وبدأ مركز النجف العلمي يتمركز في اواسط القرن الخامس الهجري وذلك في اعقاب هجرة الشيخ ابي جعفر بن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة ، اليها من بغداد سنة ٤٤٨ هـ ، وشيخنا الطوسي من اعلام هذه لامة ومن أفذاذها الخالدين ، صاحب الموسوعات والمؤلفات في الحديث والتفسير والفقه وغيرها ، ويكفيه شأناً ان يكون له أصلان كبيران من الاصول الاربعة وهما كتاب التهذيب وكتاب الاستبصار في ثلاثة مجلدات

وبقيت النجف مركزاً علمياً حساساً منذ ذلك العهد ، وكانت ظروفها كمعهد للدراسات الاسلامية تخضع لعوامل المد والجزر ، فتنشط أحياناً ويتضاءل إشعاعها حيناً آخر ، حتى اوائل القرن الثالث عشر الهجري حيث كانت النجف نهاية المطاف في الرحلة العلمية الواسعة التي جابت بلدانا متباعدة كبغداد والحلة وكربلاء واصفهان ، وذلك على يد المجتهدين الكبيرين السيد محمد مهدي المعروف ببحر العلوم ، والشيخ جعفر الكبير صاحب كتاب (كشف الغطاء) في الفقة الجعفري .

وقد ازدهرت النجف عمرانياً في هذه الفترة ، حيث كثرت البنايات المعدة لسكنى المهاجرين اليها من مختلف الامصار النائية ، وهذه البنايات هى التي تسمى بالمدارس ، وهى أشبه ماتكون بالاقسام الداخلية ويبلغ الموجود منها الان قرابة (٣٠) مدرسة كبيرة وصغيرة ، بعد ان كانت بناية المشهد العلوي هى المأوى الكبير لهم من ابعد الحدود .

وفي النجف اليوم حوالي خمسة الاف طالب من مختلف الاقطار الاسلامية كالهند ، وايران ، وافغانستان ، وباكستان ، والتبت ، وجبل عامل والبحرين والاحساء ، والخليج العربي ، الى غير ذلك ، وتقوم الجهات الدينية العامة بتعيين الموارد المالية التى تعتمد على الحقوق الشرعية ، من الاموال التى يدفعها المؤمنون من مختلف الاقطار لهؤلاء الطلبة واساتذتهم .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الباب ، ان ليس لهذه الجهات الدينية اى مورد حكومي ، ولا علاقة لها بالحكومات على اختلافها في شؤونها الخاصة والعامة ، مادية او غير مادية .

اما نوع الدراسات واسلوبها فانها لاتختلف كثيراً عن سائر الجامعات الاسلامية القديمة ، في شكل التدريس للعلوم العربية وما اليها ، وانها دراسة خصوصية لاصفية .

ولجامعة النجف امتياز خاص في موضوع طريقة تحصيل ملكة الاجتهاد في الفقه ، وغاية الطالب الديني القصوى أن يبلغ هذه الدرجة التي لاينالها الا ذو حظ عظيم .

يجتاز الطالب ثلاثة مراحل تدريسية لبلوغ هذه الغاية .

المرحلة الاولى : مرحلة دراسة (المقدمات) كما يسمونها ، والمقصود بالمقدمات النحو والصرف وعلوم البلاغة والمنطق ، وهي تقرأ من كتب لايتجاوز وزنها إلا نادراً كشرح قطر الندى لابن هشام ، وشروح الفقيه ابن مالك ، ومغنى اللبيب في النحو ، والشمسية وغيرها فى المنطق .(١)

(١) وضع المرحوم العلامة الشيخ محمد رضا المظفر كتاباً في المنطق بثلاثة أجزاء بدلا من الكتب القديمة ، باسلوب سهل جديد وعبارة واضحة وكاد ان يعم تدريسه الآن في معاهد النجف الأشرف .

والدراسة في هذه المرحلة دراسة فردية على الاكثر ، وربما اشترك فيها اكثر من واحد فيشكلون حلقة صغيرة ، وللطالب الحرية في اختيار المدرس بل الكتاب ، وليس عليه رقيب إلا نفسه ، أو ولي أمره ، وربما ينضم الى هذه الدراسة علم الكلام والعلوم الرياضية ، وبعض العلوم العربية الأخرى كعلوم العروض والقافية والبديع والنصوص الادبية .

المرحلة الثانية: مرحلة دراسة (السطوح) وهي دراسة متن الكتب الموضوعة في الفقة الاستدلالي ، واصول الفقه ، وتجرى الدراسة في هذه المرحلة على اسلوب الحلقات ، ويختلف عدد الطلاب في كل حلقة حسب اختلاف المدرس في تفوقه في اسلوب التدريس ، وسعة إطلاعه .

أما الكتب الاستدلالية في الفقه ، فأشهرها شرح اللمعة الدمشقية الذي هو كتاب ابتدائي في الاستدلال ، وبعده كتاب الرياض والمسالك ثم المكاسب للشيخ الانصاري ، وهناك مراجع اخرى اوسع دائرة وبحثا وإذا انتهى الطالب في هذه المرحلة باتقان استحق ان يسمى (مراهقاً) اي مقارباً لدرجة الاجتهاد ، وربما يدرس الطالب في هذه المرحلة علم الكلام والحكمة والفلسفة الالهية والتفسير والحديث ، واصول الحديث واصول الرواة

المرحلة الثالثة : مرحلة بحث (الخارج) ، وهي حضور مجالس دروس كبار العلماء المجتهدين في الفقه واصوله ، وهذه هي آخر مراحل الدراسة ومنها قد يوفق الطالب فيها الى بلوغ درجة الاجتهاد .

تتكون هذه المرحلة عادة في دورات يتولاها كبار المجتهدين ويبتدىء المدرس منهم بدورة بحوث أصولية او فقهية يلقيها بشكل محاضرات يومية ، فيشرح المسألة شرحاً وافياً بعرض الاقوال من مختلف المذاهب الاسلامية ، ومناقشة الآراء فيها وادلتها المختلفة ، ويختار ماينتهي اليه

رأيه مع الدليل ، ولكل مدرس طريقته الخاصة في اسلوب البحث ، وسعة المنهج ، والاسس العلمية التي يعتمدها .

وللطلاب في هذه الدورات كامل الحرية في المناقشة وابداء الرأى اثناء المحاضرة وبعدها ، وقد يكون كثير فى طلابها مراهقين للاجتهاد في انفسهم حتى قيل ان المجاهد الاكبر استاذ اساتذة هذا الجيل الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ ، كان يحضر درسه فريق من العلماء المجتهدين ، وعلى كل حال فان ميزة هذه الدورات عمق البحث ودقته ، وسعة افقه ، والحرية الكاملة في نقد الآراء ، ومناقشتها مها كان صاحبها .

ہ ہ ہ

تلك خطوط عريضة لمظاهر الحياة الثقافية في النجف الاشرف سرنا اليها مدفوعين بعامل الرغبة الى التزود بما يدعم المعلومات عن اكبر جامعة اسلامية في العالم ، تحمل مشعل النور ، وتصون تراث الشريعة وتنقل الى البشر ومضات من الاحاسيس المحمدية .

هذا من جهة . . . ومن جهة اخرى ، نحصل على انطباعات حية عن المناخ العلمي الذي ترعرت فيه ملكات الامام شرف الدين .

هناك . . في النجف الاشرف . . في موطن الهدى والعلم والثراء الروحي ، سلك الامام سبيل الانكباب على هذه الينابيع الثرة ، يستمد منها المعارف الأصلية ، ويسترقدها المضاء والقوة في دينه وعقيدته وخلقه .

ومن محاسن الصدف ان يسجل الامام شرف الدين بقلمه طرفاً من ذكرياته النجفية ، تناول فيها نقاطاً حساسة طالما تراود الواعين من حملة العلم لاسيما في مثل ظروفنا القائمة .

إصغه يتحدث . . .

يوم كنا في النجف الأشرف ، كان للعلوم الاسلامية وآدابها وفنونها سلطان مشيد الاركان ، رفيع البنيان ، وكان لها نفوذ بعيد الاثر في الحياة العامة ، يرجو بها الناس خير الدنيا والآخرة ، ومتوسلون باسبابها الى كل فوز وفلاح ـ فيلوذون الى ذراها ، ويعتصمون بعراها ، ويتولون اوليائها ، منصرفين اليهم عن سواهم ، غير آبهين في المهمات كلها بمن عداهم ، مسوقين الى طاعتهم بدافع من العقيدة ، وحافز من الثقة والاطمئنان فاذا خضعت الامم للدول السياسية ، ونجعت لاحكامها خشية البطش وحذر القوة فان الامة الاسلامية كانت يومئذ خاضعة لدولة العلم والدين ، نزولا على حكم الايمان ، اذ ان دولة العلم بالاحكام الالهية غير دولة الله تعالى بسلطانه تصدع باحكامه وتشرح قواعده التي عليها المدار في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

ومن هنا كانت الدولة العلمية يومئذ دولة تعنو لها الجباة ، وتملأ الصدور هيبة واجلالا . ومن هنا كانت عواصمها مثابة للناس وامناً يغفر اليها من كل فرقة طائفة ، ليفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم اذ رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ، يأتونها رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم .

ومن هنا كانت العلوم الدينية وما اليها من المقدسات والمبادىء غاية من اسمى الغايات ، يعتز بها الطالب في ذاته ، ويعتز بها اهله وسائر من اليه ، وفي ذلك من التشجيع ما يستدعليه الاقبال ، وتشد اليه الرحال .

ومن اجل هذا احتشدت الجامعات العلمية يومئذ ، وشحب معاهدها بأمم من الطلاب تختلف اشكالهم ولغاتهم والوانهم لكن مبادؤهم واغراضهم متحدة في التوفر على تلك الثقافة المالية التي رفعت دنيانا واخلصت نوايانا

فوجدنا على نورها سبل الحياة واضحة مأمونة المثار دهراً ليس بالقصير واى إرهاق في وحض عليه اعظم من هذه العناية ، تستأثر بمظاهر الثقة وتستقل بنواصي الرضا ، وتملك هوى الامة الاسلامية كلها فيتشوف الناس دائماً الى الحوزة العلمية ، ويشغلهم دائماً زعماؤها وطلابها ، وتسكرهم دائماً سلامة مضلها وآدابها ، فيتواصون بهم متنافسين في ولائهم ، والانقياد اليهم ، متحاضين على ذلك فبعض يبعث بعضاً ، وبعض يقتدي ببعض .

فكان لهذا اثره في تدافع الطلاب الى خوض عباب العلم والغوص على اسراره ، وكانت له نتاجه من استخراج مخبآت العلوم وتمحيص حقائقها .

وان من الحق ان نسجل الواقع في هذه المظاهر ، ونذيع السر في هذه الظواهر ، فانا إذا راينا اقبالا من طلبة العلم على استساغته ، ورأينا من الناس اقبالا عليهم بكل ما يمدهم في علومهم ، ورأينا ظاهراً من التساند بين هاتين الظاهرتين فانا نرى الى ذلك ، اكبر من هذا السر قد ابتنى عليه البحث العلمي ، وتم به الامر لهم ، الا وهو الذي كان يحدد كلا من اهل العلم وبيئاتهم المؤمنة متساندين في سبيل هذه العاقبة المباركة التي اخصب عليها العلم ثرى ، واصدر من خصبه وثرائه للدنيا الاسلامية من العلماء الاعلام ، ومن الاثار الخالدة ، والجهود المباركة ومن الافكار والابتكار ما لايدرك شأوه ، ولا تلحق آثاره .

ولعل هذا الانتاج الغزير يصلح شاهداً على الأخلاص فيما يطلبه ذوو العلم وفيما يرهقه فيه الوسط المؤمن ، فان هذه البركة في الانتاج لايصدر إلا عن الاخلاص وحسن النية .

ومما يدل على هذا ان وفرة في العلماء الاعلام كهذه الوفرة في طبقة

واحدة وفي مرفق واحد من مرافق الحياة تدعو الى التزاحم على الزعامة والتدافع والخصام في سبيلها ، إذ ليس من المعقول أن نظفر هذه الكثرة بمركز الزعامة في آن واحد ، بل لابد من انتخاب فرد من ذلك الجمع الغفير ليقوم بأعبائها ، فلولا الاخلاص لكانت ثمة معارك يستشرى فيها النزاع ، ويستكلب في معمعانها الصراع ، كما هو الشأن فيما نشاهده في ميادين الحياة الأخرى ، ولكن الوسط الروحي المهيمن على الأبصار والبصائر وعلى الألسنة والأيدى ،على القلوب والأفئدة ، كان يرتفع بذويه عن هذه المهاوى السحيقة ، وليس شيئ أدل من هذا على كون الانتخاب الطبيعي كان يختار الأقوى على المصلحة والأنهض بالعبء ، والادنى الى الكفاءة الجامعة لشروط الفضل والبر والتقوى وصدق النظر ، لأن الغرض المهم أن تسير السفينة ، وأن تحكم الدفة يدصناع ونظر صحيح ، قمين بمعرفة المصالح الاجتماعية على ضوء الحقائق الدينية .

فاذا اختار هذا الانتخاب العادل فرداً من ذلك المجموع الصالح كله للقيادة أذ عن الجميع راضين مجبورين لاتجد في نفس المختار إقبالا أورضاً بما صار إليه ، بل لعلك تجد في نفسه انقباضاً أول الأمر ، مؤثراً ان يتقدمه اخ من إخوانه يضطلع بالمسؤولية التي يخشاها،ويخشى تبعاتها ، ويشفق ان لايكون قوياً فى اداء بلاغ مركزها المرجو لحياة امة تلتمس جمال الحياة فى أنواء علمائها وصدورهم وآثارهم .

هذا شاهد لاأصدق منه على ان القوم مؤمنون حقاً بتغلغل الاخلاص في أعماق نفوسهم ، فيبلغ الى قرارتها ، فيتجافىء بهم عن الشره والاستكلاب ويتنائي عن الشك والارتياب ، ويعرج بهم الى سماوات الواقع والصدق والفضيلة، فيستشرفون من الزعامة مركز المصلحة . لامصلحة المركز ، ويستقبلون

قيادة الكرسي لاكرسي القيادة (١) .

وهذا هو السر الذى ادعيناه للنهضة العلمية وبنينا عليه تلك الوثبات الى الخير والصلاح ، ولاننكر ان روحية الوسط ساعدت هذا السر مساعدة كبرى ، وان مظاهر التشجيع والطاعة والأنقياد ، أسهمت فى كل ذلك بحظ غير يسير ، فكان من مجموع ذلك ماقلناه من إخصاب التربة ، وسداد الوثبة ونماء النفوس :

وانه ليؤسفنى أمض الأسف أن يتراءى لى ـ وانا ادون هذه الذكريات شبح كريه مجهول ، يقبض على تلك الأحلام الذهبية بكف مخيفة الأظفار خبيثة المخالب ، ثم يقف بها فى مهب الرياح ومختلف العواصف ، ليلقى بها في إعصار فيه نار تلتهم زهو أشكالها ، وتبتلع جهد أبطالها ، وتشوه رونق جمالها ، لانعطفه عليها أطيافها الزهر ، ولامجاليها الخضر ، ولاما في تراثها من كنوز تفتح للعقل والاجتماع وللمبادىء الصحيحة أبواباً مطلات على أصح صور الحياة ، ومهايع مفضيات الى أسمى المثل :

واحسرتاه وهل لنا على رد هذا الماكر قوة ؟ . . أم هل لنا يدان بارجاع من نسل في الصفوف العلمية ، فانسل منها متقهقراً خوفاً مما في هذا الشبح ، أو طمعاً بما في يده الاخرى من بهارج وتزاويق لاتروى ظمأ ولاتسد جوعة .

ويضاعف الأسف فى نفسى انى شاهدت تلك الدولة العتيدة في ابان عظمتها وريعان أيامها تتعالى فى بناء شامخ مشيد يطاول السماء علواً وارتفاعا ثم انى اشاهد هذا البناء الرفيع أطلالا مهجورة .

(١) هذه معالجة فريدة لشأن خطير من شؤون الفكر الامامى يتناهى اليها قلم الامام شرف الدين ليبسطها بوعيه ومنهجيته لاول مرة على النمط الذى تراه

لولا وميض من الماضى ، يكشف مااستطاع فى تكاثف الظلمات حوله ويجاهد بعزمه من الماضى القريب ، وانى خشية اندراس اخبار هذه الحياة الهنيئة رأيت ان المح الى شعاع من قبساتها الوضاءة ، فان الموجة الطاغية التى فرقت الناس من حولها ، ثم فرقت عنها روادها وطلابها ، لموجة يخشى منها ان تطمس ـ لاسمح الله ـ أخبارها كما أطفأت أنوارها ، وكان علينا تفصيل هذه الجمل لولاانه يخرجنا عن موضوعنا ، وعسى ان نوفق لذلك في كتاب نفرده لتلك الحياة السعيدة باجتماع القلوب ، وترادف الأفئدة واتحاد العزائم ، نفصل فيه القول حول تلك الايام ، بتفصيل القول في العلماء الاعلام ، وحسن بلائهم ، وعظيم عنائهم ، في تلك الحياة من جميع نواحيها ـ وانتشارهم في الأرض كأنهم الكواكب في السماء ، وقد طبقوها نوراً وهدى لقوم يؤمنون .

وانا لنتذكر ذلك والأسى يحز فى نفوسنا حزاً والحسرة تمض بنا فتقض المضجع ، وتقلق الوسادة ومايجدى البكاء طائلة فى أمرفات ، ولكننا نرجو من الله ان يعوض على الأمة بمن بقى من أعلامها ماقد خسرته ، ويعيد لها من تلك الحياة ذلك الانسجام المحبوك الذى أخرجنا الألم اه عما نحن بسبيله ،ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم) . (٢)

والمعول عليه ان اساتذة الامام شرف الدين الاعلام ، كانوا على ثقة من استعداده وطموحه ، فبذلوا غاية الجهد ، وأرهفوا أسنة العزم من أجل أن يوجهوا استعداده وقابليته الفطرية الوجهة النافعة المتطورة . وهذا ماحدث بالفعل .

---

(٢) مجله الالواح . العدد الحادى عشر السنة الاولى / ٢٣ ربيع الثانى ١٣٧٠ هـ / ٣١ كانون الثانى ١٩٥١ م :

يقول آية الله الامام آل ياسين في هذا الصدد (١) :

(. فلم يكد يخطو الخطوة الأولى في حياته العلمية حتى دلت عليه كفايته ، فعكف عليه طلابه ، وتلامذته ، وكانت له فى منتديات العلم فى سامراء والنجف الأشرف ، صوت يدوي ، وشخص يومأ اليه بالبنان).

وكتب العلامة السيد محمد صادق الصدر في هذا الباب مانصه (٢)

(وفي سنوات معدودة أصبح السيد يشار إليه بالبنان في الاجتهاد والدقة وقوة الحجة في المناظرة والمذاكرة ، واشتهر في تقرير الدروس الفقهية والأصولية ، من حيث العمق ، وحضور الذهن ، وسرعة الاستنباط ، وحل مشكلات المسائل بأقرب طريق موصل الى الهدف المقصود) .

وكان لرسوخ قواعد المودة بين الامام وبين أبطال الحوزة الدينية يومئذ اساتذته كالطباطبائى والخراسانى ، وفتح الله الأصفهانى ، والشيخ محمد طه نجف ، والشيخ حسن الكربلائى ، أبلغ الأثر في حياته العقلية .. حسر المعلم عن ساعده ، ووصل صباحه بمسائه ، وليله بنهاره ، لايسأم ولايفتر ، وكيف يسأم أويفتر ، وقد تغلغلت العقيدة في روحه ودمه فأرهفت طباعه ، وصقلت ذهنه ، وشرحت للعلم والعمل صدره ، فكانت أذنه واعية ، ومجامع قلبه صاغية ، يتلقى مايلقوه عليه من ضروب الحكمة وفنون العلم عقلية ونقلية بشوق ورغبة وطموح .

عكف هناك على دروسه مع من عكفوا عليها في رجال ، يخوض معهم عبابها ، ويغوص معهم على اسرارها ، لايستوطىء في ذلك راحة ، ولاتفوته فرصة ، شديد الامعان في التنقيب والتقصى طويل الاناة في

---

(١) راجع مقدمته الثمينة لكتاب المراجعات.

(٢) راجع مقدمته لكتاب النص والاجتهاد الطبعة الثالثة .

التدقيق واستبطان دخائل العلم ، واستجلاء غرامضه ، واستخراج مخبآته والاحاطة بفروعه واصوله .

وكانت أيامه تلك ايام مثابرة واجتهاد ، ماجف فيها لبده ، ولافاتته فيها نهزة ، وكان دأبه تعقب خطوات اساتذته الاعلام ، مقتبعاً أطوار الابطال من اركان تلك الحوزة ، مستقرئاً طرائق الماضين من أساطين الأمامية ، يتعرف بذلك مداخل العلماء فى التدقيق والتحقيق ومخارجهم ويتدبر أساليبهم فى النقض والابرام وأستنباط الاحكام ، ليطبع على أفضلهم غراراً وينهج مناهج أعدلهم اسلوباً ، وأمثلهم طريقة ، شأن من عناهم سبحانه بقوله (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب) .

وفي سامراء .. . يوم كانت الدنيا مستوسقة للامام المجدد حجة الاسلام السيد الشريف الميرزا محمد حسن الشيرازي ، وامورها متسقة ، والعلم والدين ضاربين بحراً بينهما (٣) نشهد من كثب أعمال هذا الامام الجليلة فى سبيل الدين والعلم والانسانية .

وغب ان أستقر في لبنان الجنوبى وفي مدينة (صور) بالذات ، انطلق يناضل فى كل الميادين السياسية والاجتماعية والفكرية بجرأة وبتصميم وبارادة فولاذية ، كان يؤكد ان لابد ان يكون الى جانب المسجد مدرسة وان يكون هناك مدرسة للنصف الثانى من المجتمع .

تأسس المسجد الجامع ، وكان قبل ذلك بقليل افتتح أعماله الانشائية بوقف حسينية أعدها لتجمع الناس اليها في مختلف الاوقات والظروف والدواعي

---

(٣) الصدر ، الامام اية الله السيد حسن : تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام ، مقدمة الامام شرف الدين .

يعظمون فيها الشعائر ، ويتلقون فيها دروس الوعظ والارشاد ، ويقيمون فيها الصلاة ·

وبالرغم مما كانت تثيره الجيوب الرجعية من أزمات بالنسبة لهذه الاتجاهات الاصلاحية ، ومساندة سلطات الاحتلال لهذه النزعات الضالة فان الامام لم يعر أية اهمية لكل تلك المعاكسات المنافية لمنطق التطور ، والمعادية لمصالح الناس ، وما ان أهل عام ١٣٥٧ هـ حتى بدأت المدرسة الجعفرية تستقبل أبناءها ، وتوفرلهم أسباب الخير والفلاح ، وبمرور الزمن استطاعت هذه المدرسة بتوجيهات الامام وسداد نظرته ، ان تحرز مكتسبات لابأس بها ، وأن تتحول الى الكلية الجعفرية (١) بعد ان ضمنت لها بناية فخمة تليق بمكانتها العلمية هناك ·

وبعد ذلك اسس سماحته نادياً سماه نادي الامام جعفر الصادق ، كان الغرض منه اعداده للاحتفالات والمواسم العلمية والدينية والاجتماعية والمدرسية ·

وفي سنة احدى وستين هجرية تأسست مدرسة الاناث ، وهى تتوخى ماتوخته مدرسة الذكور من التوفيق في التربية بين المناهج الصالحة الضامنة لحياة أمثل وأفضل

كان يؤكد الامام شرف الدين ان البلد المستعمر ، لاتروق فيه الحياة لابنائه الاحرار ، ولذلك قال كلمته الفاصلة فى هذا الشأن ، ان لامهادنة مع المستعمرين سواء كان هذا الاستعمار عثمانياً أو فرنسياً ام استقلالا مبطناً ، وكانت سلطات هذه العهود تقاوم مشاريع الامام مقاومة عنيفة ، وتناوئ مشاريعه مناوئة جائرة .

---

(١) تأسست هذه الكلية بمعونة من المهاجر اللبنانى اى الدنيا الجديدة

كان الاستعمار الفرنسي يومئذ فى ذروة جبروته . سلاحه التنكيل ، وشارته البطش ، ومن معاييره السلب والنهب ومطاردة الأحرار ، فما كان من الامام إلا ان يحدد موقفه تجاه هذه الاساليب الوحشية التى يرتكبها الاستعمار فى حق الوطن والمواطنين ، فقام يحث الناس على التكاتف وحشد القوى ، وتجميع الصفوف ، من أجل مقاومة المستعمرين ، ودحرهم ، وانقاذ البلد من براثنهم ، وكانت حلقات سرية تنتظم بأمر الامام . تدرس فيها جوانب المسألة ـ وتتهيأ لغرض اسناد المقاومة الوطنية ودفعها الى ساحة أوسع .

وبما ان الطبقة الروحانية كانت فى تلك الايام ـ بصورة خاصة ـ هى المهيمنة ، وهى القائدة للرأي العام ، فقد رأى سماحته أن يشرك رجال الدين الآخرين بوصفهم كما قلنا أصحاب الرأي فى مهام التخطيط والتوعية ، وحين وجد منهم تجاوباً وتفهماً ، وقدرة على تحمل متاعب النضال ، ودعاهم الى عقد مؤتمر للتشاور ، وبالفعل عقد مؤتمر عام فى وادى (الحجير) حضره علماء البلاد وزعماؤها ، وقد أفتى السيد خلال انعقاده بالجهاد ضد المستعمرين ، فأيد الجميع فتواه ، ثم عادوا الى ديارهم يحكمون الخطط ضد الفرنسيين على قدر ماتسمح لهم الظروف :

وكانت داره في صور ، تلك الايام ، مركز التجمع السياسي . فيها تكتب المضابط التى تطالب بالاستقلال الناجز ، واليها أيضاً ينقلب الناس للتوقيع على تلك المقررات والمطاليب .

وعند ماعلمت السلطات الفرنسية بمساعى الامام ودوره في الحركة الوطنية أوحت الى احد عملائها من مسيحي صور كان يدعى ابن الحلاج بلزوم اغتيال السيد القائد ، ليتسنى لها ضرب الحركة في القلب ، وتفتيت

التجمع الوطني القائم يومذاك ، وفصم عرى الوحدة الوطنية :

ولاننس لماذا اختير ابن الحلاج بالذات ! ! : .

وفى ضحى يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٣٧ هـ الموافق ١٤ كانون سنة ١٩١٩ م اقتحم ابن الحلاج الدار عليه غرة ، ومعه رجلان من الجند الفرنسي ، وكانوا جميعاً مسلمين ، ولم يكن فى البيت ساعتها احد من أعوانه ورجاله .

روى الامام فصلا من هذا المشهد فيقول .

(فاقتحموا الباب ثم أحكموا أرتاجها ، ودنا الفتى العربى ابن الحلاج شاهراً مسدسه وهو يطلب ان أعطيه التفويض الذى كنا اخذناه من وجوه البلاد ، وثائق تخول الملك فيصل ان يتكلم باسمها في عصبة الأمم ، وحين أصبح على خطوة مني ركلته في صدره ركلة ألقته على ظهره فسقط المسدس من يده ، واتبعت الركلة بضربات عنيفة بالحذاء على وجهه ورأسه ، وعلت صيحة نسائنا فى الدار فملئت الطريق خلف الباب ، فاذا الرهبة تتولى هزيمة الجنديين وصاحبهما مخفقين . وقد كادت الأيدى والأرجل ان تقضي عليهم .) :

ومن الطريف ان الامام سلم بحركة خاطفة الوثائق الوطنية التى تتناول جوانب الحركة والرؤوس القائمين بها بالتفصيل الى السيدة الجليلة والدته - رحمها الله - ، وبذلك أنقذ الموقف برمته في مضاعفات كانت محتملة .

وحين وصل خبرهذه الاجراءات الاستعمارية التعسفية الى الناس الطيبين وشاع فى أوساطهم ان جلوازاً اراد سوءاً بالامام القائد هبوا عن بكرة أبيهم يعلنون سخطهم واستنكارهم لهذه الفعلة الشنيعة حتى غصت بهم رحاب صور وفجاجها .

وبحكمة القادة الموضوعيين ، وعلى ضوء تصرف رائد ، أقنع الامام تلك الجموع المتدافعة ، أن تلجأ الى وسيلة أقوى من التظاهرات والصخب لتحقيق الاماني الوطنية ، وأمرها ان تمر بهذا الحادث مروراً لا يعطي الاجنبي الدخيل وسيلة جديدة لتعقيد الموقف وارباكه : . أعلن ذلك بعد ان شكرهم ، وأثنى عليهم وعلى وطنيتهم ، وروحهم البطولية الكريمة .

والظاهر انه السلطات الفرنسية ادركت ان زمام الامور لابد وان سيفلت من يدها ، لاسيما بعد موقف الجماهير الأخير من حادثة ابن الحلاج فكان ان دبرت هجوماً مباغتاً على الامام ، جندت له قوة كبيرة من جنودها وكان سماحته قد غادر صور الى بلدة (شحور) فهجموا على داريه ، الواحدة بعد الاخرى ، فأحرقوا داره في شحور ، وقبل ذلك احتلوا داره في صور ونهبوا مافيها ، وفيها مكتبته النادرة ، الحاوية لانفس المخطوطات وأجود المؤلفات ، لاسيما مؤلفاته الخطية ، وكان هذا العمل في الواقع اوجع ما في النكبة :

وفيما يلي نسرد أسماء المؤلفات التي مزقها عدوان سنة العشرين ، وهي من الذخائر المعدودة في كنوز العقل والفكر :

١ - شرح التبصرة في الفقه على سبيل الاستدلال ، خرج منه ثلاثة مجلدات تتضمن كتب الطهارة والقضاء والشهادات والمواريث .

٢ - تعليقة على الاستصحاب من رسائل الشيخ في الأصول في مجلد واحد .

٣ - رسالة في منجزات المريض استدلالية .

٤ - سبيل المؤمنين في الامامة ، يقع في ثلاثة مجلدات .

٥ - النصوص الجلية في الامامة ايضاً فيه اربعون نصاً أجمع على

صححتها المسلمون كافة ، واربعون من طرق الشيعة مجاوة بالتحليل والفلسفة .

٦ - تنزيل الآيات الباهرة في الامامة ايضاً ، وهو مجلد واحد يبتنى على مائة آية من الكتاب نزلت في الأئمة بحكم الصحاح .

٧ - تحفة المحدثين فيما أخرج عن الستة من المضعفين ، وهو كتاب بكر في الحديث لم يكتب مثله من قبل .

٨ - تحفة الأصحاب في حكم أهل الكتاب .

٩ - الذريعة فى الرد على بديعة النبهانى .

١٠ - المجالس الفاخرة أربعة مجلدات ، الاول في السيرة النبوية ، والثاني فى سيرة امير المؤمنين والزهراء والحسن ، والثالث فى الحسين ، والرابع في الأئمة التسعة عليهم السلام .

١١ - مؤلفو الشيعة فى صدر الاسلام ، نشر بعض فصوله في مجلة العرفان بصيدا (راجع العرفان في مجلداته الاول والثاني) .

١٢ - بغية الفائز في نقل الجنائز ، نشر اكثرها في العرفان .

١٣ - بغية السائل عن لثم الأيدي والانامل ، رسالة علمية أدبية ، فكاهية .

١٤ - زكاة الاخلاق نشرت العرفان بعض فصوله .

١٥ - الفوائد والفرائد .

١٦ تعليقة على صحيح البخارى .

١٧ - تعليقة على صحيح مسلم .

١٨ - الاساليب البديعة في رجحان مآتم الشيعة ، يبتنى على الأدلة العقلية والنقلية ، وهو في بابه بكر جديد .

: : :

ثم تلا احراق مسكنه في شحور ، ومداهمة بيته في صور ، أحداث وأحداث ، إتسع فيها الخرق ، وانفجرت فيها شقة الخلاف ، فاضطر الى مغادرة بلده والتوجه خفية الى دمشق (١) التى كانت ترزح ايضاً تحت نير الاستعمار الفرنسى ، لولا وجود الملك فيصل الأول على رأس حكومة دمشق :

ولقد احتفى الملك فيصل بالامام شرف الدين احتفاءاً يليق بمكانته فأوسع له مكانة أثيرة ، ويسر له جانب الطمأنينة في هذا البلد ، فما كان من الامام إلا ان ارسل يستدعى أهله وعياله ، ولمة ممن كانوا مطاردين من سلطات الجنوب اللبناني ، وأصبح منزله في دمشق ملتقى احرار الأمة العربية ، ومنقلب العاملين في الحقول العامة .

ومما أزاد في تعريف الامام لدى الرأى العام السوري ، ووطد مركزه كزعيم من زعماء الفكر وقادة الرأي ، تصديه للخطابة في اكثر من مناسبة ، وارتقائه المنبر يدعو بالرأي السديد ، والعلم الجم ، أمته الاسلامية الى التيقظ والتوثب والتحفز من أجل بناء جيل راسخ قوي يحقق للامة العربية آمالها في اعادة امجادها المندثرة ، واحياء تراثها الخالد :

وكان لابد ان تتمخض الحالة السياسية القائمة يومئذ في دمشق عن

---

(١) كان الامام حين دخول الجيش الفرنسى الى شحور موجوداً فيها ولكنه نهض مسرعاً وقد وضع عباءته على عمته واتجه الى مغارة قرب النهر ، يقال ان هذه المغارة سبق ان آوت احد اجداد المترجم له بعد فراره من ظلم الطاغية المعروف الجزار ، وبقي الامام مختبئاً فيها الى ان جن الظلام ، وعندها عاد الى شحور فبات ليلته تلك هناك ثم توجه متنكراً الى عاصمة الشام :

ظروف غير طبيعية ، لاسيما بعد ان شهدت هذه الحاضرة مداولات سياسية ، واجتماعات وطنية ، وحفلات يغلب عليها الطابع الثوري ، تبعت ذلك اتصالات بطبقات مختلفة من الحكومة والشعب ، فكان اصطدام العرب بجيش الاحتلال ، حيث التقى الجمعان فى (ميسلون) ، واشتبكا في حرب لم يطل أمدها ، ودارت الدائرة على العرب لاسباب نعرض عنها :

فاضطر الامام تحت وطأة هذه الظروف المستجدة الى مغادرة دمشق الى فلسطين ومنها الى مصر بنفر من أهله ، بعدان وزع اسرته فى فلسطين بين الشام ، وبين انحاء من جبل عامل ، فى مأساة تضيف أدلة الى الأدلة على لؤم الاستعمار وفظاظته .

وينقل الينا قلم سيدنا آية الله الامام الشيخ مرتضى آل ياسين ، وهو الصادق الأمين ، طرفاً من جهاد الامام شرف الدين ، وماذاقته اسرته في حينه من آلام النفي والمطاردة :

يقول أطال الله بقاه :

(فقد ظل ثقل من أهله الذين ذهبوا الى (عاملة) ، يجوبون الفلوات والوديان ليالي وأياما ، لايجدون بلغة من العيش يحشون بها معد صغارهم الفارغة ، على انهم يبذلون من المال أضعاف القيمة ، ويبسطون أكفهم بسخاء نادر ، وأخيراً لم يجدوا حلا بغير توزيع قافلتهم في الأطراف المتباعدة ، بين من بقي من اوليائهم ، وأصدقائهم على شيء من الوفاء أو الشجاعة . .)

وحين وصل مصر احتفلت به ، وعرفته بالرغم من تنكره وراء كوفية وعقال فى طراز من الهندام على نسق المألوف من الملابس الصحراوية

اليوم ، وكانت له مواقف في مصر وجهت اليه نظر الخاصة من شيوخ العلم ، وأقطاب الأدب ، ورجال السياسة على نحو ماتقتضيه شخصيته الكريمة .

ويروى (١) انه قصد احدى الاحتفالات هناك ، كانت حاشدة بالناس ، فارتقى المنبر وهو لايزال بزيه العربى فأنشد :

ان لم أقف حيث جيش الموت يزدحم

فلامشت بى في طرق العلى قدم

فعلا التصفيق ، وقد أحس الامام انهم قد ظنوا انه هو القائل فاستدرك وقال ، رحم الله شاعرنا أهل البيت السيد حيدر الحلى حيث يقول :

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم

فلامشت بي فى طرق العلى قدم

وعندئذ دوت القاعة بالتصفيق ، وكثر الاستحسان في كل مكان ، ثم شرع يخطب بصوته الجهورى ، وأدبه النبوى ونطقه العلوي ، فأبن الجموع المحتشدة ، بعذوبة بيانه ، وفصاحة لسانه ، وساطع برهانه ، وانقياد المعانى الدقيقة إليه ، يتصرف بها وبالألفاظ كما شاء ، ويوجهها كيفما أراد .

ويقال ان الكاتبة المعروفة (مي زيادة) كانت ممن حضر هذا الاجتماع ولمحت ان الامام كان يكثر من مداعبة خاتمه ، يديره فى أنملته باستمرار فقالت معقبة على ذلك . (لا أدرى هل الخاتم أطوع الى بنانه ، أم

---

(١) راجع المقدمة الفياضة للعلامة السيد محمد صادق لكتاب النص والاجتهاد الطبعة الثالثة :

البيان أطوع الى لسانه) .

والحقيقة لم يكن هذا هو اول عهده بمصر . فقد عرفته الكنانة قبل ذلك بثمان سنين ، حين زارها فى اواخر اسنة تسع وعشرين ، ودخلت عليه فيها سنة ثلاثين وثلثمائة والف هجرية ، فى رحلة علمية جمعته بأهل البحث ، وجمعت به قادة الرأي من علماء مصر .

يروى الامام شرف الدين قصة هذه الرحلة ، واجتماعاته المثيرة بالامام البشرى فيقول .

كانت مصر ومازال منارة من منارات العلم في الشرق العربى والدنيا الاسلامية ، يؤمها رواد المعرفة ، ومنتجعوا الثقافة فى مختلف الاقطار ، وقد كانت تكافىء النجف الاشرف بازهرها الشريف ، وتجاربه فى خدماته الثقافية الاسلامية وحراسته للعلوم العربية ، وقد أم الازهر - فيما أعلم - كثير من اعلامنا ، توسعاً في العرفان والاحاطة ، وتزيداً من المعلومات والاطلاع ، وكنت أحب - فيما أحب - ان ازور مصر ، وأقف على أعلامها لآخذ العلم عنهم ، ولأبلو مابلغنى عن الجامع الازهر ذلك المعهد الجليل .

وظلت هذه الأمنية كامنة فى نفسى حتى حفزها خالى المرحوم السيد محمد حسين فى اواخر سنة ١٣٢٩ هـ حين زارنا فى عاملة ، فوجدتنى واياه - كما ذكرنا في ترجمته - نمخر عباب البحر فى باخرة القت مراسيها فى بور سعيد ثم حملنا القطار فيها الى القاهرة .

وكان لهذه الزيارة اثر محمود فى نفسي وفى حياتي ، ذلك انى توخيت أن أتغلغل فى الحياة العلمية ، واستبطن دخائل المجتمعات الأدبية بالتحدث الى العلماء ، والسماع منهم ، وتبادل الزيارات بينى وبينهم ،

وبالمناظرة فى أهم المسائل العلمية التى كانت مدار البحث ومحك الفضيلة

وقد بدأت هذه الجولة بالحضور في دورة شيخ الأزهر يومئذ الشيخ سليم البشري المالكى ـ رحمة الله ـ وكان يشرف على تلاميذه من منبره وهو منطلق في درسه انطلاقا يلحظ فيه توفره وضلاعته فيما هو فيه ، وكان يلقى درساً في مسند الامام الشافعى ، فكان يعرض أول مايعرض للسند ، فيترجم رجال سلسلته باختصار ، فاذا انتهى الى الحديث نفسه فصل الكلام حوله بافاضة ، فوقف الى لغته وقفة ادبية ، ثم خطا الى مورده ومفاده ، فان كان في سبيل حكم من الاحكام ذكر ذلك ولايفوته ذكر الاصول العملية والقواعد العلمية عند الاقتضاء ، كما لم يكن يفوته التعرض لاقوال الأئمة فى المسائل الخلافية ، ولاتفوته مدارك الخلاف فاذا كان الحديث معارضاً جمع بينهما فيما يمكن فيه ذلك ، أورجح أحدهما صادعاً بوجه الترجيح :

حضرت درسه لاول مرة وهو يسترسل فيه على هذا النحو ، وعرض لى أثناء الدرس مايوجب المناقشة فناقشته ، ثم علمت بعد ئذ ان المناقشة وقت المحاضرة ليست من الدراسة الازهرية ، فكنت بعدما افضى اليه بعد الدرس بما عندى في المسائل الجديرة بالبحث والمذاكرة

وقد كانت مناقشتى الأولى ـ في كل حال ـ سبباً في اتصال المودة بيني وبينه ، وسبيلا الى الاحترام المتبادل ، ثم طالت الاجتماعات بينا وتشاجنت الاحاديث ، وتشعب البحث بما سجلناه في كتابتها ـ المراجعات ـ واولم يكن من آثار هذه الزيارة إلا هذا الكتاب لكانت جديرة بأن تكون خالدة الأثر في حياتى على الأقل ، ولعل الكتاب يصور بعض الاجواء العلمية التى تفيأناها يومئذ منطلقين في آفاقها منطاقين من القيود

الكثيرة التى كانت توثق الافكار آنذاك برجعيات يضيق صدرها حتى بالمناقشة البريئة ، والتفكير الصحيح :

ومهما يكن من أمر فقد نعمنا بمصر في خدمة هذا الشيخ واتصلنا بغيره من اعلام مصر المبرزين ، إذ زارونا وزرناهم ، أخص منهم العلامتين الشيخ محمد السملوطي ، والشيخ محمد بخيت ، وقد نجمت فى هذه الاجتماعات الكريمة فوائد جمة أقلها الاتصال الفكرى بين مدرستى النجف والأزهر ، والتعارف بين خريجى هذه وخريجي تلك على مدى مافي كل منهما من أسباب التفكير ، وطرق الدراسة ، ووفرة المحصول ودع عنك مالهذا الاتصال من النتائج الحسنة التى تعود على الوحدة الاسلامية بأعم الفوائد وأجداها :

• • •

ولكن زيارتى كانت زيارة فردية ، ثم هى متقطعة الأول والآخر وكذلك زيارات من زار مصر غيرى ؛ لذلك كانت فوائدها وقتية ، ولو ان الزيارات تستمر متبادلة بين البلدين ، لكان لها أحسن الاثر في رفع كثير من غشاوات البعد ، ولاتصلت إذن حلقات الأمة متفاهمة متحابة ، تشاقى كرؤس الصفاء والولاد ٠

ولعل الداعى الاجتماعى الجديد يقرب خطوات هذه الاجتماعات بشكل من الاشكال الرسمية ، لتدنوبها من الواقع الحبيب ؛

وعلى كل غادرت مصر وانا أحن اليها ، وأتزيد من اللبث فيها ، ولم اغادرها قبل ان يتحفنى أعلامها الثلاثة ـ البشرى وبخيت والسملوطى ـ باجازات مفصلة عامة عن مشائخهم أجمع بطرقهم كلها ، المتصلة بجميع ارباب الكتب والمصنفات من أهل المذاهب الاربعة وغيرهم في جميع

العلوم عقلية ونقلية ، ولاسيما الصحاح الستة وموطأ مالك ومسند أحمد ومستدرك الحاكم وسائر المسانيد وكتب التفسير والكلام والفقه وبقية العلوم الاسلامية مطلقاً .

وممن نعمنا بخدمته في مصر ، وتبادلنا معه الزيارات ، وكانت بيننا وبينه محاضرات ومناظرات فى مسائل فقهية واصولية وكلامية ، دلت على غزارة فضله ، ورسوخ قدمه في العلم والفضيلة شيخنا الشيخ محمد عبد الحى بن الشيخ عبد الكريم الكتانى الادريسى الفاسى ، وقد أجازني ايضاً اجازة عامة وسمعت طرقي في الرواية والحديث ؛

واطردت المراسلة بعد العود الى البلاد بيني وبين شيخنا البشرى زمناً ، ثم طغت علينا الشواغل وكوارث الحرب العامة الاولى ؛

وكان رجوعنا من مصرفي جمادي الاولى سنة ١٣٣٠ هـ ٠

وقد حملنى الى مصر على زيارتها مرة اخرى عرضنا لها فيما تحدثنا به عن نهضتها سنه ١٣٣٨ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٠ م

وفي اواخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة والف هجرية ، ترجح لدى الامام ان يكون قريباً من بلده ، فغادر مصر الى فلسطين ، واتخذ من قرية (علما) التى تقع على حدود جبل عامل مقراً له ، وفى هذه القرية هوى اليه عشيرته وأهله ، ولحق به اولياؤه المشردون في هذا الجهاد الدينى الوطنى ؛

وبقى الامام فى (علما) عدة شهور يتابع أبناء بلده عن كثب ، ويرعى شؤون أبنائه بمنتهى اليقظة والحذر ، وكانت هناك مفاوضات على مستوى عال ، وفى دمشق بالذات ، حيث مقر الجنرال (غورو) تناولت مصير المجاهدين المنفيين ، وقضايا جبل عامل .

ولقد تكللت هذه المفاوضات بالنجاح ، حيث صدر عفو عن الوطنيين ، وعلى رأسهم الامام ، ووعد من السلطة بانصاف جبل عامل وانهاضه ، وإعطائه حقوقه كاملة . .

وبعد فترة وجيزة . . عاد الامام الى عاملة . .

والذين ارخوا هذه الفترة ، أفاضوا في الحديث عن مظاهر التحمس العام بعودة السيد الى مستقره لاسيما فيما تفتحت عنه قرائح الشعراء وسلائق الادباء من رائق الشعر وأجود النثر يقول الاستاذ الاديب محمد على الحوماني رحمه الله (١) في رسالة يخاطب بها الامام شرف الدين يصف فيها عواطف الجبل يوم العودة (٢) : منها

(اتذكر ايضاً يوم عدت من مهجرك في سبيل الجهاد وهبطت ارض صور وانكفأ الجبل بأسره عليك مرحباً بقدومك ، الى ان قال بعد عرض لمدح الشعراء واغراقه معهم في الثناء ، . لقد شهدت هذا بنفسى ولم احرم فيه من عطفك واحسانك ، وشهدت ايضاً بعده بأيام يوم أعلنت صعودك الى قريتك شحور ، فتنادى أفراد الشعب وتنافروا ، وهاج بعضهم بعضاً للصعود بركابك من الساحل والهبوط لاستقبالك من الجبل وكان يوم عروجك مشهودا وكانت الخيالة تحفك محيطة بك احاطة حمير فى تبع ، ثم صعدت والخيل بركابك تمتد أميالا حتى اذا وطأت سنابك الخيل ارض شحور وقد ملات الوفود ضواحي البلدة وغصت

---

(١) راجع ص ٢٧ من العدد عشرين من السنة الاولى من مجلة العروبة اللبنانية .

(٢) كانت عودة سماحته يوم الجمعة ١٨ شوال سنه ١٣٣٩ ﻫ ، وكانت مدة تشريده ثلاثة عشر شهراً و ثمانية عشر يوما .

الحقول بالمستقبلين حتى لم يبق شجرة تتدلى فروعها على غير محييك وزائريك ، ولبثت بعد ذلك تتلقى الوفود اثر الوفود وفيهم العلماء والادباء والشعراء وفيها أيضاً . :

وأما الموائد التي أدبتها والسمط التي مددتها ، وأما الجفان التي كانت تختلف الى قاعات الطعام ، واما الضحايا التي كانت تملأها من الضأن والماعز ، اما ذلك كله فقد كنت فيه سيد العرب ، أعدت لنابه عهد حاتم طيء الى آخر كلامه .

• • •

والملاحظ في الاحوال العامة لمنطقة جبل عامل ، انها مهملة الى حد التفريط ، ونصيبها من التقدم بمختلف مضامينه ، يكاد ان يكون معدوماً .وسبب ذلك كما يبدو لي ، تناطح زعماء المنطقة فيما بينهم ، وانصرافهم الى كسب ود السلطة في بيروت من أجل المراكز النيابية وبعض الوظائف الرسمية الكبيرة التي تحتم السياسة الطائفية هناك اشغالها من قبل مسلم شيعي .

ويبدو ايضاً ان الامام شرف الدين قد تعب - فى حينه - من موضوع ايجاد جو صالح لقيام نوع من التعاون بين أطراف البيوتات ذات النفوذ في المنطقة ، لسيطرة كما قلت الذهنية المصلحية عليهم او على بعضهم إن شئنا الدقة .

ولهذا ضاعت مصالح المنطقة العامة في خضم هذا التناطح القبلي المذموم ، وهذا بالطبع مما استفادت منه جهات اخرى على حساب المنطقة العاملية .

ومن كتب له ان يزور البلاد العاملية ضمن جولة فى القطر اللبناني

الشقيق ، سيجد هذه الحقيقة الصارخة ، واضحة ومعروفة ٥

تقدم ومد حضاري ورآفاه من جهة ، وفي الجهة الاخرى . تأخر وموجة ركود وفقر .

ليس بين يدي مع الأسف مايؤيد ان الامام شرف الدين قد تابع نضاله السياسي من أجل دفع الحكم الوطني في لبنان الى انصاف المنطقة الجنوبية منه .

وأسباب ذلك من السهل اثباتها في النقاط التالية :

١ - ان أصحاب النفوذ في جبل عامل لم يكونوا موضوعيين في العمل السياسي ، ولهذا كانوا لايتورعون عن اتباع المبدأ الميكافيلي لتحقيق مطامحهم ، وهذا ما كان يضادد مبادىء الامام ويماكسها على طول الخط .

٢ - انصراف الامام الى البحث العلمي والخدمة الثقافية ، وقد أخذ منه هذا الاتجاه مأخذا كبيراً ، واستحوذ على اوقاته استحواذاً .

٣ - اعتماده الرئيسي على مركزه خارج القطر اللبناني من أجل تحقيق اهدافه الاصلاحية في بلده ، فالكلية الجعفرية مثلا لم يرتفع صرحها إلا ببذل من المغترب اللبناني الواعي ٥

وقد يلوح مما تقدم ان السيد الامام اعتزل الحياة العامة ، وانكب على التأليف والنشر او الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، دون ان يكون له رأي في المشاكل التي تعترض الوجود الاسلامي او العربي على حد سواء والتي تنبعث من ظرف سياسي معين .

العكس هو الصحيح تماماً . .

كان اخلاصه ونضاله يحتمان عليه في معظم الاوقات أن يضع

رأيه ونشاطه ومركزه الى جانب القضايا العادلة سواء كانت ذات طابع إقليمي ام ذات طابع أوسع :

خذوا قضية فلسطين ، وهي أعمق جرح فى وجود الأمة العربية ، بل فى وجود العالم الاسلامى ، كان دور الامام فى طرح المشكلة فكرياً وقومياً وانسانياً في بلده وخارجه بارزاً ومؤثرا .

وكان دائماً يعلن فى محاضراته وخطبه ومراسلاته خطر الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ويعتبرها مقدمة لعمل اجرامى خطير ، تحاول الصهيونية عن طريقه وبمعاونة الاستعمار ومخططاته في هذه المنطقة العربية الحساسة اقامة دولة اسرائيل في قلب العروبة وفي اخطر خط استراتيجى

وقد عثرت على كتاب له يشرح فيه موقفاً من مواقف عام ١٩٣٨م بخصوص هذه المسألة الحساسة :

يقول سماحته (١) :

(. . علمتم بوصول اللجنة الفنية الانكليزية الى القدس الشريف لتقضى على معنويات الاسلام والعرب باقتسام فلسطين ، ووضع الحدود فيها بين المملكتين ، المملكة الصهيونية ، والمستعمرة الانكليزية العربية باعطاء الاولى روضات فلسطين وجناتها ومروجها ، ومدنها الساحلية ، واختصاص الثانية برؤوس الجبال ، وكل أرض حزنة ، لاكلاء فيها ولاماء ، وهذا ماأقام العرب وأقعدهم ، واثار حفيظتنا ، فأضربنا عن كل عمل احتجاجاً على استخفاف هذه اللجنة بأمر الاسلام والعرب ، وتمليك اليهود قبلتنا الأولى ، وحرمنا الثاني ، ومهوى براق نبينا ليلة الاسراء ومحل عروجه (صلى الله عليه وآله وسلم) الى السماء ، ومعاهد النبيين ، ومشاهد

---

(١) رسالة موجهة الى سماحة العلامة السيد محمد صادق الصدر

المرسلين ، وأرضنا المقدسة التي بارك الله حولها ، وقد أصبحت صور يوم الخميس ٢٨ نيسان سنة ١٩٣٨ ، مع قرى جبل عامل كلها ، مضربة كل الأضراب عن كل عمل من الاعمال ، احتجاجاً على تقسيم فلسطين ، ومايجرى فيها من الفضائع والفجائع تقتيلا وتنكيلا ، وحبساً وتشريدا ، وكان في صور مظاهرات دالة على عقل وحكمة وحماس وشدة بأس ، وقد اجتمعت الجماهير علينا فخرجت معهم بين الهتاف الى الجامع ، فألقيت عليهم خطاباعلى ماتقتضيه الحال ، فأبكى العيون ، وتصعدت به الزفرات والحسرات ، وعلت به الاصوات بالهتاف والحماس ، ثم أبرقت باسم جبل عامل لكل من المفوض السامى فى القدس ، واللجنة التنفيذية الانكليزية بمايلى :

(العرب يثورون بتقسيم فلسطين . جبل عامل يستميت ، البلاد مضربة احتجاجاً ، أرواحنافداءأرضنا المقدسة) انتهى وقد استمر جهاده من أجل فلسطين الى آخر لحظة من لحظات حياته الشريفة ، يشحذ الهمم ، ويثير في النفوس النخوة ، ويدعو الى الجهاد بالمال والنفس والولد ، ويكشف للرأى العام اسرار القضية ومن هم وراءها .

• • •

هذه نهلات زقها القلم ، توخيت منها أن تحملك على جناحيها الى حيث تتنسم معى عطر أجواء روحانية صافية ، حبت بنفائسها مولوداً صورياً : . اكرمته بأبوين لهما فى عالم اليقين قدم راسخة . . . ! واختارت له أيدياً مؤمنة ، تصقل معدنه النقى ، وساقته الى ينبوع دافق يتفجر اخلاصاً ومعرفة وصدقا ، الى تلك الجامعة التي تضىء أبهاءها وار الأمامة ، وتثبت شأنها مصابيح الهداية ، ثم أعطته رجاحة الفكر

وطيب السليقة . . وتوقد الذهن . . وبعد النظر . . وصفاء الجوهر فصاغت له ذلك القلم الذي تتضوع منه الثقافة العالية ، وتنتشي بمعطياته العقيدة السمحة ، وترتفع بتجرده قيمة الفكر المتحسس الخلاق .

ثم كانت نهاية المطاف . . أن يختار له ميدان الجهاد . . ساحة المعركة . . حلبة الصراع . : الجهاد في سبيل الدين . . والمعركة مع الجهل والتأخر وعبودية الانسان . : والصراع مع عنعنات العصبية ، وشحناء الحقد الموروث ، ومخلفات الأحوبة فى صدور بعض المتزمتين

وكأنها مسألة قدر لامحيص عنه ، دفعته مصلحة الاسلام الى المعمعة وكان ابن بجدتها . . فارسها المغوار ، والقائد الذي يصل الميدان وفي ذهنه أبعاد المعركة . . وفى خاطره وعى كامل لمعركة اخرى اذا ماعاكسته الريح .

وفي عاملة نسق لنا أفكارها العقيدية ، وهذا هو الدافع الأول لقيام هذه الدراسة ، واخضاع حياته العامة الى شيئى من التحقيق والتدقيق .

هذه النهلات على اختصارها ، ربما تؤدى مهمتها فى تكوين جانب من هذه الرسالة ، وفي نقل مضامينها الى المدى الذي ينفع الناس : يجذبهم الى بر عقيدتنا الاسلامية ومقوماتها العقلية . يبذر فى قلوبهم بذور الاخلاص للمبدأ ، لتنمو خصائص المروءة فى أعماقهم ،وتورق دوحة الكرامة فى أحاسيسهم بعد هذا .

هناك قضية تقلجلج في صدري . .

نخل الامام شرف الدين تاريخنا الاسلامى نخلا عجيبا ، عرف غثه من سمينه ، وميز بين صادقه وكاذبه ، ومن المؤكد انه عثر في تراثنا . . في بعض المدونات المنسوبة الينا شيئاً يشبه السخف إن لم

يكن السخف نفسه .

هذه الناحية المهمة . . خلت منها مؤلفاته .

لاشك ان اموراً كثيرة علقت بتراثنا خلال مسيرته الشاقة ، سواء كان ذلك في عهود الارهاب والابادة ، ام في العهود التى خيم عليها الجهل والظلام ، وان كثيراً من الشعائر الاجتماعية البعيدة عن روح الدين ومنطلقاته أخذها الناس وكأنها من مسلمات الشريعة .

روى لى العلامة السيد اسماعيل الصدر . ان من دأب الامام شرف الدين اذا حضر مأتماً حسينياً ، وروى الخطيب رواية يعوزها السند العقلى الذى يتوافق بالبديهة مع منطق الأمور ، فسرعان مايأمر بانزال الخطيب من على المنبر ، وتقريعه بعنف امام الملا .

هذه الحساسية المتنورة ، افتقدناها في انتاجه .

انناوفي الواقع لسنا ملائكة ، . واذا كنا راغبين صدقاً في معالجة مشاكل الاسلام ككل ، يجب علينا الانتباه الى داخل بيوتنا أولا ،

نحن نترك بعض خطباء المنبر ، يلديعون على الناس ، هراء ، تأباه بشكل حاسم عقيدتنا الواعية ، ونترك جماهيرنا ، والناس الطيبين ، ذوى العقيدة . تتبدد طاقاتهم في انفعالات ، وضعها ورتشها في يوم من الايام أفراد بسطاء سذج .

نترك كل ذلك ، ونستعيض عنه بالصريخ . بأعلى اصواتنا ، نحن خير النحل : نحن على الصراط ، وغيرنا في النار . .

نعم كان قادتنا على الصراط . . أئمتنا . . أفذاذ مجتهدينا . . ومازال منهم اليوم من بيده الشعلة الوهاجة . . المبدأ الصارم المستقيم الصيحة الاسلامية الاولى : نداء الامامة الخالد .

اما من سواهم . . من يرى ان القائد يجب ان يتبع الجندي ، والمجتهد ان يرعى هوى المقله ، فجميعهم على قارعة الطريق ، لافرق بينهم ابداً وبين ابى هريرة او كرد على او فلان او فلان .

كنت اريد ان يفرد الامام بحثاً أو فصلا في أحد كتبه لمعالجة هذه الناحية ، بعلمه وقلمه ، وقوة مراسه : . وجرأته .

الروايات الصفراء فى بعض ماحمل الينا من مخلفات اذ هان كارتونية ، كثيرة : كان من الأفضل أن يهيىءلها الامام رمساً تختنق فيه .

الاعمال البلهاء التى يقترفها نفر من الناس على اساس انها جزء من تفكير الامامية ومقوماتها ، كان من الانسب ان يدخل الامام معها في معركة طاحنة . . تنفى عنا هذه الاضحوكة .

ليس منا من لايؤمن بجرأة الامام شرف الدين ، وحديدية ارادته وبسالته في نضاله ، كانت في عاملة يوم ان نزلها الرجل بعد غيبته الطويلة ايام الدراسة اقطاعيات منكرة لاتملك العامة من أمر نفسها شيىء ، ولاتفهم من الحياة في ظلها غير معناها المرادف للرق والعبودية ، ولايفسح لها ان تفهم غير ذلك من حياتها الهنية المسخرة للاقوياء من جبابرة الناس وطواغيهم ، فلما استقربه المقام ، لم يستطع اقرار هذا النظام الجائح المستبد بحقوق المواطنين ، ولم يجد من نفسه ، ولامن إيمانه ، ولامن بره ، مساغاً للصبر على هذه المحنة ، وإن ظاهرها الأقوياء والمتزعمون والمستعمرون ، وكل من يتحلب ضرعها المادى الحلوب ، لذلك ثارعليهم ، وانكر ذلك منهم ، واستغلظ الشر بينه وبينهم ، مجمعوا له ، وأجلبوا عليه ، وسعوا فيه :

وكانت ثورته تنصب على تحطيم تلك العلاقات غير المتكافئة بين المتنفذين وبين سائر الناس على اعتبار انها تشكل امتهاناً صارخاً لاكثر من مدلول اسلامى موجه :

ان المتزعمين المستندين الى حراب الاستعمار واستثماراته ، يفزعهم وهذه حالة تجدها في كل مكان ، ان تتجند قوى الشعب في مواكب تسعى الى العلم . : الى النور :

كل بارقة ثقافة أو مزيد من معطيات العلم ، يحسبون انها مدية قاتلة تمتد الى صدورهم ، فتراهم في مثل هذه الحالات يتنمرون . : يستعدينون من الذئاب المخالب . ومن الافاعي السم ·

هذه الحالة واجهها الامام شرف الدين ، وعاش تياراتها اللاذعة ، وعانى فى سبيل عبورها مايعاني الملاح في سفينة طغى عليها الموج ، ولعبت بها العاصفة :

أتراه نكص أم تزعزع أم خار ؟ . .

كلا : ثم كلا · · مضى في جهاده قوياً · رشيداً صابراً ، محتسباً ، ينقل الحرف النبيل والكلمة المعطرة ، الريانة الى العقول والافهام لتتحرر من السوط وأعمال السخرة ، والاغلال . . لتكون لبنة في بناء شامخ مرصوص ، لاحفنة تراب في حائط متداعى :

• • •

وللامام فى هذا الصدد كلمة حكيمة ، ربما تعطى مغزى الشعار لتطلعاته الاصلاحية :

يقول . (لاينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال) .

وعلى اساس من هذا المفهوم الواعى نهض الامام يطبق منهجته فى

عاملة ، منددأ بكل المفارقات التى كانت تتحكم في مصالح الناس ومقدراتهم :

والحقيقة ان الضلال الذى عناه الامام بهذا القول يتمثل بالمناهج الفكرية المستقاة من مصادر غريبة عن مفاهيمنا ، ولعلها موضوعة على اساس ان تكون سبباً واحداً من اسباب كثيرة يروجها الاستعمار الغربى من أجل تسميم أفكار الناشئة ، وتنحيتهم عن مسؤولياتهم ، وتجريدهم من مقومات تفكيرهم :

هذا هو الضلال كما شخصه السيد على ضوء تجاريب كثيرة ، وبوحى من حكمته ، وعمق نظرته .

ولذلك كان يشجع ويدعو الى تأسيس المدارس التي تطبق المناهج النابعة من صميم تفكيرنا وعقيدتنا ، على اعتبار انها تصون مداركنا من الغزوات التبشيرية المبرقعة بستار من الحرير :

كان يريد مدارس عصرية بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ، ولكن فى اطار من البرامج والعلوم التى لاتمس مبادأهم الدينية ، مع ضميمة دروس دينية تكفل تركيز هذه الروح ، والاحتفاظ بها فى نفوس الجيل .

وكان هو من العاملين بحدود هذا التشخص .. سعى وجاهد من أجل هذا النمط من المدارس ، فكانت معاهده فى صور ، تطبيق حي لهذا الرأى :

• • •

ولعل أحسن مانختم به هذا الفصل كلمة للامام شرف الدين بقلمه يسجل فيها أفكاره في حقل التربية والتعليم بدقة ووضوح :

وستجد ان هذه الكلمة لاتترك شيئاً إلا وتورده مجلياً فى هذا الباب فتأملها .

(من بعيد فكرت في انشاء معهد علمى يضمن تربية ابنائنا تربية صالحة ، مبناها مثلنا العليا ، ومنهجها الأخذ بحظوظ وافرة من الداراسات

---

(١) سنرى خلال هذه الدراسة ، ان الامام شرف الدين قد ترجم نفسه ، وكتب سيرته بقلمه ، وليس في هذا الأمر مايدعو الى الاستغراب ، فقديماً سار جماعة من امثال ابن خلدون وابن سينا واحمد فارس الشدياق ، ومحمد عبده ، واحمد شوقى ، ورشيد رضا، والمازنى وطه حسين من العرب وسبنسر ، وروسو ، وداروز وكارليل من الافرنج فى هذا الطريق ، ولعلهم اقتنعوا بقول الشاعر .

وماذا يضر المرء فى مدح نفسه اذا لم يكن في قوله بكذوب

ولعلهم ايضاً اقتنعوا بقول بعضهم ، ان المرء مطالب ان يثبت الحقائق عن نفسه ، وان يحتاط للملك قبل انصرافه من هذه الدنيا ، حتى لاينسب اليه بعد رحيل ، إذ يكون الشاهد بعيداً ، والثبت ضائعاً مالم يقله ومالم يفعله .

ومن مظاهر الانسياق الواعى فى هذا المجال ، ماتحقق فى الفترة الاخيرة ، من نقل هذه الفكرة الى مستوى اذاعي ، وقد استمع الناس في فترات منقطعة الى سير ثلة من ادباء الجيل ، يتحدثون الى الناطقين بالضاد عن تاريخ حياتهم وعن النقاط اللامعة فيه بما يوحى ان يكون اداة توعية والهاب حماس والتأثير على الجيل الصاعد بالأضافة الى معانى التكريم التى تنطوى عليها هذه العملية الثقافية .

العدد الرابع ، السنة الاولى . مجلة الالواح اللبنانية .

العصرية على ضوء المعارف (المحمدية) وذلك لاننى ارى ان لامعدى لنا عن هذه الخطة الحكيمة فى سبيل بناء مستقبل أفضل :

وقضية فضل العلم قضية بديهية فرغ الناس منها ، فما بريد ان نقرر المقرر فى اتصال العلم ، العلم الصحيح بالرخاء والسعادة والأمن والاستقرار فى حياة الأمم ، ولئن اختلفت مظاهر الحياة ، وظواهر الاجتماعات ، باختلاف العصور والبيئات ، فان العلم بجوهره واحد فى وجوبه وضرورته :

وهو بهذا اللحاظ موضوع عنى به الاسلام عناية جاهدة ، ووضعه من فروضه بين الواجبات المؤكدة ، ثم وجه نحوه توجيهاً ملحاً لانجد مثله فى نصوص الأديان الاخرى :

- هل يستوى الأعمى والبصير ؟ ام هل تستوى الظلمات والنور ؟
- هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟ ' ' .
- مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ؟
- أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى ؟ أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ ' .
- انما يخشى الله من عباده العلماء .
- وتلك الامثال نضربها للناس ، وما يعقلها الاالعالمون .

الى كثير من الامثال هذه الايات البينات وحسبنا من السنة قوله صلى الله عليه واله وسلم : تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكراته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لايعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنس فى الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث فى لخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح

على الاعداء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير ادة ، تقتص آثارهم ، ويقتدى بفعالهم ، وينتهى الى رأيهم (١)

وفيه مايأخذ بالنفس شوقاً وانقياداً الى ارتياد المناهل العلمية ، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : اطلب العلم ولو بالصين ، والصين هنا كناية عن كل مكان بعيد تزم إليه الركائب بين شدائد الترحال ، ومكاره الاسفار ، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم ، اطلب العلم من المهد الى اللحد ، وهذا كناية عن قصر العمر واستفراغه فيه ، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم ، طلب العلم فريضة ، وبين العالم والعابد مائة درجة ، بين كل درجتين مثل حضر (٢) الجواد المضمر سبعين سنة ، وماتصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر ، وخيركم من تعلم العلم وعلم الناس ، الى غير ذلك مما هو مأثور عنه صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الاوامر السامية التى بلغ المسلمون على ضوئها أبعد أشواط الحضارة والرقي والسياسة فملكوا أزمة الدنيا العلمية وعمروا حتى مجاهل الأرض بملكهم العتيد ـ وكذلك العلم يفعل .

ولماهدأت تلك الحركة المجددة المتجددة وانكدرت سماء المسلمين والعرب وغيروا مابأنفسهم غير الله بهم فعاث الغاشمون بكتبهم ومكتباتهم المؤثلة بانفس الاسرار وراحت الأمم المغيرة تتصرف بمقدراتهم ومقدساتهم ودهمنا الغرب بخيله ورجله فاناخ بككله وضرب بجرانه فاستحوذ علينا دخولا فى مدارسه وإصفاءاً الى رساوسه

---

(٢) نجده باسناده في كتاب المعالم لمؤلفه الشيخ المحقق الامام حسن خلف الشهيد الثاني اعلى الله مقامهما .

(٢) حضر . بوزن قفل ارتفاع الفرس في عدوه ؛

فالدفعنا لزج بافلاد أكبادنا الى أحضانه ، تحوطهم طوائف منه ، اومن حملة مبادئه بالحضانة واللقانة ، حتى اذا خرج الفوج الأول من شبان الجيل المأمول ، علمنا ان الخسارة اكبر من الربح ، والاثم اكبر من المنفعة،وذلك لانهم تعلموادون توجيه او تعلموافي ظل توجيه مفسد ، يخضع الثقافة الى مناهج استعمارية تغزو أرواح أبنائنا بأفتك مما يغزو به الاحتلال بلادنا .

وكنا في تعليم أبنائنا هذه المعارف المسمومة ، كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه ، وفى الحق لقد خدعت امتنا بأوهام من الغرور باطلة ، حيث ارادت استرجاع مجدها بتعليم ناشئتها فدفعتهم الى احضان هذه المدارس التي لم تتأسس في الشرق إلا للاستيلاء عليه بجميع مافيه من دنيا او دين ، فأضرتهم ضرراً لايتدارك ، وأضاعت مجدها على وجه آخر ، هو ألفن وأسرع ، وأشد ، وأفضع ، إذ تخرجوا جنوداً علينا وعلى مقدسات مبادئنا ، وتلك مصيبة مامنى الاسلام والشرق بمثلها قط .

• • •

وكنا نشهد المتخرجين من تلك المعاهد المسمومة ، فنضيق ذرعاً وينزل بنا منهم هم مقض ، والم مسهد ، فنأرق على مضض السليم - كليلة ذي العائر الأرمد - .

ومن الطبيعي ان ينتج الفكر لنا راحة تضمن مانصبو إليه من مقاع فى علم ، يرجع لنا اليقظة التي بنى عليها تاريخنا المجيد ، وفي مصارعة هذا التيار أوحى الينا الواجب الديني ان نقوم بتأسيس المدرسة الجعفرية على الشرط الذى كنا نفكرفيه من بعيد ، فأمضيت نيتى على لافث

متوكلا على الله عزوجل ، فاياه نعبد ، واياه نستعين ، ثم صمدت بهذه المهمة الى نفر من أهل الاخلاص والحفيظة ، من اخوانى في صور ، ونزعت فيها اليهم بكل رجاء فخفوا الى مبتغى ، وصدقونى السعى وراء المهمة ، وكان الفرنسيون يومئذ يطلبون ودنا بواسطة ممثلهم فى الجنوب ، وكان ممثلهم يعمل على ذلك لينسينا سيئاتهم معنا وكنا إذ ذاك نلقاهم على حرف ، فرخصوا في ان نؤسس المعهد في القطعة الرشادية التى كانوا كفوا أيدينا عنها فأسرعنا فوراً بكل همة وبكل نشاط الى عقد ستة مخازن بطرفها الشمالى صفاً واحداً جاءت من أضخم المخازن التجارية طولا وعرضاً وعلوا ، أمامها ايوان يسامتها طولا وسمكا .

وماكدنا نفرغ من بنائها كي يعلوها المعهد حتى تغيرت السياسة الافرنسية معنا باستبدال ممثلها في الجنوب برجل تفتنة الرشا ، فاستحوذ عليه اولئك المعارضون . فغل أيدينا عن القطعة وسعى الى المفوضية الافرنسية صحافية التى حمله المعارضون عليها ، فوقانا الله شرها - والحمد لله - ، وصبرنا على المحنة حتى ذهب الى حيث ألقت رحاها فراجعت بعده السلطة المستعمرة وراودتها بالأمر مراراً فكانت النتيجة - بعد اللتيا والتى - تخييرى بين هدم مابنيناه من المخازن وغيرها او دفع خمسين ليرة عثمانية ذهباً ثمن أرضه البالغة تسعمائة وثمانية واربعين متراً مربعاً فقط ، وأعلنوا انذارى بذلك ، فاضطررت الى دفع المبلغ لخزينة الدولة فى بيروت ، واخذت به وصلا رسمياً ، واستلمت سند التمليك لهذه الأرض بما فيها ، وشددوا يومئذ بمنعنا عما زاد على ذلك المقدار من القطعة ، فامتنعنا مضمرين انقاذها منهم بعون الله

تعالى ، ولو بعد حين ، وحينئذ تسجلت المخازن الستة وابوابها وسائر ماالبها من ارض وهواء وماء وقفاً على الطائفة كما هو في المحضر رقم ٩٤٢ من عقارات صور ، وبنينا الطابق العلوي فجعلنا فيه المدرسة والنادي الجعفريين ، وهنا قامت قيامة اولئك المعارضين ـ وهموا بما لم ينالوا ـ :

وكانت محاكمات طويلة في المحكمة العقارية في صور ، ثم في محكمة بداية الجنوب في صيدا ، وكتب الله لنا النصر عليهم في المحكمتين ـ والحق يعلو ـ وتسجل العقار محكوماً بوقفيته في كل منهما كما تسجل وقفاً على الطائفة في محكمة صور الشرعية :

اما بقية القطعه فقد تيسر بعون الله تعالى لنا انقاذها يوم ٢٤ تشرين الاول سنه ١٩٣٥ م ، اذ جرت المساحة العقارية فسجلتها لجنة المساحة بحدودها وقفاً على الطائفة الشيعية تحت توليتي كماتراه في محضرها رقم ٩٤٣ ، وهذا ماأقام المعارضين وأقعدهم يجلبون بخيلهم ورجلهم ، فاذا اناوهم على حد قول القائل :

اريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

وكانت محاكمات استمرت اكثر من سنتين ، وبعدها جاء الحق وزهق الباطل ، والحمد لله الذى نصرنا عز سلطانه على كل مانع ، وكسر بين ايدينا كل حاجنة ، وروض الصعاب وذلل العقاب ، فوضعنا النواة ونبتت على بركة الله بارقة نضرة ، ولئن نبت النبات الطيب في الربيع فان الله تعالى أنبت نواتنا العباقة المضواعة آية في الخريف فاذا هى تتأرج بالازهار النفاحة العطرة في اول تشرين الاول من سنة ١٩٣٨ م وفتحنا أبوابها مهداً علمياً أسميناه (المدرسة الجعفرية) رمزاً

للعلم والدين ووسام شرف خالد :

وتبرعت يومئذ المدرسة بالتربية والتعليم مجاناً لكل من خضع لقانونها من فقير أوغني ، وساعدت الفقير بلوازمه المدرسية قربة الى الله تعالى وماعندالله خير اللابرار ، وهيمن عليها مدير قدير معه ثلة من الاساتذة المهرة يسلكون في تربية الناشئة أسهل الطرق الحديثة ، فاذا التلامذة ، وهم على الدوام يربون على الثلاثمائة ، يرتشفون مسول المعارف والاخلاق ناهلين من سائغ الدين والأداب شراباً طهوراً ، وهذا ماكنت من أمد بعيد اتوخاه :

• • •

ان من الوفاء لهذه المؤسسة العزيزة ـ المدرسة الجعفرية ـ ان تنشر من جهادها الصامت صفحة تدل على معناها الذى أقامها على عنت الدهر في سنيها المعصوصبة ، وأمضاها على تكهم الأيام وذكرها على تقلقل الناس من حولها بين جاحدين ومتقلبين ومحاربين .

ونحن انما نريد بهذا الوفاء ان نمكن الواقع من شؤونها الحق ، ونقرها من هذا الواقع في مقرها الحق ليعلم ناس ان الايمان وحده ـ وهو سلاحها الوحيد ـ عدة المؤمنين ، فلا معول إلاعليه ، ولانجاح إلابه :

وكل سلاح بعد الايمان بالله تعالى سلاح مفلول ، وحجة عوراء لايبلغان مأمناً ، ولايصمدان لوثبة . ولينفخ المادبون فى أبواقهم بعدئذ ماانفخوا ، فهم من مغزى المدرسة الجعفرية في سبيل يناقضها ، يذهبون منه الى شرفاتها الشامخة ، معانى من صغير الرياح الدارجة ، وترسوهى من معاني الخلود الباقية ، تمربها الاعاصير والعواصف ، ثم تتلاشى مرة

بعد اخرى ، وهى ، هي الثابتة ثبوت الحقائق لاتتبدل .

تجتاز أشواطها والحياة ممتحنة بأشد المكاره ، واعوص عقد التاريخ فتنتهى الى كمالها الرائع ، ولكأنها تصدر وكل صعب من هذه الصعاب جند مجند لشد أزرها ، فلو ان جهد المال والناصر ، وجهد الزمان والمكان تظافرت على صنع نهايتها المصنوعة لجاءت باحسن منها ولاأتم غاية ، لانها لم تدخر لنجاحها جهدا من تلك الجهود ، وانما اعتمدت على جهة الصدق والاخلاص لله وحده لتنشئ جيلها المرموق من الصدق والاخلاص لله وحده .

فاذا انشأته على شرطها - وقد حشدت فيه مواد الانشاء - فانها يومئذ غنية بفتحها عن كل جهة من هذه الجهود المادية التى يلحظ الناس ، ويقيسون بها مبادىء الأعمال ومعانيها ومدى آثارها ، وكأن المدرسة الجعفرية حين عارضها المترفون - وهي في المهد - ارادت ان تكون الدليل على بطلان هذه المقاييس - وان تنشئ - مقياساً أدل على الفضل وادلى بالاتباع ، وهذا هو القياس المنتزع من الايمان بالله والاخلاص لوجهه تعالى مع قوة النفس وصالح العمل .

كذلك شاء الله ان يكون فكانت واحة لايضرها مايحدق بها من صحرائها ، من الأجادب والسباخ ولايعديها .

بل كانت واحة فيها من كل حسن معنى ، ومن كل عطر شذى ومن كل قوة مظهر ، لم تكتف بسلامتها في محيطها الوبى ، حتى خلعت عليه مطارف الحياة والصحة : . فجرت في المنافع سلسالا دافقاً وفي الأجادب نماءاً وارقاً ، وفى السباخ خصباً يقول للعين : امتلىء وانعمى ، وللنفس تزودى واغنمى ، وللروح : تسامى وتسنمى . .

ولو لم تكن هكذا لم تكن شيئاً ، لان معنى وجودهاان تكون كذلك فاذا لم تكن كذلك ، تساوق إذاً ، وجودها وعدمها ، ولكنها - والحمد لله - وازنت بين وجودها وبين مهمتها التى هي معنى كونها الصحيح فكانت منسجمة ، متوائمة ، وكان ابناؤها في دوراتها المختلفة يبرزون فى ميادين الامتحانات العامة ويسجلون لمدرستهم أعلى نسب النجاح على نحو يلفت اليهم النظر ، ويثير فضول الممتحنين ، فيسألونهم عن مدرستهم هذه ، المدرسة المجلية السباقة .

ولانحيل ذلك على غيب ، فمن شاء فليرجع الى السجلات الرسمية في مظانها ، من وزارة المعارف ليضع عينه ويده على حس مشهود لايدفع ، فيرى ويلمس انها كانت في كل خطاها تطرد فى النجاح بكل من تقدمهم للامتحان على نحو منقطع النظير .

غرست هذه المدسة في نفوس طلابها المبادىء اللازمة للمسلم والعربى الذي يبنى حياته الفردية الخاصة ، ويكون من افراده الصلحاء مجتمعاً صالحاً ، فاذا هم في قابلية لفهم الحياة على أقوم قواعدها ، تربية ذوق وتهذيب سليقة ، وترهيف حس ، وجلو نظر ، وسلامة عقيدة ، بطرق قديمة ، ينتهون منها الى اختيار حسن ، وتفكير مستقيم ، وشعور حى وعين يقظى ، وايمان بالله ورسوله واليوم الآخر متين .

طلاب المدرسة الجعفرية معدون لان يكونوا بتوفيق الله تعالى رجالا على هذا الشرط ، وفيهم الآن من ذلك بذور ، نسأل الله تعالى ان تنمو وتستثمر ، ويومئذ يتوسطون ان شاء الله تعالى في جيل له رأيه ، وله شخصيته ، واستقلاله بنظره .

تلك هي الفكرة المختمرة التى أسست المدرسة الجعفرية ورفعت

سمكها ، وجهزتها باكمل الوسائل الحديثة فنية وعمرانية ، وصحية ليتأتى لنا غرضنا كما زيده صحيحاً لأمغمز فيه بعون الله تعالى
هذه الصورة الدقيقة ، العميقة ، لم تترك لنا في الواقع مجالا للتعليق او الشرح او اى معنى آخر من معاني التحقيق المطلوبة في مثل هذا المقام .

الفصل الرابع

ريشة٠٠٠ولوحة

اذا كنا نحاول حقاً ان نتفهم مراحل نمو ادبيات مدرسة الامام شرف الدين فلابد لنا من ان نتصدى لدراسة أعمق مضامين انتاجه الانساني والذي لعب دوراً مهماً في قضية انتشار آثاره وشيوعها . : وهو الفن :

كان الامام شرف الدين فناناً فيما كتب ـ بمقدار ماكان يفرغه هذا الفن من الروعة في آثاره وما كان يتجاوزه الى الابداع الفكرى في الصياغة والتصوير ، ولهذا جاء انتاجه ، وقد توفرت فيه عناصر العبقرية من جمال في الفكرة ، وحلاوة في الديباجة ، ومقدرة على ان يأتى بهذين العنصرين في مستوى يلوح فيه التجانس والتناسب .

وتستطيل إصالة الفنان ، ويتنامى تراؤه ، متى أفرغ في لمسانة قوة تعبيرية تشد انفاس الناظر الى تقاطيع الصورة شداً .

والفن في تجليه ليس مقصوراً على الصورة . .

كلمة حية تتنفس بملىء رئتيها ، تستطيع ان تنقل الى أعماقك رعشة مخضلة بالندى ، قطعة موسيقية متدفقة من وترحساس ، ونابعة من شغاف ،شغاف تضمن لك رحلة سعيدة على جناح مسحور :

زقزقة من حنجرة (ماسية) فى امكانها ان تلعب بهذا الهيكل المشحون بالشحم واللحم ، كما يلعب طفل بورقة ملونة .

ومبدأ معترف به : . في دنيا الكلمة .

الآثار الأدبية اذا عززت بمنشطات فنية يعززها حسن ذواق ، يتولد في هذه الآثار عنصر جديد ، يقاوم الصدأ ، وتفلت هي من قبضة الفناء . . يكتب لها الخلود :

اما الآثار المهزولة . . الجائعة ، التى لم يشترك الفن في تحضيرها فحبلها قصير ، والشوق اليها ضعيف ، وخاتمة أمرها ان تستقر على رف بالى الى ان ينتهى من قضمها الفأر .

وفي هذا السياق أيضاً . .

هناك بون شاسع يفصل بين النظم والشعر :

القصيدة التى تغبرك فى ساعات أو أيام أو شهور ، ثم تتهادى فى سمعك أشلاء وحشرجة وكلمات بلا رنين ، غير القصيدة التى تنبع من قلب ، واحساس ، وشعور .

المنظومة ، المحشوة بالصناعة الأدبية ، يضعها النقاد في نهاية السفح أما القصيدة المتحركة المنعمة بالالهام الفنى فحملها الذروة .

ورب قصيدة تهتز على لسان شاعر ملهم : . فنان : . تفوق في امتاعها وايقاعها أية قطعة موسيقية لموسيقار موهوب .

لقد ظهرت خلال النصف الثانى من هذا القرن موسوعات تاريخية وأدبية متعددة في مختلف مناحي الحياة ، بعضها كان رخى العصب فدحرجها التيار الى حيث نامت نومتها الأدبية ، وبعضها كان كحجر الفيروز كلما ازداد لمسك له بمرور الايام ، ازداد صفاؤه ، وراقت زرقته .

الامام شرف الدين ، وهب المكتبة العربية فيروزاً .. قصيدة مفعمة بالالهام الفنى ، غذاءاً دسماً للفكر الاسلامي المتجدد .. سلاحاً قاطعاً يمزق بيرو قراطية السلاطين : . ويبدد زحوف الظلام .

كان الرجل اذا كتب ، لاينتهى من مهمته بمجرد ان حفنة من الكلمات تؤدى معنى معيناً قصده فحسب ، بل يزن مايكتب بميزان حسه الدقيق الذواق عن طريق الاستعادة والصقل ، يرفع هذه الكلمة ، ويضع بدلها كلمة اخرى فيها ايقاع ..

يقدم . ويؤخر . يلمع . ويشذب ، الى ان تتهادي المقالة الى حسه وأذنه عروساً فى ليلة زفاف . .

إسمع مايقوله السيد الاستاذ صدر الدين شرف الدين في هذا

الهاب (١) .

(. . كنت أدخل على مؤلفه الخالد في ساعات المخاض ، فأجده مندمجاً بالموضوع ، يحبي الفكرة تأملا ، ويفرغها همهمة ، فاذا استقام له القالب ، فنهض في فنه الذواق ، بالمحتوى ، أملاه على كاتبه تخطيطاً يعود اليه غير مرة قبل وضعه بصفة نهائية ، ولايفرغ منه إلا اذا تناغم في سمعه اداءاً وايقاعاً ، وتماسك في يده نسجاً وتحابكا وانسجم في عينه خطاً ولوناً .

كانت الكلمة عند أبى حاسة سادسة لايرضيه منها إلا ان تجمع الى شروط الصحة مقاييس الجمال وفضيلة الوضوح .

وانى لاراه محاطاً بكتل من المراجع بعضها مفتوح المصاريع ، وبعضها قد كفأه على وجهه ، وهو يقرأ في احدها ملصقاً بوجهه ، وقد ضيق يسرى عينيه ، وأغمض اليمنى ، ثم ملقياً كتابه وماشطاً كريمته ، باصابعه يستعين على التأمل ، سابح النظر فى أجواء عليا وعوالم خفية فلو كلمته خلال استلهامه لما سمعك ، اولما وعى عنك ماتريد .) .

ان هذ الصورة المعبرة ، الدقيقة ، ذات المحتوى الساحر والتى رسمها الاستاذ السيد صدر الدين بقلمه ناقلا الينا بدلالة سيكولوجيه تلك الظاهرة التى تتقمص روح أبيه المقدس ساعة تصديه لقضية من قضايا الفكر ، يحسمها بذوقه وعلمه وقلمه حسماً رتيباً شاملا ، لاتترك مجالا للشك في خضوع النوابغ الى مؤثرات نفسية تتعين طبيعتها عنفاً ويسراً بحدود ماتستطيع ثقبله ذات النابغة من إشعاع ، ثم ينعكس هذا الاشعاع

---

(١) راجع مقدمة كتاب النص والاجتهاد الطبعة الثانيه ص ٤١ الصادرة من دار النهج :

على الحواس العامة اختلاجات أوردنا لك طرفاً منها .

قرأت مرة .. ان (بيكاسو) وهو من ابرز رواد المدرسة الحديثة في الفن التشكيلي ، حين تحصحص في ذهنه أبعاد لوحة معينة ، يصبح آنذاك غير (بابلوبيكاسو) الذى تعرفه صالونات الفن وأثوائه يحكم عليه ابواب صومعته ويمتنع عن مقابلة أقرب الناس اليه ، ثم يشرع بعد ذلك في القيام بحركات بعيدة الصدور عن مخلوق سوى ناهيك ان يكون هذا المخلوق فناناً عظيما .

يروح ويجيء .. يقوم ويقعدد . يتمدد . يهرول . وريشته فى يده تترجم الالهام على اللوحة خطوطاً وألوانا .

وعقب كل ذلك . تأخذ اللوحة طريقها الى الخارج : . خارج الصومعة ، لتبهر ألوانها وخطوطها عشاق السر بالزم .

. . .

فحاول فى هذا الفصل ان نطل من زاوية فنية بالطبع ، إطلالة هادفة على آثار الامام شرف الدين لنقف عن قرب من مدلول هذا الانطباع ، وفوقاً نبرهن فيه على إصالة الوازع الالها من في انفاجه .

ولكي تأتي احكامنا متسقة ، ومبنية على تقديرات مركزة ومسندة ايضاً نستعرض الآن مؤلفاته المنشورة ، ومن بعضها سوف نستقى نماذج مما نريد الاستدلال به أو عليه .

١ ـ الفصول المهمة فى تأليف الأمة . كتاب يبحث مسائل الخلاف بين السنة والشيعة على ضوء الكلام والعقل والاستنتاج والتحليل ، تم تأليفه سنة ١٣٢٧ هـ ، وطبع مرتين بصيداء ، وفى الطبعة الثانية زيادات مهمة ، يقع في ١٩٢ صفحة قطع النصف .

٢ - المراجعات : طبع في مطبعة العرفان بصيداء سنة ١٣٥٥ هـ ونفدت نسخه ، وترجم الى اللغة الفارسية ، وترجم الى اللغة الانكليزية ترجمه الدكتور السيد زيد الهندى ، كما ترجم الى اللغة الاوردية ، ظهرت طبعته السابعه فى الاسواق قريباً ، وسنقف عند هذا السفر وقفة طويلة :

٣ - أجوبة مسائل موسى جار الله ، كتاب يحوى أجوبة عن عشرين مسألة سأل بها موسى جار الله علماء الشيعة وهو يظن ان فيها شيئاً من الاحراج ، كتكفير الشيعة لبعض الصحابة ولعنهم ، وكنسبة القول بتحريف القرآن للشيعة ، ونسبة تحريم الجهاد اليهم ايضاً ، وكمسائل البداء والمتعة والبراءة والعول وما الى ذلك ، فكانت أجوبة من أسد مايكون ، تستقى من العلم والوفر ، وتقوم على البرهان والمنطق يقع في ١٥٢ صفحة من القطع الصغير ، طبع في مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م :

٤ - الكلمة الغرآء في تفضيل الزهراء . تقع في ٤٠ صفحة من قطع النصف ، طبعت مع الفصول المهمة فى الطبعة الثانية .

٥ - المجالس الفاخرة فى مأتم العترة الطاهرة . طبع منها المقدمة وتقع فى اثنين وسبعين صفحة بقطع النصف ، يشرح فيها فلسفة المآتم الحسينية واسرار شهادة الطف شرحاً رائعاً سليما .

٦ - ابو هريرة : طبع سنه ١٣٦٥ هـ بمطبعة العرفان فى صيدا وهو بحث حياة ابى هريرة وعصره وظروفه وعلاقاته وعناية الصحاح الست بروايته ، على ضوء العلم والعقل .

٧ - فلسفة الميثاق الولاية ، وهى رسالة فذة فى موضوعها ، طبعت

فى صيدا سنه ١٣٦٠ ه ؛

٨ ـ ثبت الاثبات في سلسلة الرواة . طبع فى صيدا مرتين ، ذكر فيه شيوخه من اعلام أهل المذاهب الاسلامية .

٩ ـ مسائل فقهية . فى بعض الفروع ، تكلم فيها على المذاهب الخمسة ، طبعت في مطبعة العرفان بصيدا سنه ١٣٧٠ ه ؛

١٠ ـ رسالة كلامية ، حول الرؤية ، طبعت بصيدا سنه ١٣٧١ ه وطبع منها فلسفة الميثاق والولاية رطبعة ثانية ، تنشر هذه الرسالة آراء الشيعة الامامية في مسألة الرؤية (رؤية الله وعدم رؤيته) ؛

١١ ـ الى المجمع العلمي العربى بدمشق . رسالة تناول فيها الاستاذ كرد على وناقشه الحساب فيما نسبه الى الامامية متجنياً عليهم طبع بصيدا سنه ١٣٦٩ ه ؛

١٢ ـ النص والاجتهاد . دراسة ضافيه لاعمال واحكام وفتاوى صدرت من بعض كبار الصحابة على عهد رسول الله (ص) وبعده وهى لاتأتلف مع شيئى من المباني الاساسية للاسلام ، والكتاب آخر ماصدر بقلمه الشريف طبع لاول مرة من قبل المجمع الثقافي التابع لكلية منتدى النشر عام (١٣٧٥ ه ـ ١٩٥٦ م) فى النجف الاشرف ثم اعيد طبعه من قبل دار النهج فى لبنان سنه (١٩٦٠م ، ١٣٨٠ ه) وهى طبعة مزيدة ومنقحة .

(وفى سنة ١٩٦٤ م ، ١٣٨٣ ه) اعيد طبعه للمرة الثالثة فى مطابع النعمان في النجف الاشرف .

• • •

تلك هى آثار الامام شرف الدين المنشورة ، فاين هي اللمسات

الفنية فيها ؟ . :

للوصول الى جواب شاف دعونا نجاو بعض النقاط المهمة . ،

ان تصدينا لدراسة أدبيات الامام شرف الدين من خلال تجربته الفنية ، كونت لدينا انطباعات عامة ، منها مايتعلق بالفن من حيث هو وجود مستقل ، له تناقضاته الخاصة ، ومنها مايتعلق بالكتابة الفنية على اساس انها نوع من الفعالية الانسانية المرتبطة كبقية الانفعالات بشروط حضارية وزمانية معينة ومحدودة .

ان تعيين هذه الانطباعات وتركيزها فى نقاط تبدو ذات أهمية بالغة . هنا : وهي :

١ - يرى بعض رواد الأدب الحديث بتأثير اوضاع اجتماعية وسياسية ، ان يندفع الأنتاج الأدبى ، وان يحاول دائماً ان يطغى على نقص الكلمة بان يعمل على تخفيفها من دلالتها القاموسية ، ويصعدبها الى مستوى مرنان أشبه بالموسيقى : من أجل ان يكون الأديب قريباً من ذلك النزوع الخفى الذي لايمكن التعبير عنه :

اما الامام شرف الدين ، ، فقد استطاع بروعة تصويره لمشاكل التاريخ الاسلامي ، ان يحافظ على (عمودية) فنه من غير ان يلجأ الى التجرش بقاموسية الكلمة لتسهيل مهمة تسللها الى اذن القارى وحسه .

٢ - قرأ الامام شرف الدين كثيراً من كتب الأدب ، قديمه ،وحديثه ولابدانه أعجبه اسلوبا من الاساليب . ان معاناة هذه الادوار تترك أثراً في انتاج الكتاب والادباء ، ولها مساس كلى بتشكيل المناخ الثقافى الذى يلون بدوره ميولهم وأفكارهم ، وعواطفهم ، واعمالهم الفنيه قبل

كل شيئ ؛

الامام شرف الدين بالرغم من كل ذلك ظل مخلصاً لاصالته الخاصة ، يعطي من نفسه قدر مايستطيع لعمله ، ولانه احد الكتاب المتميزين بفرديتهم واصالتهم واسلوبهم :

كان كل كتاب جديد له ، يقدم شيئاً جديدا :

٣ ـ ان كتابة التاريخ والخوض في نصوصه مسألة علمية بحته ، وللكتابة العلمية اسلوب متميز ، تخضع مداركه لكثير من معاني التأني والاحتياط والالتزام .

والعمل الفنى الجيد يقف بطبيعته فوق كل شئ ، سواء كان ذلك تاريخاً أم غير تاريخ · يقف فوق البساطة والتعقيد ، ويقف ايضاً فوق التفاؤل والتشاؤم فهو دائماً ليس إلاحلم عبقرى ، ورؤية فنان :

في العمل الفن تخضع الافكار والحياة نفسها لقوة هذه الرؤياه وإصالة هذا الحلم ، فينبثق نظام العمل الفني الخاص ، ويتكون شكله ووحدته ، وينفتح مضمونه على افق واسع مديد .

في آثار الامام شرف الدين تقر أبو ضوح مزاوجة رائعة بين العلم والفن ، تاريخاً في قوالب أبية ، علماً مطلياً لكلمات شاعرية . أعمالا فنية جيدة :

هذه الموهبة تلقاها في كل كتاب نسجه قلمه فى غير ماتفاوت او تباين .

ومن هنا . وهذه فكرة طارئة فان نقيم مؤلفاته بأن نقول مثلا ان كتاب الفصول المهمة ، هو أهم مؤلفاته يظل حكماً فرداً وذاتيا لان كتباً اخرى له ايضاً سوف تستمر مصدر مناقشات اسؤالات عديدة

قادمة ، وستصبح موضوعاً يخص كل كلاسيكيات الفكر الامامى .

بعد ذلك .

سنأخذ كتاب المراجعات . وهو من الاسفار المهمة في انطلاقتنا الفكريه المعاصرة كوسيلة الى التعرف على الناحية الجمالية من تراث الامام .

هذا الكتاب الثمين يكشف نفسه ببطىء امام اعين القراء ، وهذا فى اعتقادى بسبب المستويات العديدة التى يلمسها .

ان الاطار الذى يتخذه هذا السفر هو التعبير عن افكار الامامية فى موضوع الامامة بتقريب مباحثها من الاذهان ، وهو بصورة عامة ، يتميز بقمه التشكيلية التى نادراً مانجدها فى كتاب آخر بهذه القوة كما يتميز بايقاع هادى ، متوافق ومتزن ، فلا تجد وانت تسرح طرفك في رياضه ، مايعكر عليك صفو الراحة .

اسمعه يخاطب الشيخ البشري فى مراجعة من مراجعاته (١)

(لئن تلقيت مراجعتى بأنسك ، وأقبلت عليها وانت على جمام من نفسك ، فطالما عقدت آمالى بالفوز وذيلت مسعاى بالنجح ، وان من كان طاهر النية ، طيب الطوية ، متواضع النفس ، مطر د الخلق ، رزين الحصاة ، متوجاً بالعلم ، محتبياً بنجاد الحلم ، لحقيق بأن يتمثل الحق فى كلمه وقلمه ، ويتجلى الانصاف والصدق في يده وفمه ، وما أولانى بشكرك وامتثال أمرك ، إذ قلت زدنى ، وهل فوق هذا من لطف وعطف وتواضع ، فلبيك لبيك ، لانعمن والله عينيك ، فأقول) .

هذه صورة جميلة في أدب النقاش ، تتحدث عن روحين أحدهما

---

(١) راجع المراجعة رقم ١٠ من كتاب المراجعات للامام شرف الدين

يهز نفسك ، والآخر يغذي فكرك ، ومرد وذلك ان الرسام وهو يبدع أثره ، يرسم الخطوط بفكره الحاذق ، ثم يعمد الى قلبه الملهم فيعصره ويغمس مرقمه في عصارته ، ليصبغ على تلك الخطوط لون الحياة .

وفي مكان آخر . في مراجعة اخرى يناقش صاحبه في حديث المنزلة ، وهو كما تعلم بعده البعض غير حجة وان كان عاماً لكونه مخصوصا ، والعام المخصوص حسب ادعائهم غير حجة في الباقي .

تأمل فنه في عرض حجته .

(نحن نوكل الجواب عن قولهم بعدم عموم الحديث الى للبسان والعرف العربيين ، وانت حجة العرب ، لاتدافع ولاتنازع ، فهل ترى أمتك أهل الضاد يرتابون في عموم المنزلة من هذا الحديث ، كلا وحاشا مثلك أن يرتاب في عموم السم الجنس المضاف وشموله لجميع مصاديقه فلوقلت . منحتكم انصافي مثلا ، أيكون انصافك هذا خاصاً ببعض الأمور دون بعض أم عاماً شاملا لجميع مصاديقه ؟ معاذالله ان تراه غير عام او يتبادر منه إلا الاستغراق ، ولو قال خليفة المسلمين لاحد اوليائه . جعلت لك ولايتي على الناس ، او منزلتي منهم ، او منصبى فيهم ، او ملكى ، فهل يتبادرالى الذهن غير العموم ، وهل يكون مدعى التخصيص ببعض الشؤون دون بعض إلامخالفاً مجازفاً ولو قال لاحد وزرائه لك في أيامي منزلة عمر في ايام ابي بكر إلاانك لست بصحابي أكان هذا بنظر العرف خاصاً ببعض المنازل ام عاما ، ماأراك والله تراه إلاعاما ، ولاارتاب في انك قائل لعموم المنزلة في قوله صلى الله عليه وآله وسلم (انت منى بمنزله هارون من موسى) قياساً على نظائره في العرف واللغة ، ولاسيما بعد استثناء النبوة ، فانه يجعله نصاً في

العموم ، والعرب ببابك فسلها عن ذلك) ؛

ويحسن بى هنا ان اعترف :

اني لاستطيع ان ارسم فى هذا الفصل صورة دقيقة وحقيقية لكتاب المراجعات ، حاولت ذلك فوجدت نفسى بعيداً عن الهدف ، فليتد برد من شاء ليعرف مدى صدق فكرتى ؛

• • •

وخلاصة الأمر ان الالهام لايتغلغل في نفس إلا اذا جمعت هذه النفس الملهمة شروطا معينة ، اولها القابلية والاستعداد ، وثانيها العقل والثقافة ، وثالثها يستقيم في كفاءة الفنان بايجاد الصلة بين قابليته وثقافته والمرونة فى استخدام هذه الصلة فى تلوين آثاره .

فالفنان بقلبه الملهم وعقله المستلهم : بخياله وفكره · يعطى الحياة آشياء ثمينة ، لوحة رائعة : قصيدة رنانة . تمثالا جميلا . سيمفونية ساحرة . كتاباً محبوكا ·

• • •

وثمة حقيقة يجب ان لا انساها :

ليس فى تراث الامام شرف الدين دراسة مبتكرة ، اخترعها قلمه ولكن من جهة ثانية ، ليس الابتكار فى الفن هو ان تطرق موضوعاً لم يسبقك اليه سابق ، بل الابتكار هو ان تتناول الموضوع الذى كاد يبلى بين اصابع السابقين ، فاذا هو يضى في يديك بروح من عندك

خذ القضية على مستوى عالى · ان الكثير فى موضوعات شكسبير نقل عن (بوكاشيو) وبعض (موليير) عن (سكارون) وجوته في فاوست عن (مالو) ومآسى (راسين) عن مآسي (ابروبيد) ،

وابروبيد وسوفو كل وأشبل من (هوميروس) ، وشعراء الشعب المفتقلين بالاساطير .

الفن إذاً هو الثوب الذى يلبسه الفن للهيكل القديم . انه الكسوة المتجددة (لكعبة) لاتتغير . وكذلك طه حسين في الفتنة الكبرى والعقاد فى عبقرياته ، وعبد الفتاح عبد المقصود في الامام على بن ابى طالب . وغيرهم هؤلاء عالجوا قضايا بحثت مئات المرات ؛ ووردت فى اكثر من موسوعة ، وفى مرجع . ومع ذلك تحملنا أطرها الجديد اى آواق جديدة أيضاً ، استطاع كل واحد منهم ان يستعمل ريشته بمهارة مغموسة بحبر فنى له ابعاده وله سحره وتأثيره .

وهذا بالضبط هو الجانب الحساس فى آثار الامام شرف الدين .

ان المواضيع الاسلامية التى تتألق من اسفاره . عالجها قبله جمهرة من اعلام الامامية ، فالسيد المرتضى والشيخ المفيد وابو جعفر الطوسى وغيرهم . كانوا فرسان هذه الحلبة المبرزين، غير ان الفرق بين الفريقين القديم والجديد (١) يكمن في الطابع الجمالى الذى يغمر انتاج الامام شرف الدين ، وفي هذه العذوبة المحببة . الساحرة ، التى تجدها شائعة في اساوبه :

وهذا لايعنى بالطبع اغفال الجوانب الاخرى المهمة في ملكاته العلمية ، من حيث الدقة والاحاطة الواسعة العميقة بقضايا التاريخ الاسلامى بمختلف اهتماماته وخبراته العريضة بكل الاختلاطات التى مشت مع تاريخنا ، تملا سبيله بالعراقيل ، وتسد في وجهه الابواب .

---

(١) القديم الذى تمثله مدرسة الاعلام الذين اوردنا ذكرهم ، والجديد الذي يحمل رايته الامام شرف الدين .

أقول :

هذا اللون من المعالجة العلمية المطبوعة بطابع فنى سهلت لتراث الامام شرف الدين أن يقرأه العديد من الناس من مختلف المستويات الثقافية ، وان يكون الدليل الموجه للفكر الامامي .

ان الكتب العقيدية التى تخوض في بحوث تتناول المصادر الكبرى لمبدئنا الاسلامي ، تلقاها في المكتبات الخصاصة : وعند المشغوفين والرواد ذوي الاهتمام بهذا الوجه من الثقافة ، وعند الذين تسعفهم قابلياتهم الفكرية الى ممارسة البحث والتنقيب .

أما اليوم ، فانك تجد فى الغالب ، كتباً للامام شرف الدين محفوظة بشيء من القدسية في معظم بيوتنا . لدي الشيوخ والشباب ، لدي المثقفين الاكاديميين . اولدى انصاف المتعلمين .

كل من يملك قدرة القراءة ، يستطيع ان يفهم ماذا يريد السيد الامام ان يتجاوب معه . أن يعود اكثر تمسكاً بعقيدته من قبل :

لغة سهلة ، وان كانت تبدو عليها غلالة من الاعتداد بمجد اللغة ، ونفس هادي وطبيعى لايمل ، ونقاش موضوعى بعيد عن المهاترة والدس ، وأخيراً طاقة من فن رائع تزين أبعاد الحديث ، وتبعث الحرارة فى شرايينه .

رحم الله الامام شرف الدين ، وعاشت آثاره حية نامية في صدور المسلمين ، وأبقاها منار هدى ورمز خلود .

الفصل الخامس

كلمة ذات رنين

ان الكلمات التي أخترتها لهذا الفصل قالها كما بينت أفذاذ تباينت بهم السبل وجمعهم الفكر على مستوى الريادة ، وهي في الواقع وجهات نظر مختلفة ، تساط بمجموعها ضوءاً قوياً ، ينفع في تبسيط الملامح ويكشف عن دقائق الأمور :

وظاهرة اخرى فى حياة الامام شرف الدين ، وربما تكون اكثر شمولا من غيرها ، وأشد التصاقاً بالمنطلقات الفكرية التى أرست قواعد شخصيته كمفكر حر وواعى ، وهذه الظاهرة هي إحرازه لمحبة معظم الناس الطيبين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وميولهم واتجاهاتهم ، واجتماع الكلمة على كونه رائد منهجي مستقيم ، تشرأب اليه الاعناق في الملمات والازمات والمواقف الحساسة،

وعلى ضوء تصميم هادف جاء هذا الفصل كآخر حلقة في هذه الدراسة ، ليتسنى للمعنيين بها أن يقفوا على آراء المفكرين في الموضوع غب إطلالة مركزة على مسيرة حياته من خلال آثاره ومآثره . ولاانكر اني أعطيت هذه الأراء جل اهتمامى ، لالانها صدرت عن قمم شامخة في دنيا الفكر ، أو استهوانى السبك العبارى ، بل لان فى بعض ثناياها نقاطاً حارة تبعث اليقظة في وجود القارىء كانسان ترتفع انسانيته الصادقة فوق الاعتبارات المريضة التى تحاول ان تجعل من هذا (الوجود) بالذات وحشاً مفترساً ، يتعامل بالمخلب والناب .

وبشيء من التأمل الموضوعى يستطيع القاىء أن يضع يده على العوامل التى ساعدت في ايجاد هذا الموقف ، واعنى به مشاعر المفكرين بالنسبة للامام المترجم له ، والتى لاتتعدى على ماأظن الموارد التالية :

١ - كراهية الامام للتعصب بشتى الوانه وانواعه ، واستهجانه الصارم لكل التبريرات التى تنبعث من طبيعة التعصب المنطوية على الكره والحقد والدم .

ولهذا شعر بالخسارة في فقده المسيحي قبل المسلم ، والسنى قبل الشيعى ، والبعيد قبل القريب وسبق ان قلت فى فصل سابق ان موقفه

من الفكر الامامى ، ودفاعه البطولى من قيمه وموازينه ، ربما يفسره البعض على انه تعصب لرأي معين ، بينما الحقيقة ان الرجل وجد زيغاً شنيعاً يمسك طريق المسلمين ، فلايترك لهم مجال المضي في سبيلهم متكاتفين متحابين :

أراد رفعه ودحره وشجبه . فهو عنصر تنقية وجمع وتآلف ، وليس عامل فرقة وتناحر وقطيعة .

٢ ـ انسانية صافية شدته الى قلوب الناس وعقولهم شداً مترابطاً ، ورسخت منه قائداً ، ذو نظرة مرنة طيعة ، لم تصطدم بشيء من التطورات الاجتماعية ، ولاضاقت بشيء من المشكلات التى واجهته فى حركة الحياة الدائبة .

٣ ـ معرفة واقعية بجوهر الاسلام الذي هو بمقتضى كونه ملتقى جملة من المقومات والخصائص ، يشكل اروع نظام اجتماعي حضاري لعالم واحد ، تتمثل روعته في استعداده الرحب لمسايرة الزمن في كل مكان .

اما الاسلام كما هو معروف نظام تقوم فى تركيبه طاقات مولدة إبداعية ، واكبر هذه الطاقات واكثرها اشعاعاً هي حرية الفكر .

وكانت حرية الفكر عند السيد الامام ، مسألة أساس ، تتقدم على كثير من المسائل الاخرى في حياته . ومن هنا كان احترامه للفكر ورجاله ، وللعلم وفرسانه ، ولاصحاب الرأى الحر المتوثب ، وعلى النحو الذي لاتقف دونه حو اجز الدين كما قلنا او العنصر او المعتقد .

وموقفه مع الاستاذ بولص سلامة صاحب ملحمة الغدير ، معروف ومشهور ، كما كان ، رضوان الله عليه لايترك مناسبة يحتفل فيها

المسيحيون باعيادهم ومواسمهم او الطوائف الاخرى على حد سواء ، إلاويشارك بنفسه فى تقديم التبريكات ، ومايتصل بها من متطلبات اجتماعية وغيرها .

هذه الامور نسجت من السيد الامام تراثاً انسانياً شاملا على حد تعبير الاستاذ كمال جنبلاط لايختص بشيعة ، وبمعتقد معين .

وبعد هذا ..

ان الكلمات التي اخترتها لهذا الفصل قالها كما بينت أمذاذ ، تباينت بهم السبل ، وجمعهم الفكر على مستوى الريادة ، وهى فى الواقع وجهات نظر مختلفة ، تسلط بمجموعها ضوءاً قوياً ينفع في تقريب الملامح ، ويكشف عن دقائق الأمور .

وبقدر حرصى على ان تأتي دراستى هذه ، خفيفة الظل ، لايعكر مزاجها اون قديم من الوان البحث الكلاسيكى ، القائم على نقل التراجم بصورة حرفية ، وجدت من جهة ثانية ، ان الانصاف يدعونى الى اثباتها كوثائق تعطى الدليل على ان التآخي بين البشر ينبغى ان لاتفرط به نزعات عنصرية او دينية او مذهبية على حد سواء .

فالدين لله والوطن للجميع .

أضف الى ذلك ان من السهل اعداد هذا اللون من التسامح العالى والرصانة ، كوجه طبيعى لنظرة الفكر الامامي الى العلائق الاجتماعية التي تشد أوامرها نزعة انسانية ، قبل ان ترتبط بشيئ اسمه لون او مذهب أو جنس :

ان مضمون الاسلام - ويلذ لى التبسط في هذا المنحى - يمقت الدروشة والانطواء والتهيب ، وربما جلبت اليه امراراً لاحدلها ،

أبسطها عند طرح المسألة بشكل موضوعي ، انكماش الوجود الاسلامي عن التطور والتفاعل وكسب مواقع جديدة .

ان سنيناً عديدة طويت في حياة الفكر الامامي سدى ، نحرناها في شبه عنبوبه عن الحياة . . بتطرفنا في الانكماش . وبتطرفنا أيضاً في فهم موضوع التقية بشكله المعكوس :

وعلى كل لااريد هنا أن اطيل .

انظروا ماذا صنعت جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية في القاهرة ؟ او بعبارة أقرب الى منطق الواقع ، ماذا صنع صاحبكم وهو لولب الجماعة (١) هناك .

خدمات جزيلة ومشكورة .

ارسل الاستاذ العلامة الشيخ محمد المدني عميد كلية الشريعة في الجامعة الأزهرية في حينه ، رسالة الى الاستاذ السيد صدر الدين شرف الدين يقول فيها .

(. وابشرك بان كلية الشريعة بالجامعة الأزهرية قد خطت الخطوة الكبرى في جميع الكلمة بين أهل العلم والدين من متخلف المذاهب الاسلامية لافرق بين سنيه وإماميه وزيديه ، فأصبح الفقه يدرس مقارناً على منهاج واسع لايعرف التعصب ، ولاينظر معه السني الى الشيعي تلك النظرة الشزاره التي كانت فبانت والحمد لله.

وقد حدث هذا بعد ان توليت منصب عمادة كلية الشريعة باختيار فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وإقرار الرئيس المظفر عبد الناصر ، ولاشك انكم تعلمون ان شيخ

---

(١) الشيخ محمد تقي القمي .

الازهر هو من اكبر الاعضاء المؤسسين لفكرة التقريب ، وانها فكرة خالطت نفسه كما خالطت نفوس تلاميذه ، وأبناء مدرسته منذ سنوات طويلة ، وانه كان يتمنى ان تتاح له الفرصة ليبرزها ابرازاً عملياً ينفع الناس ، ويمكث فى الارض) :

ومنها أيضاً :

(ويسرني ان اخبركم فى هذا الصدد ، بخبر سار هو ان منهاج (تاريخ الفقه الاسلامي) فى كلية الشريعة وفي الدراسات العليا للحصول على شهادة العالية ضمن درجة استاذ (اى دكتور) قد تضمن دراسة حياة المغفور له السيد الشيخ الاكبر عبد الحسين شرف الدين الموسوى عليه رضوان الله كعالم من علماء الشيعة الامامية ، وستكون هذه الدراسة شاملة لكل ماألف وكتب ، وقد صار هذا المنهج رسمياً وفيه اعتراف كبير من الازهر الذي هو اكبر جامعة اسلامية برجال العلم والمجاهدين من أبناء الاسلام ، اياً كانت مذاهبهم) (١)

هذه كما ترى احدى فوائد التقارب والتآلف والعمل البناء ، الهادف البعيد عن الصخب والجعجعة والدعاوة .

وليت هذه المبادرة صممت باطار أوسع ، وعلى صعيد اكثر حساسية من الصعيد الذى حدثنا عنه الدكتور المدنى ، لجاءت النتيجة غنية بما يفتح لمستقبل هذا الدين القويم :

اننا نعطى - مع الاسف - فى كل يوم وصفات مميته على شكل جرعات تبشيرية مبرقعة .

---

(١) الجزء الخامس . السنة الخامسة مجلة النهج اللبنانية ١٤ تشرين الثانى ١٩٥٩ .

متع مملوءة بالقبح : وافلام يحبك فصولها مرضى بالجنس ٠ : وبرامج تلفزيونية تنقل الى بيتك ، وأنفك راغم ، زاوية من كبارية تمتهن عملا شائنا : وعلاقات اجتماعية تدخل بيوتنا من الباب : لتهرب المثل والاخلاق والسعادة من الشباك :

كل ذلك ونحن نمعن في التقوقع ، ونحاذر من ان ننقل المعركة الى ارض خصبة نبذر فيها تعاليم الاسلام القويمة ، لنجنى من وراء ذلك أنصاراً ترتفع بهم كلمة لا اله إلاالله ، وتستقر في أعماقهم عناصر اليقين نحن لدينا عقائديون من الطراز الاول ٠ المثالى .

رجال ابرار : ينزحون الى النجف الاشرف من أصقاع نائية بعيدة : وراء قصد نبيل ويبدأ في عاصمة العلم والدين كفاح هؤلاء مع اللغة ٠ مع البيئة الجديدة ٠ مع أساليب الدراسة : مع الحياة نفسها مع اللقمة وشظف العيش . الى ان تختمر فى اذهانهم العلوم الدينية .

من أجل ان تستقيم لديهم كفاءة العالم الذى يقود ، ويخدم ، ويحمل النور الى الناس ؛

هؤلاء : طاقات مهمة ، لوأحسن صقلها وتهيئتها ، لكان في المستطاع ، اعتماداً على اخلاصها ، وصدق جهادها . خلق جهاز كفوء يبشر للفكر الاسلامي في كافة أرجاء الدنيا في افريقيا ٠ وامريكا واوربا :

نعم فى اوربا وامريكا ٠

ان حضارة الغرب الآلية أدت الى تشكيل المجتمع تشكيلا ميكانيكياً تذوب فيه انسانية الانسان ، والتقدم الانساني الصحيح كما يريده الاسلام يقاس بما يحرزه الانسان فرداً ومجتمعاً من حرية وتعاون ورفاه :

أما الارتقاء المادى المسخر لنزعات الشر ، فليس إلا تكثيفاً للقيود وإحكاماً للاغلال وشحذاً للبغضاء والعداوة .

وماعليكم بعد ذلك بحياة الصخب التي تحياها المدنية القائمة : وتحت دثارها المهلهل قلق وتردى ، وانهيار لامحيص عنه .

• • •

وحقيقة سيذكرها التاريخ . كان الامام شرف الدين يتابع فعاليات جماعة التقريب متابعة متواصلة ، ودقيقة ، ولاتحسبوا ان تلك الفعاليات كانت تجرى على ارض سهلة ، وفي مناخ طبيعى وهادىء .

انبرت فى حينه اقلام مشبوهة تبعثر (اللبنات) التى كان يضعها المخلصون وفق المخطط المرسوم ويثيرون في وجوههم زوابع وتيارات لاصلة لها ابداً بمقاصدهم وأهدافهم .

وقد فضح السيد الامام ، تلك الاحابيل فى صيحته المدوية الى المصلحين (١) .

إقرأها بتمهل . :

(يتنادى الساسة فى هذه الأيام ، الى وحدة جامعة ، على إلفة تلم الشعث ، وترأب الصدع ، مسوقين بوحى الساعة المهيب بهم الى هذه الدعوة الصالحة التى نأمل ان تعيد لنا عالمنا المنشود ، ودنيانا الفضلى .

واننا لنحمد هذه الخطوات السديدة الى المؤتمرات الكريمة ، في العراق ، ومصر ، وسوريا ولبنان ، وغيرها من معاقل الأمل ، تلك التى يسعى اليها رجال منا برسالة الاسلام والعروبة ، رامين الى البعث والاحياء اللذين كنا من حملة أقباسهما في ظلمات الدهر ، وممن قاد

(١) العدد الثاني ، السنة الرابعة أذار ١٩٤٨ مجلة المعهد اللبنانية

على نورهما شباب الزمن الوليد ، أقول ذلك متفائلا مسرورا ، ولاشك انكم ترقبون أخبار هؤلاء الساسة المجاهدين بتفاؤل وسرور ، متمنين ان يدوم لهم الوفاق حتى الغاية التي يرمون اليها من اجتماع الكلمة ، وترادف العزائم .

ولكن أمراً واحداً يضطرني الى شيء من التشاؤم ، ذلك ان اعلام الفكر من أمثالكم قد يعتزلون الميدان في هذا الفجر البسام ، وقد يخففون من عناء المعارضة لمن تجب معارضتهم ، على ان العناء في سبيل الاصلاح ، من مهور المجد ، وصدقات العقائد التي تجيش بها ضمائر القادة من المصلحين :

وانه لعجب عجاب ان يميل بقادة الفكر ورجال الاصلاح ، حب الراحة عن هذا الميدان الميمون وهم فرسانه في مختلف مراحل التاريخ لايلحقهم لاحق ، ولايطمع في ادراكهم طامع :

وأعجب من ذلك ان يندس في صفوفهم زعانفة ، يحملون رسالتهم ويتكلمون عنهم ، وهم سكوت لاينبسون بكلمة واحدة تسقط عنهم مسؤوليه أبواق اولئك المندسين .

كان الساسة وأشباههم فيما سبق ـ كما تعلمون ـ يحبطون جهود المصلحين ، وقادة الفكر في الدعوة الى المحبة والاخوة ، فكان للمصلح يومئذ عذر وليس، عليه ان يكون موفقاً .

وكنا نأمل في مطلع هذا العهد ان تنسجم الجهود ، وتتساوق بين الشوامخ في هذه الأمة ، فنري اولى الأمر في مجالهم ، يلاقون قادة الفكر الى غاية واحدة ، تجندهم جميعاً للهدف المشترك ، وتشد بعضاً الى بعض في بنياننا المرصوص .

كفى ظهور بعض الناس بنعرتهم ، كاد ان يصيب هذا الأمل المعسول برد فعل مر وخيم العواقب ، فان ظهور هذه النعرات وارتفاع اصوات أبواقها ، في هذه الظروف ، يرمي الى مغزى لئيم ، يرصده المستعمرون والصهيونيون لنجاحهم ، وفشلنا معاً ، منذ وضعوا في صلب سياستهم قاعدتهم الملعونة (فرق تسد) .

واني لاربأ بالعلماء وقادة الفكر الاسلامي في مصر وغيرها مما يسوقه اليكم كل رويبضة يتكلم في امور العامة باسم الصفوف المحترمة وهو ممن لانعرفهم او تعرفه باخلاق أخذها عليه أهل العراق وأهل الشام .

وقد يكون بوقاً للمستعمر ، يرسل به هذا الصوت المنكر بوقاحة وصلف ، ايقاضاً للفتنة بعد ان نامت تحت هد هدة المصلحين ، وحداء الامناء المخلصين .

ومن الحق ان مثلنا العليا ، تربأ بنا عن استعراض ثرثرات يتطوع لها فى هذه الآونة العصيبة نفر لانقول فيهم سوى مايقوله المتحرر عند اطلاعه على قوارصهم التى ضمنت لهم نشرها بمجلة (الفتح) .

وحسبكم منها قولهم . (ان الشيعة يجوزون الكذب لنصرة المذهب (١) وان ذلك هو معنى التشيع اى التحزب ، وانهم بنوا دينهم على معرفة الحق بالرجال ، وان ذلك هو القاعدة الاساسية عندهم في الجرح والتعديل . فالعدل عدل عندهم بمقياس تشيعه وان كذب ! !

(١) ليته دلنا على شيعي واحد يجيز ذلك ، او كتاب فيه حرف يشعر بذلك ، وفي اى بلاد هؤلاء الشيعة ، وفى اى زمن وجدوا (من كان يخلق مايقول) ! ! !

والمجروح مجروح بمقياس تراخيه في التشيع والجزبية . لاشخاص معاومين من أهل البيت ، ما لم يكذب لهم وعليهم : وان اساس التشريع عند الشيعة الذي بنوا عليه احكامهم الفقهية ، رقاع مجهول أمرها لايبنى عليه اى علم في اى دين او في اى عقل ! وفي اى منطق ! ! وانهم قد انفردوا عن جميع الملل بهذا الأصل المختل من اصول التشريع الذى ينهار كل مايبنى عليه ، وان هذه التوقيعات بزعم الشيعة ، هي خطوط أئمتهم في جواب مسائل يكتبونها فى رقاع مجهولة ، ليس لها اية قيمة ولايعتمد عليها فى التشريع ، اى رجل له دين ! ! ولا اى انسان مشتغل بالعلم من اى دين كان ! ! وانهم يرون هذه التوقيعات على على تلك الرقاع البائدة المجهول أمرها ، أرجح فى الدين عند التعارض واقوى في احكام التشريع حتى من نصوصهم التى يصححون اسنادها :

هذا بعض من أراجيفهم التى لوادعاها احد قبل تحرير العقول ، لوسعه الناس انكارا ، فكيف بهؤلاء يعرضونها الآن على الناس ، والناس لايكادون يؤمنون بغير المادة :

أينهم الشعية بهذه الاباطيل ؟ وقد ملاوا الدنيا الاسلامية عدداً نامياً وعلوماً زاخرة ، من عقلية ونقلية ، وورعاً واحتياطاً ، وانتاجاً في كل العلوم والفنون ، وهم أبعد الناس عن التحريف واكثرهم عملا بحرية العقل ، وقد امتازوا بحجية العقل عمن سواهم .

وانه ليعز علينا - شهد الله - ان يقاس على هؤلاء غيرهم من أوعية العلم وحماة الاقلام من اخواننا السنيين :

وانها لنتيجة طبيعية ان يقاس العالم الساكت على الجاهل الناطق حين يقر العالم بسكوته نطق ذلك الجاهل :

ومن يبلغ هؤلاء - عفا الله عنهم - بان الجهالات التى ينسبونها الى الشيعة انما هى دعوة الى التشيع وذلك انها جهالات لايمكن ان يصدق أحد بصدورها من عاقل ، فهى مدحورة حتى أمام السذج والبسطاء ، واذا كان لها أثر فلن يكون هذا الأثر ، إلا ارتياب السواد الأعظم من الشيعة بكل ماعند اخوانهم السنيين من حديث ، وان كان صحيحاً في الواقع ، فان الشيعى حين يخلو الى نفسه ويسألها عن هذه الخرافات التى يلصقها فيه بعض اخوانه السنيين لايجد منها فيه عيناً ولااثرا ، وحينئذ يضطر الى الاعتقاد بانه لاصحيح فى أقوال القوم حتى مايرويه التجاري منهم ، وانه لاورع عند القوم يمنعهم عن الظلم ، والبهتان ، وهكذا يسيء هذا النفر الأرعن الى نفسه والى امته بهذا الغرور ·

ونحن والله لايطيب لنا أن يؤخذ المصلحون بذنب الجهالة ، لذلك ندعوكم الى كلمة ترد عن خياركم وهم من خيارنا ، وحاشاالله ان ينالكم حكم هؤلاء فى نظر أهل الوعى من إخوانكم الشيعيين ·

ولانكتمكم انا نعانى الأمرين فى تهدئة ثائرة ، وإطفاء فائره · : تريد أن تعصف ببحث عن امور تجد عليها أدلة من كتاب وسنة وعقل واجماع .

لكنا الى الآن مستطيعون أن نمسك بايديهم ، بقيا على مانعتقد انه المصلحة لوحدتنا المقدسة ، فأعينونا على ذلك بكم تلك الافواه المفتئتة على الشيعة في مجلة الفتح وغيرها ·

وانى والله لأخشى ان بقى هؤلاء على ماهم عليه ان تكون فتنة تتأدى بالفريقين الى معارك علمية تطغى على المسائل الخيرة في الوصول الى الوحدة،وليس من الوحدةولا من الدين ،ولامن العقل فى شيىء ، ان يهاجم

الشيخ المصلح محمد تقى القمى في (دار تقريبه) وإصلاحه على هذا النحو المهاتر ، واين هي الوحدة التى تتداعى اليها عن الهجوم على دعاتها المخلصين ؟ .

فهل نجدكم عند ظننا ؟ هذا مانأمل منتصرين ان يكون العلماء قدوة للساسة فى الدعوة الى الاصلاح ، والسعى له والتضحية من أجله .

• • •

ولقد كان لهذا النداء أثره القيم فى النفوس يومئذ دفعها الى مزيد من الحيطة والى مزيد من التيقظ والانتباه الى ماكان يريده لها أذناب المستعمرين ، ودعاة المكر السيىء ولايحيط المكر السيىء إلا باهله

ولقد جاء صدى هذه الصحية فى اوساط جماعة التقريب في رسالة أداها سكرتيرها الشيخ القمي ، ونشرها تحت عنوان من المصلحين (١)

ومن أجل أن تتسق عناصر هذه المرحلة في وحدة موضوعية متكاملة ننقل فيما يلي رسالة الشيخ السكرتير وهي موجهة الى سماحته على شكل خطاب مفتوح :

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وحياك الله من ذي همة عالية ، ونفس زاكية ، وقلب جرىء ، ولازالت بمثلك دعوة الحق عالية السناء وهاجة الضياء ، تهدى الحيران ، وتروى الظمآن ، وتهوى اليها أفئدة من الناس في كل عصر ومصر ، حتى يفيء الناس الى كلمة سواء هى كلمة الله و (كلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) .

لقد قرأت ـ ياسماحة السيد المفضال ـ ماسطره يراعكم فى مجلة المعهد) الغراء ، بعنوان الى المصلحين ، كما قرأها فى التوبعض اعضاء

---

(١) العدد الثالث . السنة الرابعة . نيسان ١٩٤٨ مجلة المعهد اللبنانية

اعضاء التقريب وسيقرأها انشاء الله سائرهم ، وقد أحببت أن اعجل بارسال هذا الكتاب اليكم ، لا لازجى شكراً أو أسوق مديحاً وثناءاً فانما يزجى الشكر ويساق المديح لمن جامل أو ناصر في شيئ ليس من همة ولاتما يملأ قلبه ، ويشغل نفسه .

أما السيد ـ بارك الله فيه وأيده بنصره ـ فهو من عشاق الحقيقة المدلهين بحبها ، المستهينين بفوادح الصعاب في سبيلها ، فحسبه عن الشكر لذة الكفاح ، وعن المدح والثناء أن يلمح فى الأفق بشائر النجاح .

ان فكرة التقريب ـ ياذا السماحة ـ قد برزت من محيط أهل العلم والرأى ، حقيقة ماثلة متركزة تعمل عملها فى خطوات متزنة ، وتؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وتصل بين قلوب العلماء والمفكرين فى انحاء العالم الاسلامى كله فتتجاوب لديها أصواتهم ، وتلتقى عندها أراؤهم وأخطارهم ، وان اعضاءها العاملين والمراسلين وأصدقاءها فى كل شعب فهم الصفوة الممتازة من أهل العلم والرأى ، وذوي الغيرة والايمان والتعمق في ادراك احوال المسلمين فى ماضيهم وحاضرهم ومايصلحون عليه ، فاذا قام بعض الشذاذ بالمهاترة ضد هذه الجماعة في وريقة حبيسة لاتعرف ولاتقرأ ، وليس لها فى العالم الاسلامى اثر محسوس ، فليس ذلك بضائرها ولابمعوق رسالتها التى أصغى لها ارباب الفكر والعلم وتلاقوا عليها عاملين مخلصين .

ولذلك آثرنا ان نضرب صفحاً عن هذا الهراء ، وان نمر بهذا اللغو كراما ، وأن نسير في طريقنا غير مشغولين عنه ، ولامصروفين عن الجهاد ، كل الجهاد فيه ، وماذا يستطيع هؤلاء الشذاذ أن يضعوا وقد

أيد الله فكرة التقريب باعلام العلم ، وانصار الحق ، من كل جهبذ في قومه ، وصدر فى وطنه ، واولئك هم اولو الرأى الرشيد ، والسعى الحميد ، إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا :

أما انا - ياسيدي - بوصفى عضواً في هذه الجماعة ، فقد عاهدت ربى على ان أهب هذه الفكرة كل مااستطيعه من قوة وجهد ودأب حتى يظهرها الله أو أقضى دونها ، وانى لأجد كما يجد جميع زملائى الكرام في امثال هذه الأثارات والعصبيات ، مايدفعنى ويدفعهم الى مواصلة العمل ، ومضاعفة النشاط والجهاد ، وتجديد القوى وتركيزها في سبيل النجاح المنشود ، إذ يساق الينا الدليل القاطع ، من هذه المنازعات والخصومات والاثارات ، على ما نحس به من حاجة المسلمين الماسة ، الى ان يعرفوا حقيقة دينهم ، وماتصلح عليه امورهم ، وتستقيم به شؤونهم ، وألا ينصتوا لامثال هذه الأراجيف والاغاليط التى تصدر من آفاق ضيقة ، وافكار قاصرة او مضطربة ، فلو لم يكن في هذا الطنين إلا استثارة القوى وحفز الهمم للقضاء عليه ، وتطهير المجتمع الاسلامي من أسبابه ومصادره لكان فى نظرنا خيراً وكسباً لفكرتنا وفكرة جميع المصلحين الفاقهين ، من ابناء هذا الدين ، من مختلف البلاد والشعوب (وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خيرلكم) :

فالحمد الله الذي ربط على قلوبنا ، وبصرنا بالدواء الناجع لاصلاح امتنا ، ويسر لنا سبيل الدعوة والبلاغ ، والاسماع والاقناع ، وان لنا فى انبرائكم للدفاع عن فكرة الحق ، والذود عن حياضها ، ومناشدة المصلحين التأييد لها ، وأخذ الحذر من أعدائها ، وفيما نلمسه كل يوم من اتساع مداها ، وانتشار نورها على كره من المبطلين الجامدين ،

تروى الاهواء والتعصب ، وان لنا في ذلك كله لقوة وفخراً ، ومضاءاً وعزما ، وماكان لنا ـ نحن الدعاة الى القرب والالفة ـ أن نصغى الى الى نعرة الخلاف والفرقة ، ولكننا ندعو ونذكر كل من كان له قلب ، او ألقى السمع وهو شهيد ، ونعرض عن القاعدين بكل صراط ، يوعدون ويصدون عن سبيل الله ، من آمن ويبغونها عوجا ، ونصبر حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين (وسع ربنا كل شيىء علما على الله توكلنا ربنا إفتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين ٠

وسلام الله ورحمته وبركاته عليكم ، وعلى كل من اتبع الهدى وآزر الحق ، وجاهد في سبيل الله حق الجهاد ٠

٠ ٠ ٠

هذه الصفحة المشرقة من كفاح جماعة التقريب على ارض الكنانة وهي في مقتبل حياتها ، تكشف عن التصميم المؤزر بالوعى الاسلامي الذي نهضت به ضمائر اولئك الاعلام ، فكان عاملا حاسماً في استمرار دعوتها ، قوية ، صلبة ، لاتلتفت الى الوراء ، ولاتهتم بما يثار (زوراً) حولها من مفتريات وأقاويل ٠

ومالاريب فيه ان الجهود الفردية لاتستطيع باى حال من الاحوال ان تستقطب رصيداً محترماً مهما تفتحت أريحيتها بالبذل والسعى المتواصل ٠

وأهم مايثار في هذا الباب ان تستوى المسألة على قاعدة من التخطيط العلمي الذي يحدوده عمل جماعى هادف ، وتقدير جرىء ، وصبر لاتنقطع حباله رائحة بارود عابرة ٠

ان مسألة طرح افكارنا على كافة المستويات ، وعلى هدى من

جهاد جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية ، لايمكن ان تنتقل الى صعيد التطبيق العملي مالم تتبناه قيادتنا الروحية في النجف الاشرف ، فعندها وحدها القدرة والامكانية والعزم والايمان ، وهذه الأمور تسهل القصد ، وتمشي بقضيتنا الى الامام خطوات وخطوات :

• • •

هذه لقطات تعن للباحث حين تنثال عليه أفكار من واقع ظروفنا الحاضرة ، فيحاول بقدراته المحدودة ايجاد مخارج لها : وبقي علينا ان نصل الى مركز الدائرة في هذا الفصل : الى الكلمة الحية التى ستكون وسيلتنا الى معرفة دور الامام شرف الدين فى هذا الجانب من حياته العريضة :

كتب سماحة الشيخ محمد علايا مفتى الجمهورية اللبنانية السابقة مانصه (١) .

(ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجره طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الامثال الناس لعلهم يتذكرون) .

شجرة طيبة قدمت نعيم قبلها للناس فوحاً وثمرا ، وسكبت آنيتها المقدسة الملىء في دنياهم سكب السخاء ديناً ونوراً ، وأعراساً وحبوراً وأنداءاً وعطوراً ، فكان يجد عندها المكدود الذى أرهقه عنت الطريق ماشاء من راحة ، وطمأنينة قلب :

هذه الشجرة الطيبة هى حكاية المعنى لفقيدنا الكبير الذى كان

---

(١) الجزء السابع . السنة الخامسة ١٤ كانون الثاني ١٩٦٠ . مجلة النهج اللبنانية .

للتاريخ مذ كان للحياة ، ونحن ازاءه نجد أنفسنا مدعوين للحديث عنه أردنا أم لم نرد ، انه ملا دروبنا بالأعجاب وليس الخادع ، فلابدع ان نملا دربه بالورود ، وليس المزوزه من درق مضوع ناحل ، نعم مثلما يرجم الجندي الظافر ، هو رجع الى ربه ، في قلب شعلة ايمان وفى يمينه لألأ ماقدم من قربان ، وعلى جبينه أكاليل ثمار إزدانت بالروح والريحان .

في الحياة الدنيا يكون الانسان ذاتاً تعمل أعمالها ، فاذا انتهت الحياة ، انقلبت اعمال الانسان ذاتاً يخلد هو فيها ، فمن الخير هو خالد في الخير ، ومن الشر هو خالد فى الشر ، حتى لكأن الموت لم يكن إلا ميلاداً جديداً للروح ولكن من أعمالها وجاء الموت على الارض ليكون معناه ان الانسان حي في قانون نهايته ، فلينظر كيف ينتهى ،إليه يصعد الكلم الطيب والعمل يرفعه ، وحسب فقيدنا الكبير انه من عترة هى الكلم الطيب ، وانه من نبعة هى العمل الصالح :

انني لن أتكلم في السيد كثيراً ، فعند غنى مناقبه ينضب معين القول ، والناس مثل بيوت الشعر ، كم رجل منهم بألف ، وكم بيت بديوان ، ففى العلم حدث عن البحر ولاحرج ، وفى التقوى لعلها اتخذت من قلبه محرابها ، ومن ضميره هيكلها ، مثلما جاء فى الحديث القدسى (ماو سعتنى أرضى وسمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدي المؤمن) .

ولكن مهما كفكفت من بياني ، فلايسعنى إلا ان اذكره يوم تمرد تمرد الشامخ على المستعمر ايام فيصل ، واراه كبرياء الأزورار امام مغرياته :

اقول : السيد عبد الحسين ، وكان الوطنية ، يوم كانت آلاماً

وتضحيات حمراء ، وكان النزاهة يوم كانت حكاية تروى ، وكان الفكر الحر النير يوم كانت حرية الرأى سبيلا الى الاعواد ، وكان الصراحة المجاجلة الهادرة يوم كان الهمس الرعديد عنوان جرأة واستبسال

السيد عبد الحسين هذا رجل يعز على الرثاء ، ليعش غلاباً مارداً صنو غلابه ، وعزمة جميعة من عزمة أعصابه ، وطلاباً مقتحماً يحكى روعة طلابه ، وامثولة يقصها العربى في سفوحه وهضابه ، وتلاوة صلاة يبثها مضمخة بالعبير من أحقابه الى احقابه ، ومن حضوره الى غيابه ، راضخاً في اطار قدس ملامح رجل أقدم فى الروع ، فى الهول ، ومارتد على اعقابه .

انا على مثل اليقين بان فقيدنا من وراء هذا المنحني الأرضى الذى يفصلنا عنه ، ينعم اليوم بتحقق حلمه في النضال كما ننعم ، ويغتبط كما تغتبط ويقربه عينا كما نقربه عينا ، فهذه اليقظات الشعبيه المارده والأنتفاضات الحرة الماضية الى ماتريد ، أشاء ام لم يشأ السادة العبيد ، تملا بالغبطة قلوب الذين انطووا على اهبة الصراع ، حقيقة حياة ، وخطة عمل ، ومنطلق ثورة :

لقد دل هذا اليوم النضالى المنعم بكبرياء الشعب ، وارادته وعناده على انه حلم عيد في قلوبنا نتلفت اليه كآمل منتشر ، ونلتمس طلته فى الدروب والمفارق ، ثم كان هذا اليوم ، وكان شيئاً كبيراً ، كان كبيراً في تحققه وعياً ، وفي تجسده ارادة فاعلة ، وقوى مطورة ، ثم كان كبيراً ايضاً في انه سجل او كاد النصر لنا ـ نحن الشعوب ـ في كل الميادين .

ثم اذكر فقيدنا أيضاً وقد استفاق على جهالة مدلهمة ، وليس

ضحاياها إلا الانباء ، وعلى طفولة مضيعة يعتصرها أسى يتساقط مع حبات الدمع الى قرار مخيف :

ورأى ثمة كيف ينكل المترفون الآثمون فى المجتمع ، كيف يحكمون بالحملان أنياب الذئاب ، وكيف يمسخون ترنيمة البلابل ، فيجعلون في لحنها نعيب الغراب .

وكيف يحولون القراح العذب الى مرير الشراب ، وكيف يصغون من انسان المجتمع إنسان الغاب فسهر على كل اولئك المضيعين بحدب الراعى الكريم .

عين له مع الناس ، وخفقة قلب له مع الله ، معهد ، بعرق تعبه الأقدس جبل ترابه ومن فلذ قلبه قد حجارته ، وسوى لبابه ، ومن مثل رؤى الله في تبتل المؤمن طلا سدته وبابه ، فليشهد الكافرون بالنعمة نعمة الوطن عليهم ، كيف يشقى الوطنى الحق ويستعذب عذابه :

ايها السيد الخالد . سيرتك وذكراك ستظل منشرة في صحف مطهرة بايدي سفرة ، كرام بررة ٠)

كلمة رائعة حقاً ، تؤكد حرارتها انها مستمدة من معرفة تامة بدور الامام شرف الدين فى حياة الفكر الاسلامى ، نتلاقى هذه المعرفة بود خالص ، واريحية اسلامية سامحة .

فالى لون آخر من الوان هذه الرابطة الانسانيه المحضة .

كلمة بولص بطرس المعوشى بطريرك انطاكية وسائر المشرق .

يقول غبطته (١) .

(شق علينا أن يغيب الثرى وجه صديق كريم كوجه المغفور له الامام

---

(١) المصدر ، السابق نفسه .

العالم ، والمتجهد العامل ، والزعيم المطاع ، السيد عبد الحسين شرف الدين لقد عرفناه عن كثب ، وخبرنا فيه صفات طيبة ، وسجايا نبيلة أكسبته عدداً كبيراً من الاصدقاء والمعجبين ، وأنسنا باحاديثه التى كانت تنم عن ايمان راسخ بالله يوشيها أدب رفيع وعلم جم .

وقد عمل رحمه الله بوحى ايمانه فكان في عشيرته مرشداً وهادياً بما علم ، ونشر في أسفار قيمة ، تشهد له بطول الباع في علوم الدين ، فلاغرو اذا اكبرنا واكبرتم المصاب به ، انما عزاؤنا انه قضى حياة علم وعمل ، نرجوان تؤهله للظفر بالنعم في عالم الخلود) .

وتحت عنوان فقيدنا تراث انساني ، نشر الكاتب التقدمى العربى كمال جنبلاط ، كلمة مفعمة بالحس والتأثر ، والمعاني الكبيرة وهي .

(يختلف الناس فى التاريخ ، ويتوزعون الى اتجاهين ، مندفعين بتيارين ، فى الموقف من الحياة ، والتصرف بمشكلاتها .

فمنهم من يأخذ الواقع كما يجىء ، وكما يفرضه تطور الأحداث ، موقناً ان دارنا الفانية هذه المحجوبة بعامتها لابخاصتها عن اشراق الحقيقة ، انما هى دار ازدواج وتناقض ، وتعاكس متصل ظلمة ونور صواب وخطأ ، جحيم عذاب ، ونعيم جنة ، كل يعكس فيها مايختزنه من وميض الأزل ، فالدينا ، هكذا - عند هؤلاء - وستبقى هكذا الى ابد الآبدين ، لايصلحها مصلح إلافترة ، ولايقوم اعوجاجها نبى ولاصاحب دعوة إلاحقبة ، ثم تعود البشرية تثقلها او ضارها ، متحدرة نحوما كانت عليه لانها بعد كل شيىء من دم وروح ، ولايمنع هذا الاعتبار - عندهم - احدنا ان يقوم بدوره ' كل دوره من تبديد الحجب واضاءة الطريق ، قدر مايستطيع ، ولايطلب منا إلاماتوفره لنا

القدرة من مقاييس وانطلاقات في شؤون الحاضر والغد ، وهكذا يستمر المجتمع يعيش ببقاء الصالحين وانتشار أرواحهم ولوخلا زمن من الأبدال انقهقر الكون - اذن - وانعدم .

والفئة الثالثة تؤمن بالحق وبتحققه صريحاً لامزيجا ،وتدين بتطوره فى لبه وقشره . في كينونته الداخلية وصيدورته الخارجية ، فى شكله ومحتواه .

هذه الفئة بسيطة النظرة بساطةلاتركيب فيها ولاازدواج ،والحق في ذرها (مثال) كمثالات الافلاطونية القديمة قبل تشخصها بالاشكال والاجساد ، وقبل ان يذهب المعلم اليوناني الى احدى جزر أتباعه - وقد حكم عليها - ويضطر بعد قليل من التجربة الى الهرب منها خوفاً على حياته ، متخذاً من سقراط ومصيره عبرة إذ قال :

(لو قدر لى أن اتعاطى الشوؤن العامة لأصابنى حظ من حب الحياة)

كان على بن ابى طالب بطلا على هذا الغرار ، وماكان فضال المتشيعين له من أجل فكرة السلالة او الخلافة لأجلهما ، والله وحده يرث الأرض ومن عليها ، وانما كان نضالهم في سبيل فكرة الحق المحض ، ومحاربة الواقع الذى شاه عكس ذلك ، وما من شيء يعز انا استمرار التمسك بهذه الفكرة وبهذا النضال ، سوى فكرة خدمة الحق لاجل الحق ولذاته ، وان كان هذا فى مستوى الخلافة ، في مستوى الاجماع : فى مستوى السياسة ولم يتجاوز الاختلاف جوهر المعتقد الواحد :

واذا شئنا ان نصف فقيدنا الكبير المجتهد العلامة ، وان نضعه في إطاره التاريخي ، استطعنا ان نسلكه فى سلسلة الأئمة والقادة من القمم

البشرية عبر العصور ، ونعده احد تلك المجموعة النيرة التى برزت ، وتألقت وتعاقبت على الايام جبالا انسانية حقيقية تتعالى وترسخ متوالية منذ بداية الدعوة حتى يومنا .

وفى الواقع كان في الفقيد شيىء كبير من روح علي ، كان يبرز ويرتفع في قوة واعتلاء على من سواه ، كأنه قمة الطود بالنسبة لسهول العامة ، وكان على الاغلب يستمد شموخه هذا من ديمقراطية متقدمة ميزت شيعة الاسلام بحرية الانتقاد وحقه ، وبالأجتهاد عبر العصور الثقافية ، وهى ديمقراطية تعتنى بالكثير من التراث المتراكم على هذه البقعة من دنيا المعرفة ، قبل الاسلام ، وبعد الاسلام وكأنها انفتاح رحب وتطلع مدهش على تطورات الحقيقة من افلاطونية قديمة ومستحدثة ، ومن انشاء تاريخى ، واقتباس اسكندري ، وحتى شيىء من معطيات الشرق الاقصى . . هذه الديمقراطية المتبلورة ، المتفتحة ، فرع من أصل وقد تميز الجذر العربى الاسلامى بها ، وكانت صفته وعنوانه ، وطابعه الخاص :

هذه الديمقراطية السمحاء المشار اليها ، توجها واذكاها ، وحدب عليها ، ونهض بها عبر العهود المشرقة والمظلمة ، عمود فقرى حقيقى بارز من كبار الرجال ، هم طليعة فى حملة الرسالات ، تقدموا وفي نفوسهم شيىء كثير من روح (على) نفسها ، ومحض توجهه وسلوكه

عرفنا الفقيد الكبير عن قرب ، وفي مناسبات من معارضتنا الشعبية فى بعض مااختل وفسد من أنظمة الحكم ، وكان رحمه الله لايطيق الاعوجاج ، ولايحتمل الاختلال ، ولايحترم سلطة جائرة ، ولايجامل كبيراً اذا وجب قول الحق أو فعله ، فكان يجابه الباطل ، ويدفع

التعسف والطغيان :

عرفناه قمة من هذه القمم المتتابعة على مر التاريخ ، تحوى خصائص السهول وتقودها ، لانها ترفعها وتشمخ بها .

وللمسافة بين ذهنيتى الفريقين المشار اليهما قياسان : الانتشار الأفقى السطحى ، والانطلاق العمودى ، اى الانتشار الاعتلائى الارتفاعى ، فبالأول تقاس ذهنية من يقبل الواقع كما هو ويسايره ، وبالثانى تقاس ذهنية المتمسكين بمايبدو فى الاشياء من الحق الصراح ، ان هذا النوع من عدم التوافق يقسم الناس كما قلنا ـ نصفين ـ ويديرهما حول قطبين ولم يكن الفقيد إلامن هم فى صلابة تصورهم ، وصوابية قصدهم ، يؤمنون ان الاشياء والوقائع يجب ان تكون هكذا مستقيمة بلاعوج ، ولااستنساب ينعدم فيه شيء من الجوهر الأصيل ، والصراط السوى النهج :

وهل تستقيم امور هذه الدنيا لمن يمشى ، او يحاول السير على حد السيف فلايتأثر ، ويترنح ولايهوى ؟ .

هكذا رأى الحياة فكان له جهاد ، واجتهاد ، جهاد ينطلق وينبعث من اجتهاد من يفكرون ويكتبون ، ويتأملون ويناقشون ثم يؤمنون ، فيفعلون أعمالهم انعكاس لصور نفوسهم ومثالات لسبرتهم ، وانه لشأن الصدق في الحياة ، والصدق يبدأ بنا ، فهو الموافقه والمطابقة لما نستثيره من توهجات الحقيقة فينا وهو الجهاد الاكبر والاجتهاد الارفع ومن هنا على الد وام نبدأ :

كان الفقيد الكبير الذى عرفناه وقرأناه بعض الشيء في سلسلة قادة الرأى والتصرف محاولة ضخمة ومثالا حياً للجهاد والاجتهاد .

ولايختص بذلك شيعة ،بل لكل شيعة على وجه الارض اجتهاد وجهاد ، كل يرى وجهاً متألقاً من وجوه الحق الواحد الفرد ويتخيله وبمدده حلال تصورات نفسه، جميع البشر على اختلاف شيعهم يتوجهون في محاريبهم نحو الحق على اجنحة منازعهم واشواقهم الى فجر الهداية كلهم شيع الله يختلفون ويتنوعون ويتسابقون فى الوان العبادات وأشكال المحاريب ، ويجتمعون ويتلازمون ويتوافقون ويتوحدون ويوحدون فى الجوهر :

لهذا ماكان مثال الفقيد الكبير يختص بشيعة وبمعتقد معين ،وانما كان من التراث الانسانى الشامل واننا لنستجلى به معانى القدوة وصرف التوجه الى الحق وصلابة الرأى الذى كان يمثله بيننا) :

ان هذه الكلمة لعمق مااحتوته من آراء ومن عناصر ربط متجددة لاتوفى الموضوع الذي قامت من أجله فحسب، بل تعتبر مفتاح دراسة على هذا النمط تدرك به الحقائق الكبرى في دور الامام شرف الدين الانسانى :

ان الاستاذ جنبلاط بوصفه من قادة الفكر العقائديين ومن الذين يتمسكون بحرفية نظرتهم الى الاعمال الفكرية أدرك لاول وهلة من اين يجب ان ينظر الى الامام شرف الدين وعلى اى مقياس .

وعندى . ان الرجل قد أصاب في رسم هذه اللوحة .

وكتب الاستاذ يوسف سالم تحت عنوان شخصية الرائد الكلمة التالية

(كان الامام شرف الدين حجة الدنيا على أهلها مثلما كان حجة الدين على الدنيا، فالذين أنكروا من أمر الرواة مانقلته عن سير المصلحين الغابرين والذين قالو اهل ترك الاوائل للاواخر قد جاءهم بهذا الامام

البرهان المبين بان شعلة الهدى لها في كل عصر منارها وان اعلام الحق لها في كل زمان انصارها وان الله صادق فى قوله :ولكل قوم هاد

لقد شاءت رحمة السماء ان يطلع فى سمائنا هذا الكوكب النير فأطل على زاوية من الارض في فترة من الزمن كان فيها نور الهداية في حاجة تلح على الناس وتمسهم مس الحاجة الى الغذاء والهواء ،فاستنار القوم طيلة نصف قرن بهذا اللالاء ،الدافق واسترشدوا به فى مسالكهم فى ظلمات الجهل والحيرة ، الى رحاب المعرفة ومواضع اليقين ، ومنازل الصواب ٠

اما اية الامام الكبرى ، ووسيلته المثلى فهما انه علم بالقدوة والسيرة الحسنة مثلما علم بالقلم والموعظة الحسنة، فاذا حدث الناس بهوان الدنيا وزوال حطامها ، فقد وعظهم بهدا حياته ، قبل ان تعظهم كلماته ، ان الزاهد بها وهى مقبلة عليه ، المعرض عنها وهى جاثمة لديه ويزدرى مايستهوى البشر من مفاتن ومغانم ، فهو الغنى عن ثراء الدنيا بما استغنت به نفسه من كنوز المعرفة والفضيلة ، حتى اليحس أهل اليسار انهم هم الفقراء الى فضله ، المحتاجون الى عطائه ، واذا أهاب بالقوم ان طهروا نفوسكم او ضار الذل والاستسلام ، ارتفعوا بها عزيزة جريئة ثائرة على الطغاة ، شديدة على الظالمين ، عتية على العاتين ، فقد أهابت بهم قبل ذلك قدوة أخذوها عنه ، ومواقف عرفوها منه ، إذ رفع الصوت عاليا مدويا ، وتحدى طغيان المتجبرين وكيد المستعمرين فنشر الحرية والعدالة ، وكرامة الانسان ، يوم غاب النصير وعز الظهير واذا كان لنا اليوم ان ننعم بهذه النهضة المباركة ، ترتفع بمجتمعنا وتنهض بنا على قواعد العلم والحرية والاخلاق الفاضلة ، فان حق الوفاء

علينا ان نذكر فضل الامام الكبير ، المصلح الحكيم ، والقائد الشجاع فهو الذي فتح لنا أبواب المعرفة ، وسار أمامنا في طريق الكرامة ،فتأتى لنا بنعمة فضله وارشاده وبفضل صموده وجهاده ، ان نرى حولنا جيلا جديداً من بنى قومنا قد أخذوا من العلم باوفي نصيب ، ومن الثقافة بقدر غير يسير ، فكأنهم وثبوا فى برهة نصف قرن مسافة مئات من السنين ، فاذا هم قد أدركوا ركب الحضارة السريع ، وأصبحوا منه في الطليعة ، وكان لهم ولامتهم الشرف الكبير والغنم الكثير .

فى جوار الله انسان قبس من نور الجنة فأضاء في الدنيا وتزود من جهاد الدنيا فأقام في الجنة ،ان له الثواب الذى اراده ، فهيأت ان يكون تكريمنا هذا له مثابة ، بل انه تذكرة ومثاب ، وشهادة صدق بان الأوائل قد تركوا للاواخر ، وبأن لكل قوم هاد ، وبان انوار الجنة أزلية اللألاء ، فليقبس من شاء ، وليستنر من شاء .

ربنا افتح بينا وبين قومنا بالحق . وانت خير الحاكمين) .

هذه صورة اخرى نقلنا اليها قلم الاستاذ يوسف سالم تدور فى اتجاه (درامى) يفترق عن النهج الذى اراده الاستاذ جنبلاط ، او سماحة علايا ، او المدوش ، فى معرض النص على الخسارة الكبرى بفقد الامام شرف الدين.

والحقيقة . بين يدى اكداس من الكلمات والمراثى والاقوال والرسائل تتحدث عن السيد الامام ، ولكن كما قلت أختار المضامين الدالة على ملاحظات فكرية تتسق وهدف هذه الرسالة فى التوعية والتركيز والنظرة الهادفة .

وهذه كلمة لسياسى لبنانى عريض السمعة ، له من سنه وخبرته

وحنكته وسائل تعطى لرأيه قيمة ، تكون لدى المعنيين فكرة واضحة عن رأى الساسة الحاكمين - بعضهم - في موضوعنا هذا . هو الاستاذ الحاج حسين العويني .

كتب يقول . .

(أجمع لبنان والعالم العربى في هذه الفترة من الزمن اجماعاً منقطع النظير على تقدير رجل الدين سماحة المجتهد المجدد الشيخ عبد الحسين شرف الدين ، وقد تيسر لهذا الرجل اجماع الطوائف والمذاهب على محبته واحترامه ، وحسبنا ان نستعرض أسماء مؤبنيه ودارسيه ، وحاسبى مزاياه ومناقبه ، حتى نؤمن بان فى هذا الرجل العظيم صفات ألفت حوله قلوباً من مختلف الطوائف ، وجمعت على محبته النفوس ، صفات يندر ان تجتمع فى رجل واحد .

ومن هنا سر عظمته ، وسر اجماع الناس على تمجيده والانضواء تحت رايته ، اربع صفات كل واحدة منها تكفى لتخلق رجلا عظيماً فكيف هى اذا اجتمعت كلها فى شخص واحد ، هو علامتنا المجتهد الأكبر .

الصفة الأولى : هي العلم الصحيح . العلم المبنى على التنقيب والتحقيق والتدقيق ، والفهم العميق لروح الشرائع قبل الفاظها ، هذا العلم يمتزج عند علامتنا بالتواضع شيمة العلماء الاعلام ، فلايزهو ، ولايشمخ ، ولايعتد بنفسه . ولكن يعيش فى ديمقراطية العلماء ، وزهد العلماء ، ومشاركتهم للجماهير في أفراحهم وأتراحهم .

واما الصفة الثانية التى يتحلى بها علامتنا المتواضع فهى الجرأة التى ترفعه عن مستوى الطامعين الخادعين : ان الامام الكريم يمثل رجل

الدين الجرىء الذي لايخشى في الحق لومة لائم ، رجل الدين الذى يقول للحاكم العاتى ، أخطأت وللحاكم العادل ، أصبت . رجل الدين الذى لايبيع دينه بدنياه ، ولايساوم لاعلى دنياه ولادينه يقف في وجه المستعمرين ،وأذناب المستعمرين ويقول لهم وهم يحاولون اشاعة الفرقة بين ابناء الوطن الواحد .

لا . لا انكم لن تجدوا عند رجال الدين (امثال عبد الحسين شرف الدين) المطية السهلة التى تركبون ولكنكم واجدون فيها الصخرة العالية التى تتحطم عندها محاولاتكم واجراءاتكم .

ان وقفات إمامنا الكريم فى وجه فرنسا وعملائها حفظت لجبل عامل كرامته وزعامته، واننا لمدينون له بهذا الجيل الجديد فى العقائديين الذين يحملون رسالة شرف الدين ويجاهدون فى سبيلها اليوم ضد اذناب الاستعمار كما جاهدوا ضد المستعمرين انفسهم بالأمس .

واما الصفة الثالثة . فانها العزة ،والعزة لله ورسوله والمؤمنين .

كان عبد الحسين شرف الدين مؤمناً ولذلك فقد كان عزيزاً . ان كل مؤمن عزيز ، وحينما تجد الذل فانك لاتجد الايمان ولكنك واجد المتاجرين بالايمان الذين يسخرون الأديان للاهواء والمنافع الخاصة

عاش عبد الحسين شرف الدين عزيزاً فهابه الظالمون، ومات عزيزاً فبكى عليه المخلصون . ولذلك نجد الدنيا قد أجمعت على تقديره لانه يجد مثلنا فى الدنيا فى عزة وسؤدد .

واخيراً ننحنى باجلال واحترام امام الميزة الرابعة التى جعلته فى عداد الابطال الخالدين . انها مزية التسامح . كان عالماً جريئاً عزيزاً ولكن كان فى الوقت نفسه خيراً رحيماً متسامحاً، يدعو الى الالفة والمحبة بين

الناس ، ولاسيما بين مختلف الطوائف والمذاهب ، انه اول من دعا الى نبذ هذه الخلافات الوهمية القائمة بين الشيعة والسنة وهى - يشهد الله - من عمل الاستعمار ومخلفات السياسة ، فمتى كان المسلم سنياً ، ومتى كان شيعيا ، وهل كان الرسول الاعظم صلوات الله عليه ، والصحابة الكرام ، سنيين أو شيعيين ؟ ألاساء ماغرسته السياسة والحزبية وساء ماتمسك به الدخلاء من ظواهر وهمية وأحقاد خيالية .

اننا في المجلس الاسلامى نريد ان نخلد ذكر الراحل الكبير لاعن طريق الكلام المنمق ، ولكن عن طريق العمل بما دعا اليه السيد عبد الحسين شرف الدين . اننا نريد ان نعلن عزمنا وتصميمنا على محو هذه الفرقه بين السنة والشيعة ، وافتتاح عهد جديد من الوحدة الدينية نطلق عليه اسم (عهد شرف الدين) .

وانه لشرف لنا اجمعين ، وانه لشرف للدنيا والدين . انه تحقيق لرسالة سيد المرسلين) .

دعوني انتقل بكم الآن الى ميدان آخر . الى صميم الدار . الى أهلها. لنرى كيف عرفوا السيدالقائد . آراؤهم،وانطباعاتهم واحاسيسهم وعلى هدى القول المشهور ، الفضل لايعرفه إلا ذووه . سنأخذ من أفواه اعلامنا . غرر مشاعرهم في هذا المجال .

وها انا أنقلها اليكم ، حسب حروف الهجاء من اسمائهم الرفيعة قال آية الله الخوئى السيد ابو القاسم الموسوي أطال الله بقاه (١)

(التقيت بالفقيد الراحل في لبنان عام تشرفى بحج بيت الله الحرام

---

(١) راجع مجلة النشاط الثقافى التى تصدر عن جمعية التحرير الثقافي بالنجف الاشرف ، العددالخامس السنة الأولى .

والتقيت به فى زيارته للنجف الاشرف ، وفى كلمتنا المرتين لمست في خلقه عظمة لاتجارى ، وفي آرائه سموآ لايدانى ، وان جهاده في سبيل الاسلام لايكاد يجهله احد ، ولايسع كل من براجع كتبه إلا ان يستفيد منها الحقيقة ويخضع لها مهما كان قويا فى آرائه عنيداً فى معتقداته ، وقد وفق كل التوفيق . فى ذبه عن شريعة الاسلام وفى انتصاره للمذهب الجعفرى بالسبيل الأقوم ، والدعوة الى الاصلاح ، جزاه الله عن الاسلام خير جزاء المحسنين ، وقد ترك وراءه ثلمة لايسدها شيئ ، وخلف فى المسلمين رزءاً لاينسى وجرحاً لايندمل :

حشره الله مع أجداده الطاهرين وخلد ذكره فى المجاهدين) .

وقال الحجة المجاهد الطهرانى محمد محسن الشهير بآغابزرك .

ماذا يقول الواصف في راحلنا العظيم ، فقيد الاسلام والمسلمين فقيد العلم والدين . فقيد القلم والمنبر ، أكان مجتهداً بارعاً ، أم خطيباً مصقعاً ، ام باحثاً ناقدا . أم مجاهداً دائب المناضلة ، عن الدين ، دائم المكافحة عن المذهب الحق .

نعم هو كل ذلك ، تشهد له به المحابر والمزابر والكتب والدفاتر أهل طالعتم المراجعات ؟ أم هل تأملتم فى الفصول المهمة ؟ . أم هل سمعتم ان احداً كتب في الاسلام حقائق مدرجة في ابى هريرة كما كتب الفقيد ؟ . الى غير ذلك من الآثار العلمية الكثيرة ، والمعاجز القلمية الباهرة .

اللهم ارزقنا الصبر على فقده . وأسكنه بحبوحة خلدك ، ورضوانك

وقال آية الله الشيخ حسين الحلى :

كان الفقيد ـ قدس سره ـ من أعاظم العلماء العاملين في سبيل اعلاء

كلمة الحق ونشر لواء الاسلام ، وان مؤلفاته الخالدة ، ومواقفه المعروفة لخير دليل على ذلك ، فقد خسر المسلمون بوفاته خسارة عظيمة ، وترك فراغاً وثغرة في الاسلام لاتسد إلا بعناية من الله سبحانه ، ونظرة رحيمة من ولي العصر أرواحنا فداه :

نسأله ان يعظم للمسلمين أجرهم ، وأن يحشره مع أجداده الطاهرين

وقال آية الله المغفور له الشيخ عبد الكريم الجزائري :

إني أعرف فقيدنا الراحل منذ قديم الزمن ، رجلا قد بلغ في العلم والأدب الدرجة العليا ، كما كان محيطاً بالتاريخ الاسلامي احاطة كاملة وكان ذا قلم سيال رافق صاحبه طيلة عمره الشريف ذاباً عن حوزة الدين جارياً في ميدان النضال عن شريعة جده سيد المرسلين ، لايكل ولايمل مضافاً الى ماتحلى به من الاخلاق الفاضلة الاسلامية ، وسيرته الحسنة اللتين بهما امتلك القلوب ، واجتذب الالباب ، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته) .

وقال الامام السيد محسن الحكيم :

(ان السيد شرف الدين معدن رحمة واحسان ، فلايفيض إلارحمة واحسانا) .

وقال آية الله محمد الجواد الطباطبائي التبريزي .

(كان انساناً ذا انحاء تلتئم خلقتنا بطانه على العالم ، والعبقري المتحرر ، والمفكر الجريء ، والمفوه الخطيب ، والمغامر والمجاهد .

هذه امة من الابطال ، وقد جاءت في بطل من الأمة ، فمثله كمثل

النفس في وحدته كل القوى ، ومن شاء ان يعرف مبلغ بطولته ، ويطلع على جهوده وجهاده ، فما عليه إلا ان يقف عند مراجعاته) .

وقال آية الله آل ياسين حفظه الله وابقاه :

ان فقيدنا الراحل آية الله شرف الدين هو احد اولئك الافذاذ من علماء هذه الأمة الذين نهضوا بتأدية رسالتهم كما ينهض الأنبياء من الرسل بتأدية رسالاتهم :

واذا كان نبينا الأعظم (ص) قد أدى الى امته رسالة ربه ، ودعا اليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتحمل فى سبيلها ماتحمل من ظلم وضيم ، حتى أخرج الناس من الظلمات الى النور ، ثم تعاهدها من بعده أو صياؤه الابرار صلوات الله عليهم ، فأحاطوها برعايتهم ، وأمدوها بعنايتهم ، وحرسوها من النكسة والضياع ، فان فقيدنا العظيم بسيرته المثلى التى اضطلع بها طوال حياته المديدة لم يكن إلا انعكاساً لضلال اولئك الأئمة العظماء فى جهادهم وجهودهم ، فقد أخذ على نفسه مأخذه اولئك العظماء على انفسهم من النهوض باعباء الدعوة لهذا الدين الحنيف ، والقيام بما يفرضه الواجب من التبشير بالمبدأ والعقيدة بكل مايملكه من وسائل الدعوة والتبشير ، فكان لقلمه ميدان ، ولفمه ميدان وايده ميدان ، وكان فى كل هذه الميادين فارسها المجلى ، وبطلها المغوار وحسبك شاهداً على بطولته في ميدان القلم ، آثاره الخالدة التى تركها غرة في جبين الدهر ، لانفتأ تشع بالخير والجمال والنور ، وتحمل مشعل الهداية ساطعاً وهاجا في غمرة من الظلمات الحالكات . فتضيء به السبيل لمن ضل السبيل ، وتكشف غياهب الشكوك والشبهات عن آفاق الحق والحقيقة ، وتهدى التائهين الى وطن الأمن والسلامة حتى لقد

اهتدى على ضوئها مثين ومثين من الناس، ممن كانوا لايهتدون الى الحق سبيلا
وهكذا شاء الله تعالى ان يجرى على قلمه من الدلائل والبينات والبراهين النيرات مايجعله آية من آياته الباهرة، وينبوعاً من ينابيعه الزاخرة، التى لاينضب معينها الفياض، مابقى فى دنيا الاسلام اسم للاسلام ومابقى على وجه هذه البسيطة ظل للحق والايمان .

هذا هو ميدان قلمه ، وعلى هذا فقس ميدان لسانه وفمه ، فقد كان رحمه الله من اروع الخطباء فى دنيا الخطابة وأشدهم نفوذاً الى قلوب سامعيه .

وكم من موقف وقف فيه خطيباً فاعجب وأغرب ، حتى قيل عنه انه من أخطب خطباء العرب ، ولان لم يكن كما قيل ، فلاشك انه من أخطب خطبائهم فى عصره الذى وجد فيه ، ولعل للوراثة أثرها فى تكوينه الخطابى المنبثق من تكوين أبيه سيدالفصحاء ، وإمام البلغاء امير المؤمنين ع وفي بلاغته رحمه الله التى كانت تتفجر من بين فكيه مايشهد له بانه كان متأثراً بتلك الوراثة الى حد بعيد :

واي عجب من أن يتأثر بها ، في بلاغة لسانه ، وفصاحة بيانه ، وقد تأثر بها في اكثر مزاياه الروحية والمعنوية المطبوعة بطابع من اللطف لايصح إلا ان يكون طابعاً علوياً أو محمدياً ، وهو الذى جعل من شخصيته لاكالشخصيات وذاتاً لاتشبهها كثير من الذوات ، وهو بهذه اللغة البليغة التى تمكن منها في أحاديثه وخطاباته ، استطاع ان يعمل الأعاجيب في خدمة مبدئه وعقيدته ، فكان يغزو بها العقيدة الفاسدة وهى راسخة في مقرها رسوخ الوتد في مغرزه ، فيستلها من موطنها استلالا ، ويستأصلها من جذورها استئصالا ، وليس لديه من سلاح إلا تلك الحجج البالغة

التى تتدفق من لسانه تدفق الينبوع من عينه الثرة ، وتندفع اندفاع السيل من أعالى القمم :

وأماميدان يده فليس في وسع هذه العجالة ان تلم بتفاصيله وأطرافه ولكن فى وسع الباحث ان يسأل عنه بلاد لبنان وابناءها وارضها وسماءها لتنبئه عما كان له في تلك البلاد من جهود جبارة وجهاد مستمر فى سبيل اعلاء كلمة الله واقامة الحق وانكار الباطل غير هياب من سلطة ، ولا متملقاً لدى سلطان ، ولعل صرخاته الاخيرة التى أطلقها من حقيرته في سبيل الاصلاح لايزال صداها مدويا في آفاق الشرق الاوسط حتى اليوم ، فرحمك الله ياشرف الدنيا وشرف الدين ، لقد خسرك الاسلام وأصيب بك المسلمون ، فانالله وإنا اليه راجعون) .

وكتب العلامة السيد محمد صادق الصدر مقدمة ضافية لكتاب النص والأجتهاد فى طبعته الثالثة ، وقد مررنا بهذه المقدمة مراراً في مسيرة هذه الدراسة ، وأنقل فيما يلى جزءاً يسيراً منها ، يعالج فيها السيد الصدر قضايا معينة تعطينا ابعاد جديدة للقيم الانسانية التى كانت تزخربها نفس الامام المترجم له :

(كانت حياته كلها تدل دلالة قوية على علو نفسه ، وعظيم شخصيته وتحضرني حادثتين تدلان بوضوح على تأصل هذه الصفة الفذة فى نفسه العلوية العالية :

(١) كان السيد فى دمشق على عهد الملك فيصل الأول حيث قد شرد عن وطنه ، وحكم عليه بالاعدام من قبل الفرنسيين .

وكان من جملة من شملهم الحكم زعيم جبل عامل الكبير المرحوم كامل بك الاسعد : رجل الوطنية والاخلاص :

وبالنظر لابتعاده عن بلده ، فقد رزح تحت أزمة اقتصادية شديدة اضطرته ان يبعث رسوله الى (بنت جبيل) يستدين من أحد المثرين ثلاثمائة ليرة عثمانية ، ليسد بها بعض حاجاته ، فارسل له ثلاثين ليرة واعتذر عن الباقي فاستشاط الزعيم غضباً ، وأرجع المبلغ مع الرسول حالا .

وقد سمع السيد هذه الحادثة فمضى لزيارة الزعيم الكريم ، وقدم له ثلاثمائة ليرة عثمانية ، فامتنع أشد الامتناع ، لانه يرى السيد في ازمة لاتقل عن ازمته ، فأخبره السيد بان لديه مايكفيه فى الوقت الحاضر فقبل المبلغ شاكراً .

ولما رجع الزعيمان الى بلادهما ، وعادت المياه الى مجاريها زار الزعيم الاسعد السيد في داره ومعه المبلغ فقدمه الى السيد شاكراً ، فاخبره السيد باستحالة قبوله ، لانهما نفس واحدة لاتتجزأ ، وقد صرفا المبلغ على نفسيهما المتحدتين ، فرجع الزعيم الى بلده بعد اليأس من قبول السيد .

وكرر الزعيم الاسعد الزيارة مرة ثانية ومعه وقفية تنطق بوقف عقار من أملاكه على ولد السيد المرحوم العلامة السيد محمد على شرف الدين اكبر اولاد السيد ، وكان يومئذ في مهجره النجف الأشرف ، ويظن المرحوم الاسعد ان الأمر قد أبرم بصورة محكمة لايمكن نقضة لأنه وقف والوقف لايمكن تغييره او الرجوع عنه ، فابتسم السيد وقال ان الوقف لايكون لازماً إلا بشروط ، ومن شروطه القبض والاقباض ولم يحصل الاقباض منك ، ولاالقبض من ولدى السيد محمد على ، فلا يكون الوقف لازماً .

وهكذا رجع الزعيم الى (حربته) المرة الثانية بعد ان لمس المجد من السيد الاكبر .

٢ ـ وأما الحادثه الثانية ، فهى ان السيد قصد الملك فيصل الأول في دمشق يوم كان ملكاً عليها ، على رأس وفد من العلماء ، فلما انتهت الزيارة وأراد العودة الى جبل عامل ، أرسل الملك للسيد مع فخامة السيد الجابرى مبلغ خمسة الاف ليرة عثمانية هدية للسيد ، فتقبلها السيد شاكراً ثم أرجعها للجابرى لتقدم باسم السيد هدية الى الجيش العربى في سوريا ، ثم قال (تمنيت ان اكون درهماً لأضع نفسى فى صندوق الجيش العربى لادافع عن الاسلام والعرب) .

وكان الاستاذ الجابرى يذكر هذه الحادثة كلما ذكر السيد ، باعجاب واكبار ، وينقلها في كل مناسبة .

وهاتان الحادثتان تدلان معاً على كرم يده وعلو نفسه فى وقت واحد وكانت حياته في جميع الادوار تعطى دروساً خلاقة في العلم والأدب والاخلاص وكرم اليد والطباع .

وكتب العلامة السيد موسى الصدر ، كلمة طويلة في الامام شرف الدين ، مملوءة بابكار المعانى وزاخرة باجزل التعابير ، نقتطف منها بعض المقاطع .

يقول حفظه الله (١) :

(أذكر في يقين وصف أبى لاخلاقه ، وأفهم الآن جيداً ماذا يعنى نعتها بالنبوية .

---

(١) مجلة النهج الجزء السابع . السنة الخامسة . الكلمة مترجمة عن الفارسية

كانت جلسته القواضع ذاته ، وكانت للنبي جلسة العبد :

قبل يد شاب أعرفه في اهابى ، وكان يحترم الناس جميعا على اختلاف منازلهم وأقدارهم .

لاعرف كيف أصف كرمه إلا اذا شبهته بجبل عظيم شاهق يتلقى هبات السحاب ، ويقدمها الى السفوح والاودية بغيريه ونكران ذات .

صبره على تحمل المشاق أوسع من بيانى ، وأعمق مما وصل الى علمه ، فقد كان يكابد الالام الكبار وحده ، مخففاً عن غيره همومها في اشفاق ورحمة .

كالنبى والاوصياء ، كان يغبض حياءاً اذا وهب ، وكان يجده مدينا لسائله دينا يقض مضجعه بالمقيم المقعد اذا عجز عن ادائه :

ماشوهد متبرماً من مكروه ، ولاضيقاً بعظيمة ، وانه الملتقى للمشكلات لاتحل ، ومحبحة للصعاب لاتذلل ، وكان اكبر ماكان خاضعاً للحق من حيث جاء ، كثيراً ماتلمع من طفل بارقة ، أو تشرق حكمة على ثغر شاب ، وما كان شيىء من هذا يحدث دون ان يثير اهتمامه واريحيته ، وماكثر ماأعلن لهذا أو لذاك افادته منهما ، في صدد تقديرهما والاعجاب بهما :

كانت الفضيلة تستهويه حتى في عدوه ، والرذيلة تزعجه حتى في صديقه ، وكان لايكتفى فى هذا وذاك باضعف الايمان ، وكان جبينه يسطع باذن عام يزيل عن ذوى الحاجات حرج النهيب ، ويضع عن العافين شعور الكلفة .

وكان في الحق جريئا مقداماً باسلا منصورا ، والملمون بحياته ادنى المام يعرفون جسامة شجاعته بتضحياته المنوعات الجسام . : هجراته .

تشرده ، خسائره ، مطاردات الحكومات له ، نضاله الشاق حتى آخر لحظة من عمره ، كل هذا يظهر لنا الفارس المثال ، الذى يذكرنا بابطال المسلمين الأولين .

نعم ، هو كما وصفه لى ابى :

انه لمو الخلق النبوى .

فى علمه حملت آثاره عنى وعن كل باحث مهمة وزنه وتعبيره ، خذوا كتابه المراجعات ، فهو أملى على عالم عظيم كزعيم الشيعة السيدالبروجردى ان يطلق على سيدنا اسم (المرتضى) في زماننا ، واذا التفعم الى الفصول المهمة و جدتموها طليعة المكتبة الاسلامية اليوم ، وفى (اجوبة موسى جار الله) و(كلمة حول الرؤية) و(فلسفة الميثاق والولاية) (والى المجمع العلمى العربى) من الحق مايأخذ بالاعناق الى الطاعة والتسليم أما (ابو هريرة) فقد اسس مدرسة نقدية لعلها كبرى مدارس النقد فى التاريخ الاسلامى :

ولايقل عنه في التحقيق ضوه (النص والاجتهاد) ، ومن فتوحه العلمية (مسائل فقهية) التى أيد فيها احكاماً شيعية بمستندات سنية .

وما كان عبثاً ان كان إماماً طبق ذكره ارجاء العالم الاسلامى كله .

من المعروف المشهور انه كان اعظم القادة دفاعاً عن الاسلام ، وأشدهم شكيمة في الذياد عن حياض (التشيع) حتى لقد اجمعت الكلمة على عده اولا في علماء الاسلام قاطبة ، وليس من شك فى ان (العصبية) لم تكن من رسائله فى ميدانيه هذين الى الغاية العظمى التى سعت هي اليه ، لان العصبية شر لايمكن ان يفضى الى خير كهذا فماذا قدمه حتى رفعه الى هذا المرتقى إذن ؟

نعم : . بالانصاف . ونشدان الحقيقة ، ورعاية المصالح العامة ، بلغ هذه الدرجة ، ولم يكن له في الواقع بهذا نظير في العالم الاسلامي

من الحق انه كان يدافع عن التشيع بحماسة ، ولكن حماسته كانت تنبع من الدعوة الى جمع الصف وتوحيد الكلمة ، وقل مثل هذا فى حماسته دفاعاً عن الاسلام ، وصدوعاً بالدعوة الى المحبة والتسامح .

كان مفتوح الذراعين للجميع ، أبناء الأديان والطوائف في ظله اخوان والمصالح العامة عنده أخوات ، لاتتخاصم بعناوينها المذهبية ، بل تتصالح :

حياته - رضوان الله عليه - تتحد فى صميم تنوعها بجوهر رسالته وكما يتساند نتاجه وتعميره ، بنسج عظمته ، ينهض سلوكه مصدراً لهذه العظمة بالذات .

كان استاذاً فى مدرسة لاتغلق أبوابها ، ولاتنكف عن عطاء ، وكان قاضياً في محكمة غير محدودة الأوقات ، وكان داعية يسعى الى الناس بما ينقذهم فى غشاواتهم وغفلاتهم وانفسهم ، وكان وقفاً للجميع حتى في اوقات راحته .

كانت سعادته أن يشقي فيسعادة الآخرين :)

ومن كتب عن الامام شرف الدين بتفصيل وبعمق المرحوم الدكتور عز الدين آل ياسين ، كتب هذه الكلمة - رحمه الله - فى شباط سنة ١٩٣٧ م ، وتلاها فى استقبال الامام شرف الدين بمناسبة زيارته للمشاهد المقدسة فى العراق آنذاك .

وكلمة لابد منها فى هذا المقام . لوقدر للدكتور ان يمهله الأجل لأجدى كثيراً ، وأسدى في النفع مالايتاح إلاقليلين من العلماء ، ولئن

كان اختصاصه في اللغات السامية ، والنحو المقارن ، فان ميادين نشاطه متعددة ، وكان فيها جميعاً من المبرزين ، ولاجل ذلك مازال الشعور العام بخسارته مستمراً ، والفراغ الذى تركه لم يسد بعد :

يقول رحمه الله :

(لامر ما اصطفى الله آل ابراهيم ، وختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وجعل منه شجرة ممتدة الاغصان ، وارفة الأفياء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء .

ولامرما اراد الله ان تطرد رسالة هذه الشجرة المباركة الخالدة فنفخ من روحه فى بعض أغصانها (فى سلالة على وفاطمة) بانشائهم خلقاً آخر يضطربون باجسامهم فى نطاق محدود من هذه الدنيا المحدودة ولكنهم يسبحون فى دنيا عريضة ، عالم الفكر والروح لاتعرف سدوداً ولاحدوداً ، اولئك نفر آثرهم الله بنوره ، وحاطهم بلطفه ، وأسبغ عليهم من فضله ، واختصهم بمواهب وخلال وكفايات جعلهم بها صدى للنبوة ، واستمراراً لها ، وجعل منهم حفظة الحق ، ومصابيح الهدى ، وائمة الناس ، وناط بهم راية الدين يحملونها الى مشارق الارض ومغاربها ، يجادلون الناس فيها بالحكمة والموعظة الحسنة ، والله أرأف بهذه الأمة التى رببها (١) على يد نبيه ، وهذ بها على هدى آله وخلفائه ، ان يلقى حبلها على غاربها ، دون ان يلقى الحجة عليها بالنفر الغر الميامين من جنده المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الانسانية من قرن الى قرن ، يقفون للدين حين يستهدف للازمات وينفحون عنه حين تتهدده الغارات .

---

(١) من قولهم ربب الصبي تربيباً وتربة بمعنى رباه حتى أدرك

هؤلاء العلماء . . وهؤلاء هم الذين يقودون سفينة الدين اذا ارتطم الموج ، وعز السفين ، فيشقون عباب اليم ، يلطمون الحباب بجذبها ، ويصارعون أواذى الموج بمجذا فيها حتى يفلتوا بها من مكان الخطر ، ويأووا بها الى ركن وثيق ، فيظفرون من الضمير بالرضا والطمأنينة ، ومن الناس بالزعامة والامامة ، ومن الله بالهدى والتوفيق

ولايكاد يعدم عصر من علم من هؤلاء الاعلام يمتاز عن سواه بمتانة الخلق ، وصلابة الرجولة ، وشدة الأسر ، وقوة الحيوية ، وصفاء الذهن ، ورسوخ اليقين ، فيقيمه الله بين الناس حجة عليهم اذا ضلوا ونوراً لهم اذا ادلجوا :

• • •

ونحن نريد ان نتحدث اليوم عن احد اعلام هذا العصر الذين طبقوا العالم الاسلامي كله شذى وعبيرا ، وأتعبوا السنة المسلمين تهليلا وتكبيرا ، ذلك هو سماحة السيد عبد الحسين شرف الدين كبير علماء سوريا ، وأحد اقطاب الزعامة الدينية القويمة في العالم الاسلامي ، ولعلك تقرأ من ملامح رسمه آيات فضله وعلمه ، وانت إذ عددت قادة العلم والدين والقلم في العصر الحاضر ، فأنت مضطر ان تعده فى رأس القائمة منهم .

ومنها . . :

وهو اليوم يستقبل عهد الشيخوخة ، ولكنه لم يستسلم لسلطانها ، فاذا أنت رأيته ، رأيت شيخاً في إهاب شاب ، قوى الهمة ، ماضى العزيمة ، خشناً فى ذات الله ، فى غير فضاضة ولاجفاء، لاتأخذه في الله لومة لائم ، صريح فى قوله وعمله يتساوق من ظاهره وباطنه ، لايستحب

فى واحد منهما رثاءاً ولانفاقا ، ولاتلبيسا ولاتدليسا ، هش واسع الصدر يسع كل جليس خلقه وفضله ، وكرمه ، مهيب هيبة متواضعة رقيقة حبيبة الى النفس ، مفره وهب لسانه وبيانه ذرابة قوية محكمة ، يمدها تفكير جبار ، وقريحة مهجة تقرأ فى اى كتاب من بنات يراعته فتستلهم وحى البلاغة ، وروعة الحق ، وتستمعه يتحدث الى مستمعيه فتراه يفرض عليهم الاصغاء بحلاوة منطقه ورصانة أدئه ، فهم لايملكون إلا ان يعوا فينتفعوا .

ملكة وهبها سيدنا أدام الله ظله فجعلته فى مقدمة القافلة من العلماء والاعلام ، وجعلته واحد الناس ، ذرابة لسان ، وقوة بيان ، ومتانة اسلوب ، وبعد غور ، يخرج الى الناس غير مبيت للقول ، ولامقيد للرأى ، فما هي إلا ان يستقل صهوة المنبر حتى تشرئب الاعناق اليه وتتجه الآذان صوبه ، مقبلة عليه ، مصغية اليه منتظرة كلمته ، فما هى إلا ان يداعب خاتمه ، حتى تنثال عليه الالفاظ انثيالا وتتوارد المعانى وحداناً وإرسالا .

فاذا جلجل صوته في الحاضرين ، ملا اسماعهم وعقولهم بما ينتظمه بيانه من سحر وفتنة وقوة وصرامة وجمال وجلال ومتاع وابداع :

تنشق من بيانه نفحة من نفحات جده المرتضى ، ولاغرو ، وانما هو غصن من غصون سرحته ، وفرع من فروع دوحته ، وانما هى قضاياه من قواعده ، وبينات دعاواه في شواهده ، ومضامين عبقرياته من هديه وافانين بلاغاته من وحيه :

مراجع البحث

١ - نهج البلاغة . الشيخ محمد عبدة ج ٢

٢ - مهزلة العقل البشرى . الدكتور على حسين الوردى

٣ - شيخ المضيرة . الشيخ محمود ابورية

٤ - تاريخ الأمم والملوك : الطبرى

٥ - الكامل في التاريخ . ابن الأثير

٦ - مجمع البيان لعلوم القرآن : الطبرسي

٧ - صلح الحسن . الشيخ راضى آل ياسين

٨ - ثورة الزنج . الدكتورة فيصل السامر

٩ - اصل الشيعة واصولها . الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

١٠ - نقباء البشر . الشيخ اغابزرك الطهرانى الجزء الاول

١١ - وعاظ السلاطين : الدكتور على حسين الوردى

١٢ - مرج الذهب . المسعودى الجزء الثالث

١٣ - البلاد العربية والدولة العثمانية ساطع الحصرى

١٤ - أعيان الشيعة . السيد محسن الأمين

١٥ - الشيعة والحاكمون . الشيخ محمد جواد مغنية

١٦ - عارنا فى الجزائر : جان بول سارتر ترجمة سهيل ادريس

١٧ - المختصر النافع للمحقق الحلى

١٨ - فجر الاسلام : احمد امين

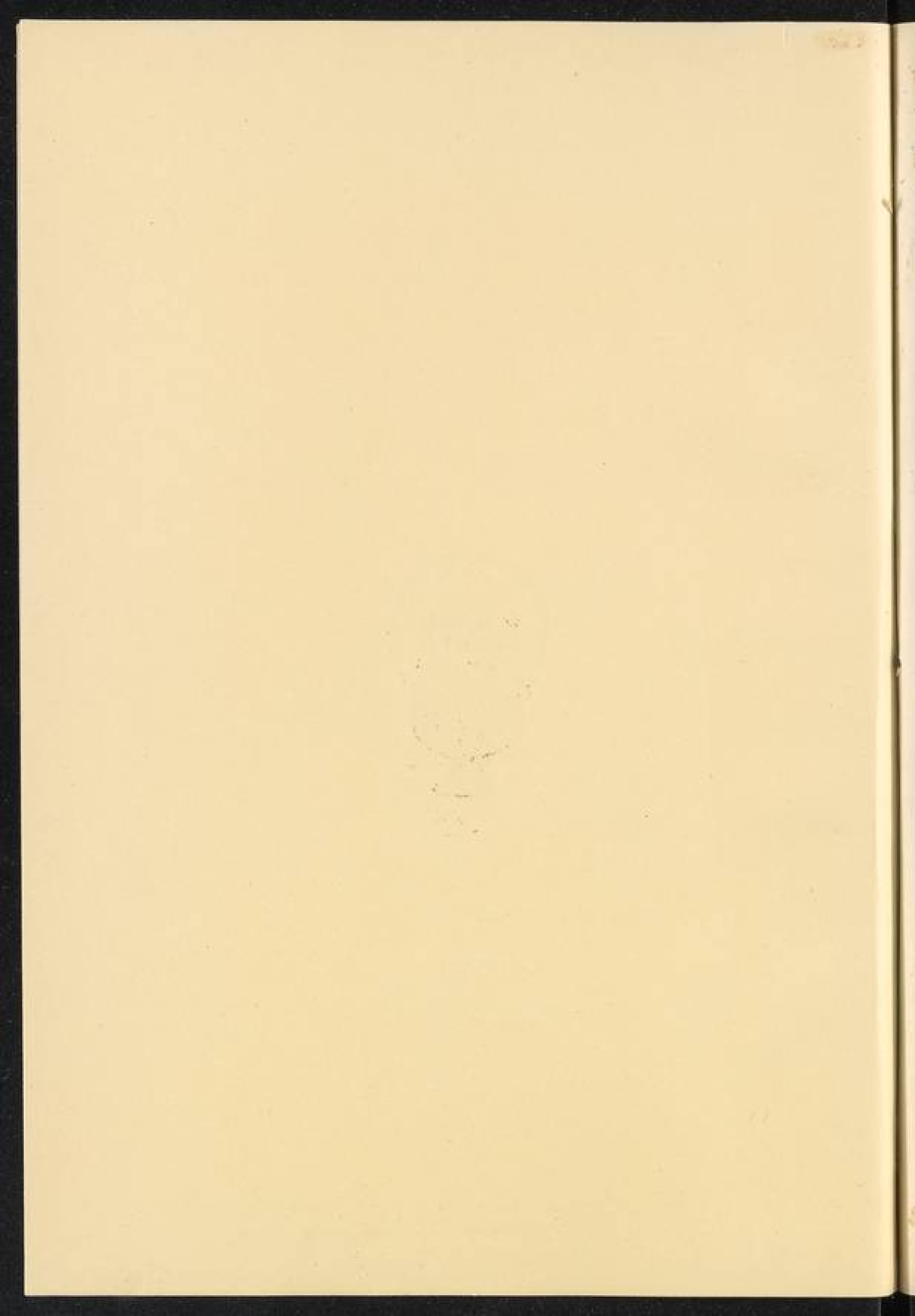
١٩ - أدب الثورة . الدكتور محمد غلاب

٢٠ - شخصية الفرد العراقي . الدكتور على حسين الوردي

٢١ - لمحات في تجاربي الفكرية . الدكتور صلاح الدين المنجد
٢٢ - تاريخ الوزارات العراقية . عبد الرزاق الحسني الجزء الأول
٢٣ - تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام . الامام آية الله السيد حسن الصدر
٢٤ - مؤلفات الامام السيد عبد الحسين شرف الدين
٢٥ - جملة من المجلات العراقية والعربية

الفهرست

مطبعة النعمان ــ النجف الاشرف تلفون ٢٠٩٧





من منشورات المكتبة الاهلية في بغداد

تلفون ٦١٤٥١

سنة ١٩٧٠

